

أحب الناس إلى الله

— مدارج

أحب الناس إلى الله

في نفع الخلق وقضاء الحاجج وتفريج الكربات

تأليف وتوزيع مدارج

الإهداء

إلى من أثقلتته حاجة فلم يجد من يسمعها، وإلى من عرف باباً من أبواب الخير ففتحه لغيره، وإلى كل يد امتدت في خفاء فرفعت عن إنسان بعض ما نزل به.

إلى من تعلم أن الكلمة قد تكون عوناً، وأن الستر قد يكون نجاة، وأن الإصلاح بين قلبين صدقة، وأن الإنسان قد يملك من النفع ما لا يملكه صاحب المال: علماً صادقاً، أو مشورة أمينة، أو جاهاً يبذله، أو وقتاً يصبر فيه مع مكروب.

نسأل الله أن يجعل في هذه الصفحات نفعاً خالصاً، وأن يرزقنا وإياك قلباً يرى حاجات الناس فلا يحتقر منها شيئاً، وعملاً لا يطلب به إلا وجهه. ونسألك دعوة صادقة لنا ولوالدينا ولمن أعان على وصول هذا الكتاب.

هذا الكتاب وقف لله تعالى.

تأليف وتوزيع مدارج.

المحتويات

من أين تبدأ؟	٩
مقدمة	١٣
<hr/>	
القسم الأول — النفع عبادة	٢٠
حين يصير هم أخيك من عمل قلبك	٢١
ألفاظ متقاربة لا تؤدي العمل نفسه	٢٥
حين لا تملك الحل كله	٢٨
حق المعسر قبل فضل المحسن	٣٠
ستر يصلح ولا يغطي الضرر	٣١
العون الذي يطول ما دمت فيه	٣٥
ليس المال الباب الوحيد	٣٨
ما الذي يقدم في هذه الساعة؟	٤٢
الجزاء من جنس العمل	٤٨
الرفق جزء من النفع	٤٩
أن تعرف ما الذي تخففه	٥٠
حين يصير النفع خلقاً لا حادثَةً	٥٤
أي معروف يحتاجه هذا الموقف؟	٥٧

القسم الثاني — موازين النفع وحدوده	٦٢
البر الذي لا يتجزأ	٦٣
ما تكشفه سورة الماعون	٦٧
ميثاق لا يفصل المسجد عن الطريق	٦٩
يدان لا تجتمعان على كل شيء	٧٢
العدل أول المعروف	٧٦
مال له أبواب محددة	٧٧
العدل حين يكون الخصم بغيضاً	٨٢
التهلكة التي تبدأ من ترك الواجب	٨٦
حين تكون النعمة أمانة لا منصة	٩٠
أن تحيي نفساً: البداية ألا تهلكها	٩٦
قبل أن تمد يدك: ستة موازين تحرس الخير	١٠١
حين يتزاحم بابان من الخير	١٠٩

القسم الثالث — دوائر النفع وأصحاب الحقوق	١١٧
خريطة القرب التي لا تنسى العابر	١١٨
القول الكريم جزء من الحاجة	١٢٥
حقوق البيت والجار والطريق	١٢٩
الجار الذي يصل إليه أثر القدر	١٣١
الفقير الذي لا يطرق الباب	١٣٣

١٣٨	قبل أن تسأل: كم أعطي؟
١٤٢	حين يكون حق المحتاج أن تتركه يتنفس
١٤٦	حين تكون الحاجة باباً للخروج من الظلم
١٤٩	بر لا يطلب ثمناً في العقيدة
١٥٢	إصلاح اليتيم لا عزله
١٥٥	حين يكشف اليتيم حقيقة نظرنا إلى المال
١٥٩	الإطعام والرحمة: من الإنسان إلى كل كبد رطبة
١٦٢	غرس يأكل منه من لا تعرفه
١٦٦	حين يمرض من اعتدت قوته
١٧١	أن تفتح باب المشاركة
١٧٨	الأجر الذي ينتظره صاحبه
١٨٤	الغريب الذي لا تنقصه النقود
١٩٠	حين تصل المساعدة إلى صاحبها
٢٠٢	حين تكون أنت صاحب الحاجة

٢٠٨	القسم الرابع — طرائق النفع ووسائله
٢٠٩	كلام يفتح باباً للخير
٢١٢	حين يكون المبدول محبوباً
٢١٩	حين تعطي مما تحب
٢٢٢	العقبة التي لا تعبر بالكلام
٢٢٤	حين يصير الجاه يداً ثانية

٢٢٧	إصلاح لا يساوي بين الظالم والمظلوم
٢٣٠	الصلح لا يصنع رضا مفقوداً
٢٣٤	الإصلاح الذي يبدأ من نزاع المال
٢٣٧	ليس نصراً أن تعين أخاك على خطئه
٢٤٠	حين يكون الخير عنواناً ترشد إليه
٢٤٣	العلم أمانة، والعمل موضع أهله
٢٥٤	حين يتقاسم الناس قضاء الحاجة
٢٦٨	أن تترك عنده قدرة

٢٧٢	القسم الخامس — أخلاق اليد النافعة
٢٧٣	الإيثار الذي يبدأ في الصدر
٢٧٦	المعروف الذي لا يجرح
٢٨٤	لا تجعل الحاجة إذناً للإهانة
٢٨٧	العفو الذي يداوي ولا يطلق الأذى
٢٩٠	إحسان لا تلغيه الإساءة
٢٩٨	أقوى الردود ليس أشدها
٣٠١	حين يضيق المال ويتسع القلب
٣٠٩	رفق لا يلغي القرار
٣١٦	لين أمام أعتى قوة
٣١٩	قبل أن تنطق بالحقيقة
٣٢٤	الرحمة ليست ضعفاً تربوياً

- حين لا يصير المعروف سلطاناً ٣٢٧
- إذا أخطأت وأنت تحاول أن تنفع ٣٣٦
-

- القسم السادس — شواهد النفع في السيرة والتاريخ ٣٤١
- حين يصير صدق الخبر جزءاً من الرحمة ٣٤٢
- عمل يحفظ الأصل ويفتح الثمرة ٣٤٨
- حين يفتح عمل واحد باباً لغيره ٣٥٢
-

- القسم السابع — آثار النفع في الإنسان والمجتمع ٣٥٧
- حين لا يكون الأثر وعداً ٣٥٨
- من لم يصل إليه المعروف ٣٦٧
-

- القسم الثامن — من المعرفة إلى عادة نافعة ٣٧١
- من الرغبة إلى عادة نافعة ٣٧٢
- اثنا عشر أسبوعاً لتتعلم أين تضع يدك ٣٨٢
- ورشة الخير: من النية إلى منفعة تصل ٣٩١
-

- المصادر وإحالات النصوص ٤٩٥

من أين تبدأ؟

قد تريد أن تنفع الناس، ثم تختار: أبدأ بمالي، أم بوقتي، أم بإصلاح ما عليّ من حقوق؟ يساعدك هذا الكتاب على اختيار عمل مناسب، وأدائه دون منٍّ أو أذى، ومتابعته حتى تعرف ما وصل منه. ستجد فيه أصولاً تزن بها العمل، ومواقف تقرب المعنى، واثنين وثلاثين تدريباً تختار منها ما يلائم حياتك.

ليس عليك أن تبدأ بمبادرة كبيرة أو تقرأ الكتاب كله قبل أول خطوة. انظر إلى وعد قائم، أو عبء في بيتك، أو حاجة تعرف صاحبها. ثم اختر أحد المسارات الآتية. يمكنك الضغط على عنوان التدريب في النسخة الإلكترونية، أو العثور عليه باسمه في فهرس التدريبات داخل «ورشة الخير».

إذا أردت بداية شخصية

ابدأ بفصل «ليس المال الباب الوحيد»، ثم اختر «معروف يبدأ من حق متأخر». اكتب حقاً أو وعداً تعرفه فعلاً، وحدد الخطوة التي تملكها. إن لم يكن عليك حق متأخر، فاختر «جوار يبدأ بكف الأذى»؛ فقد يبدأ بفعلك بإصلاح شيء يخرج منك قبل أن تضعيف شيئاً إلى حياة غيرك.

بعد المحاولة، اقرأ «إذا أخطأت وأنت تحاول أن تنفع». ستحتاج إليه حين يتعثر الوعد، كما تحتاج إلى التشجيع حين تبدأ. علامة التقدم هنا أن يصير فعلك أوضح وأصدق؛ ليست كثرة الأعمال ولا مقارنة نفسك بغيرك.

إذا كان بابك البيت والأقربين

اقرأ «خريطة القرب التي لا تنسى العابر»، ثم اختر بين تقاسم عبء البيت، وخدمة الوالدين، ومساندة من يحمل مسؤولية الرعاية. اسأل عن عبء محدد يريد صاحبه تخفيفه، وافق على الجزء الذي ستولاه؛ لا تعلن أنك ستعيد ترتيب حياة الأسرة كلها.

ارجع إلى صاحب الحاجة بعد التنفيذ: هل خف العبء الذي اتفقنا عليه، أم انتقل إلى صورة أخرى؟ قد يكون تعديل الموعد أو تقليل المهمة أنفع من مضاعفة الجهد. وحين تمرض قوة اعتدتموها في البيت، يفيدك فصل «حين يمرض من اعتدت قوته».

إذا كنت متطوعاً أو تعمل مع فريق

ابدأ بفصل «حين تصل المساعدة إلى صاحبها»، ثم اقرأ «فريق يعرف من يفعل ماذا» و«إحالة لا تترك الإنسان بين الأبواب». اختر طلباً قائماً، وعين من قبله، وما وعد به، وكيف يعرف صاحب الطلب حاله. لا تحتاج إلى نظام معقد كي تمنع وعداً من الضياع بين عدة أشخاص.

عندما تبدأ المتابعة، انتقل إلى «شكوى تعلمك أين لم يصل الخير». لا تجعل رضا الأكثرية سبباً لإهمال عشرة شخص واحد، ولا تجعل حالة واحدة حكماً على الخدمة كلها. افهم الواقعة وأصلح ما تملكه، وأبق ما لم تعرفه مجهولاً حتى يتضح.

إذا أردت قراءة الكتاب من أوله إلى آخره

تبدأ الأقسام بمعنى النفع وميزانه، ثم تنتقل إلى أصحاب الحقوق ووسائل العون وأخلاقه. وتأتي الشواهد والآثار قبل القسم العملي الأخير. اقرأ المقدمة وما فيها من بيان للعنوان، ثم سر مع هذا الترتيب. وعند فصل يلامس واقعك، تمهل فيه وجرب سؤالاً منه؛ ليس إكمال الصفحات وحده غاية القراءة.

للعودة السريعة، تحفظ لك خريطة التدريبات مواضع العمل، ويحفظ الفهرس العام مواضع التأصيل. وإذا احتجت إلى حكم في زكاة أو عقد أو حالة علاجية أو نزاع، فاقراً حدود المسألة وارجع إلى أهل اختصاصها؛ هذه المسارات تساعدك على استعمال الكتاب، ولا تمنحك أهلية لممارسة ما لم تتعلمه.

خطوة تخرج بها من هذه الصفحة

أكمل لنفسك هذه الجملة: «سأخفف هذا الأسبوع عبثاً محدداً هو...، بالفعل الذي أقدر عليه وهو...، وسأعرف وصوله من...». المدة مثال للترتيب وليست فضيلة خاصة. إن احتاج الأمر إذناً أو اتفاقاً، فابدأ به. وإن كان حقاً واجباً، فلا تجعل التدريب ذريعة لتأخيره. ارجع بعد المحاولة إلى ما تعلمته، لا إلى الصورة التي أحببت أن يراك الناس عليها.

مقدمة

قد تعرف إنساناً سنوات، ثم تكتشف أنك لم تعرف ما يثقله. كنت تراه حاضراً بين الناس، يجيب إذا سُئل، ويمضي إلى عمله، بينما تحمل أيامه حاجة لا يحسن عرضها. وقد يكون أقرب إليك من ذلك: أحد أهل بيتك الذي اعتدت صبره، أو زميلاً يستحي أن يطلب منك ساعة، أو جاراً لا ينقصه الطعام بقدر ما ينقصه من يسأل عنه. هذه صور محتملة من حياتنا؛ تذكرنا بأن الألفة لا تغني عن الإصغاء، وأن رؤية الإنسان كل يوم لا تعني أننا عرفنا حاجته.

في تنفيس الكربة وقضاء الحاجة يقترب معنى العبادة من حياة الناس: تعبهم، وضيقهم، وما يستطيع بعضهم أن يحمله عن بعض. وستجد نصي العون وأخوة المسلم كاملين في أول القسم التالي، ثم نقف مع ما يفتحانه من أبواب العمل.^١

وقد تبدأ المساعدة قبل بذل المال؛ تبدأ حين تفسح لصاحب الحاجة وقتاً يشرح فيه ما يريد. ربما عرضت عليه ما تحب أنت تقديمه، وهو يحتاج شيئاً آخر. تريد أن تنصحه، وحاجته أن تفهم

١. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2699؛ صحيح البخاري، البخاري، حديث 2442؛ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2580.

سؤاله. وتريد أن تجمع له المال، بينما يستطيع تدبير أمره إذا عرف الطريق الصحيح. سؤال هادئ قد يحفظ جهدك وكرامته معاً: ما الذي يعينك الآن؟ وليس عليه أن يكشف لك من حياته أكثر مما تقتضيه المساعدة.

ومن رحمة هذا الباب أنه لا يشترط أن تملك الحل كله. تستطيع أن تخفف بعض المشقة، وأن تدل على من يحسن ما لا تحسنه، وأن تؤدي وعداً صغيراً بصدق. وقد تحتاج أيضاً إلى الاعتذار عما تعجز عنه. الاعتذار الواضح يترك لصاحب الحاجة فرصة أن يبحث عن طريق آخر؛ أما الوعد الذي لا تعلم كيف تفي به فقد يحبس انتظاره عندك.

ومع اتساع صور النفع، يبقى لها ميزان. يجمع البر في سورة البقرة بين الإيمان والعبادة والبذل والوفاء والصبر؛ فلا يستقيم أن نعني بحاجة بعيدة ونضيع حقاً لازماً، أو نطلب فرح إنسان بمعونة تظلم غيره. وفي المائدة اقترن التعاون بالبر والتقوى، وجاء النهي عن التعاون على الإثم والعدوان. حسن القصد يحتاج إلى عمل صحيح وطريق مشروع.^٢

٢. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2699؛ صحيح البخاري، البخاري، حديث 2442؛ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2580.

وتبقى كرامة من نعينه جزءاً من حاجته. قد يأخذ العطاء ثم يثقل عليه التذكير به. وقد يقبل المساعدة ولا يقبل نشر صورته أو تفاصيل محنته. وقد ينتفع منك ثم يخالفك في رأي؛ لا يجعل المعروف قراره ملكاً لك. تستطيع أن تحفظ حقك، وأن تضبط ما تبذله، وأن توقف استغلالاً وقع عليك، من غير أن تجعل ما مضى من إحسان وسيلة لإذلاله.

قد يكون أول ما تفعله بعد هذه الصفحات أن تنظر إلى حق قريب تأخر، أو وعد بقي معلقاً، أو شخص تستطيع أن تخفف عنه شيئاً معلوماً. اختر عملاً تقدر عليه، وافهم الحاجة التي يخدمها، ثم أدّه بما يحفظ حق صاحبه. لا تحتاج البداية إلى مشهد كبير؛ تحتاج إلى أن يصل الخير بالفعل إلى من يحتاجه.

في معنى العنوان

استلهم العنوان من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. وهذا لفظ الرواية المختارة:

أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سُرُورُ تَدْخُلِهِ عَلَى مُسْلِمٍ، تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جَوْعًا، وَلَئِنْ أَمْشَيْتَ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ -يعني: مسجد المدينة- شهراً،

ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه؛ ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا، ومن مشي مع أخيه في حاجة حتى يقضيها له؛ ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام.^٣

ويقوم موضوع الكتاب كذلك على أصول صحيحة مستقلة في تنفيس الكربة وقضاء الحاجة والعون. فالعنوان دعوة إلى العمل الصالح ورجاء القبول، وليس حكماً بتزكية أشخاص بأعيانهم.

ما الذي نحبه لأن الله يحميه؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي

٣. صحيح الترغيب والترهيب، الألباني، حديث 2623؛ المعجم الأوسط، الطبراني، حديث 6026؛ التويخ والتنبيه، أبو الشيخ، حديث 97؛ الترغيب والترهيب، المنذري، ج 3، ص 265.

يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرُهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلُهُ
الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَنْ أَسْتَعَاذَنِي لِأَعِزَّنَهُ، وَمَا
تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ
الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ

يبدأ الطريق إذن من الفرائض، لا من عمل تطوعي نختاره لأنه
أظهر أو أحب إلى نفوسنا. قد يكون أول ما يلزم النافع حقاً في
بيته، أو أمانة في عمله، أو صلاة حضرت؛ ثم يتسع بعد ذلك فيما
يقدر عليه من النوافل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول:

إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأُتِيَ بِهِ
فَعَرَفَهُ نَعْمَةً فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى
اسْتَشْهَدْتُ . قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ . فَقَدْ
قِيلَ . ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ
تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلِمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نَعْمَةً فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا
عَمِلْتُ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ وَعَلِمْتَهُ وَقَرَأْتَ فِيكَ الْقُرْآنَ . قَالَ

٤. صحيح البخاري، البخاري، حديث 6502.

٥. صحيح البخاري، البخاري، حديث 6502.

كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ . وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيقَالَ
هُوَ قَارِئٌ . فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أَتَى فِي
النَّارِ . وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأَتَى
بِهِ فَعَرَفَهُ نَعْمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ
تُحِبُّ أَنْ يَنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ
لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ . فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أَتَى
فِي النَّارِ ۖ

٦. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 1905.

لا تكفي صورة البذل وحدها لتشهد لصاحبها بالقبول. هذا خبر يحذر العامل على قلبه، وليس أداة يهتم بها المتبرعين أو المعلمين في سرائرهم. الإعلان ليس وحده رياءً، والخفاء ليس وحده إخلاصاً، ولكل صورة مقصدها ومصلحتها وأحكامها.^٧

لهذا يفترق سؤالان: هل وصل نفع العمل إلى صاحبه؟ ولمن أردت العمل؟ الأول نستطيع مراجعته وتصحيح طريقته، والثاني يحاسب به المرء نفسه ويرجو القبول من ربه. قد تكون النية صادقة وتحتاج الوسيلة إلى إصلاح، وقد يكون الأداء حسناً والقلب محتاجاً إلى مجاهدة. لا يغني أحد السؤالين عن الآخر، ولا يبيح لنا نجاح ظاهر أن نسمي شخصاً بعينه أحب إلى الله. ومن الأصول الصحيحة في العون وقضاء الحاجة نبدأ، محافظين على أمانة النسبة وصدق العمل.

٧. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 1905.

القسم الأول – النفع عبادة

حين يصير هم أخيك من عمل قلبك

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً
 مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسِرْ عَلَى مَعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي
 عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ
 فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ
 مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ
 السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ
 عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يَسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ^٨

هذا الحديث لا يبدأ من صورة المعطي القوي، بل من الكربة
 نفسها. يضعك أولاً أمام إنسان ضاق به الأمر، ثم يسألك عمك:
 هل تزيد عليه ثقله، أم تحمل معه بعضه؟ وتنفيس الكربة أوسع
 من أن يكون دفع مال فحسب. قد تزول الكربة بمعلومة صحيحة،
 أو بمكالمة تصل صاحب الحق بمن يقضيه، أو بحضور يرد عن
 المظلوم بعض الظلم، أو بكلمة تثبت قلباً اضطرب.

٨. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2699.

وقال النووي في شرحه لهذا الحديث:

باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر فيه حديث أبي هريرة من نفس عن مؤمن كربة إلى آخره وهو حديث عظيم جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب وسبق شرح افراد فصوله ومعنى نفس الكربة أزالتها وفيه فضل قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما تيسر من علم أو مال أو معاونة أو إشارة بمصلحة أو نصيحة وغير ذلك وفضل الستر على المسلمين وقد سبق تفصيله وفضل انظار المعسر وفضل المشي في طلب العلم ويلزم من ذلك الاشتغال بالعلم الشرعي بشرط أن يقصد به وجه الله تعالى وإن كان هذا شرطاً في كل عبادة لكن عادة العلماء يقيدون هذه المسألة به لكونه قد يتساهل فيه بعض الناس ويغفل عنه بعض المبتدئين ونحوهم.^٩

تفتح هذه السعة الباب لكل قادر، لكنها لا تعفي أحداً من الصدق. فمن أشار بغير علم أضر، ومن دخل فيما لا يحسن ربما زاد الكربة، ومن وعد بما لا يملك ترك المحتاج بين رجاء وخيبة.

٩. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، شرح حديث 2699.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^{١٠}

قال ابن حجر:

قوله : (المسلم أخو المسلم) هذه أخوة الإسلام ، فإن كل اتفاق بين شيئين يطلق بينهما اسم الأخوة ، ويشترك في ذلك الحر والعبد والبالغ والمميز . قوله : (لا يظلمه) هو خبر بمعنى الأمر فإن ظلم المسلم للمسلم حرام ، وقوله : ” ولا يسلمه ” أي لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه ، بل ينصره ويدفع عنه ، وهذا أخص من ترك الظلم ، وقد يكون ذلك واجبا وقد يكون مندوبا بحسب اختلاف الأحوال ، وزاد الطبراني من طريق

أخرى عن سالم ” ولا يسلمه في مصيبة نزلت به ” ولمسلم في حديث أبي هريرة ” ولا يحقره ” وهو بالمهملة والقاف ، وفيه بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم .^{١١}

العون أثر من آثار أخوة الإيمان؛ لا يمنح صاحبه حق الاستعلاء، ولا يترك المحتاج وحيداً مع ما يؤذيه. والوقوف معه يكون بقدر القدرة وعلى الوجه المشروع.

هنا ينتقل النفع من فضيلة لطيفة إلى مسؤولية قد نتعين. فإطعام الجائع الذي لا يجد، وإنقاذ من يوشك أن يهلك، وأداء الحق الواجب للأهل، ونصرة المظلوم بالقدر المشروع، ليست كلها في رتبة هدية نافلة أو كلمة طيبة. من فقه الخير أن تعرف درجته، لأن من اشتغل بمستحب وترك واجباً لم يضع العمل في موضعه.

١١. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2699؛ جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ج2، ص284-295؛ فتح الباري، ابن حجر، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه.

ألفاظ متقاربة لا تؤدي العمل نفسه

يتسع النفع في هذه الصفحات لأداء حق، وتخفيف ضرر، وإيصال مصلحة مشروعة. وتبقى الحاجة أوسع من الكربة؛ فقد يحتاج الإنسان إلى تعليم أو دلالة من غير أن يكون في شدة خانقة. وقال ابن رجب:

والكربة : هي الشدة العظيمة التي توقع صاحبها في الكرب ، وتنفيسها أن يخفف عنه منها ، مأخوذ من تنفيس الخناق ، كأنه يرخي له الخناق حتى يأخذ نفسا ، والتفريج أعظم من ذلك ، وهو أن يزيل عنه الكربة ، فتفرج عنه كربته ، ويزول همه وغمه ، فجاء التنفيس التنفيس ، وجاء التفريج التفريج ، كما في حديث ابن عمر ، وقد جمع بينهما في حديث كعب بن عجرة ١٢٠

١٢. جامع العلوم والحكم، ابن رجب، شرح الحديث السادس والثلاثين، ج2، ص286، فقرة تعريف الكربة والتنفيس والتفريج كاملة.

نأخذ من هذا البيان فرقاً يعين على فهم المقام: قد يخف العبء ولا يزول كله، وقد تنقشع الشدة. ولا نجعل هذا الشرح تعريفاً يحكم كل استعمال للكلمتين.^{١٣}

والمعروف أوسع من الصدقة، فيشمل قولاً وفعلاً مشروعين. وتجمع آية البر الإيمان والعبادة والبذل والوفاء والصبر. وفي تفسير الأمر بالعدل والإحسان تمييز بين أداء الحقوق والفضل الزائد؛ ولا يحصر هذا لفظ الإحسان في التطوع في كل سياق. أما الإصلاح فيطلب رد الفساد وإقامة العلاقة على الحق والعدل، فلا يكفي أن يسكت الخصام مع بقاء الظلم. هذه خلاصة للمعاني في مواضعها، تعييننا على ألا نسمي كل رغبة حاجة، أو كل تدخل نفعاً، أو كل تنازل إصلاحاً.

١٣. جامع البيان، الطبري، تفسير النساء 114 والبقرة 177 والنحل 90؛ تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير البقرة 177 والنحل 90؛ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تفسير النحل 90؛ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2699؛ جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ج 2، ص 284-295.

بهذه الفروق نعرف أين نقف: قد لا نرفع الكربة كلها لكننا ننفس منها، وقد نعجز عن الإحسان الزائد لكن يبقى علينا عدل أو حق، وقد نحسن إلى إنسان برفض طلب يضره. ليست دقة الاسم ترفاً، إنها أول حماية لصاحب الحاجة من وعد لا يطابق ما سيصله.

حين لا تملك الحل كله

يظهر أثر هذا الفرق حين لا تملك حل الأزمة. فقد لا تقدر أن تقضي الدين كله، لكنك تقدر أن تؤخر مطالبة، أو تجمع بعض المال، أو تصل المدين بجهة موثوقة، أو تمنع عنه إهانة تزيد محنته. لا تسم هذا حلاً كاملاً، ولا تحتقره لأنه لم يكن كاملاً.

من أخطاء النفس أنها لا ترى إلا البطولة الكبيرة. فإن لم تملك نهاية الأزمة تركت أول الطريق. خفف ما استطعت، وكن صادقاً في مقدار ما فعلت.^{١٤} وقد يكون النفع أن تحمل عن أم ساعة من رعاية صغيرها، أو أن تبقى إلى جوار مريض حتى يأتي أهله، أو أن تشرح لمتحير إجراءً معقداً، أو أن تدفع جزءاً عاجلاً من غرامة يترتب عليها ضرر أكبر.

١٤. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2699؛ صحيح البخاري، البخاري، حديث 2442.

ولا يبيح هذا أن نعد المكروب بما لا نملك، أو أن نقدم له معالجة لا نحسنها. النفع الجزئي الصادق خير من وعد كبير يصنع كربة ثانية. فإذا احتاج الأمر إلى طبيب أو مفت أو محام أو جهة حماية، كان من الأمانة أن ندله على المختص، وأن نبقي معه بقدر القدرة، من غير ادعاء اختصاص ولا استيلاء على قراره.

وربط الحديث تنفيس كرب الدنيا بكربة من كرب يوم القيامة. لا يحول المؤمن هذا الوعد إلى حساب مادي يحدد به صورة الجزاء، لكنه يتعلم منه أن ألم الإنسان الذي أمامه ليس هامشاً في طريقه إلى الله. ما يخففه عن أخيه محفوظ عند ربه، وإن نسي الناس اسمه، وإن لم ير ثمرته كاملة في الدنيا.

حق المعسر قبل فضل المحسن

ثم أفرد الحديث التيسير على المعسر. وقال ابن رجب:

والتيسير على المعسر في الدنيا من جهة المال يكون بأحد أمرين :
إما بإنظاره إلى الميسرة ، وذلك واجب ، كما قال تعالى : وإن
كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة [البقرة : 280] ، وتارة
بالوضع عنه إن كان غريماً ، وإلا فبإعطائه ما يزول به إعساره ،
وكلاهما له فضل عظيم ١٥٠

يبدأ النفع هنا بمعرفة ما لصاحب الحاجة من حق؛ فقد يحتاج إلى
مهلة قبل أن يحتاج إلى هدية، وإلى كف الضغط قبل كلمات
المواساة. وحين نميز الحق من التفضل، لا نجعل أداء الواجب
مناسبة للمنة. وسيأتي تفصيل هذا المعنى في فصل «حين يكون
حق المحتاج أن تتركه يتنفس»، مع حفظ الفرق بين العجز
والمماطلة، وبين إنظار الدين وإسقاطه.

١٥٠. جامع العلوم والحكم، ابن رجب، شرح الحديث السادس والثلاثين، فقرة وجهي
التيسير على المعسر، حتى «وكلاهما له فضل عظيم».

ستر يصلح ولا يغطي الضرر

وفي باب الستر من الحديث المتقدم معنى يحتاج إلى فقه؛ لأن كلمة جميلة قد يساء استعمالها. وقال ابن رجب:

واعلم أن الناس على ضربين : أحدهما : من كان مستورا لا يعرف بشيء من المعاصي ، فإذا وقعت منه هفوة ، أو زلة ، فإنه لا يجوز كشفها ، ولا هتكها ، ولا التحدث بها ، لأن ذلك غيبة محرمة ، وهذا هو الذي وردت فيه النصوص ، وفي ذلك قد قال الله تعالى : إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة [النور : 19] . والمراد : إشاعة الفاحشة على المؤمن المستتر فيما وقع منه ، أو اتهم به وهو بريء منه ، كما في قصة الإفك .

قال بعض الوزراء الصالحين لبعض من يأمر بالمعروف : اجتهد أن تستر العصاة ، فإن ظهور معاصيهم عيب في أهل الإسلام ، وأولى الأمور ستر العيوب ، ومثل هذا لو جاء تائبا نادما وأقر بحد ، ولم يفسره ، لم يستفسر ، بل يؤمر بأن يرجع وليستر نفسه ، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم ماعزا والغامدية ، وكما لم

يستفسر الذي قال : ” أصبت حدا ، فأقنه علي ” . ومثل هذا لو أخذ بجريمته ، ولم يبلغ الإمام ، فإنه يشفع له حتى لا يبلغ الإمام .

وفي مثله جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : أقيلا ذوي الهيئات عثراتهم . خرجه أبو داود والنسائي من حديث عائشة .

والثاني : من كان مشتهرا بالمعاصي ، معلنا بها لا يبالي بما ارتكب منها ، ولا بما قيل له فهذا هو الفاجر المعلن ، وليس له غيبة ، كما نص على ذلك الحسن البصري وغيره ، ومثل هذا لا بأس بالبحث عن أمره لتقام عليه الحدود . صرح بذلك بعض أصحابنا ، واستدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم : واغد يا أنيس على امرأة هذا ، فإن اعترفت ، فارجمها .

ومثل هذا لا يشفع له إذا أخذ ، ولو لم يبلغ السلطان ، بل يترك حتى يقام عليه الحد لينكف شره ، ويرتدع به أمثاله . قال مالك : من لم يعرف منه أذى للناس ، وإنما كانت منه زلة ، فلا بأس أن يشفع له ما لم يبلغ الإمام ، وأما من عرف بشر أو فساد ، فلا أحب أن يشفع له أحد ، ولكن يترك حتى يقام عليه الحد ، حكاه ابن المنذر وغيره .

وكره الإمام أحمد رفع الفساق إلى السلطان بكل حال ، وإنما كرهه لأنهم غالبا لا يقيمون الحدود على وجهها ، ولهذا قال : إن علمت أنه يقيم عليه الحد فارفعه ، ثم ذكر أنهم ضربوا رجلا فمات : يعني أنه لم يكن قتله جائزا .

ولو تاب أحد من الضرب الأول ، كان الأفضل له أن يتوب فيما بينه وبين الله تعالى ، ويستتر على نفسه .

وأما الضرب الثاني ، فقليل : إنه كذلك ، وقيل : بل الأولى له أن يأتي الإمام ، ويقر على نفسه بما يوجب الحد حتى يطهره .^{١٦}

يفرق هذا النص بين زلة مستورة لا تُجعل حديث المجالس ، وبين أذى معلن لا يصح أن يتحول الستر معه إلى تعطيل لمنع الضرر . والمقصود في سياقنا صيانة الكرامة وإعانة المخطئ على التوبة ، من غير ترك الناس فريسة لأذى قائم .

١٦ . جامع العلوم والحكم ، ابن رجب ، شرح الحديث السادس والثلاثين ، ج 2 ، ص 292-293 ، من «واعلم أن الناس على ضربين» إلى «حتى يطهره» .

قد يبلغك خطأ خاص من قريب أو زميل. لا تجعله مادة مجلس، ولا تتخذ النصيحة سلماً إلى فضيحتة. انصح في الخفاء، وأغلق طريق الإشاعة، وساعده على رد الحق إن تعلق بخطئه حق لإنسان. لكن إذا كان السكوت يقي اعتداءً أو يضيع حق متضرر أو يعرض ضعيفاً لخطر، فطلب الحماية من الجهة المختصة ليس خيانة لمعنى الستر. تفاصيل البلاغ والشهادة والعقوبة لها أحكامها وأهلها، أما القاعدة الأخلاقية فمستقيمة: لا تلتذذ بالفضيحة، ولا تسمّ التستر على الظلم سترًا شرعيًا.

وهذا الميزان يحفظ طرفين يضيعان كثيرًا: حق التائب في ألا يطارد بماضيه، وحق المتضرر في ألا يحى ألمه حفاظًا على صورة المعتدي. الرفق ليس مع المخطئ وحده، والستر ليس على حساب من وقع عليه الضرر. وكل تطبيق يتداخل فيه حقوق أو جرائم أو سلامة أشخاص لا يحسمه الانطباع، يرجع فيه إلى العلم والاختصاص والجهة المسؤولة.

العون الذي يطول ما دمت فيه

وفي الوعد بالعون في الحديث المتقدم ميزان جامع؛ فقد تعلق بحال مستمرة: ما دام العبد قائماً في العون. لا يعني ذلك أن يحمل نفسه ما لا يطيق، بل أن يجعل النفع خلقاً متجدداً لا اندفاعاً تبحث عن التصفيق.

عن أنس رضي الله عنه، قال:

كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْثَرْنَا ظِلًّا الَّذِي يَسْتَظِلُّ بِكِسَائِهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ صَامُوا فَلَمْ يَعْمَلُوا شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِينَ أَفْطَرُوا فَبَعَثُوا الرِّكَابَ وَامْتَنَهُوا وَعَاجَلُوا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بِالْأَجْرِ" ١٧.

وأورد ابن رجب في شرح حديث العون:

وفي "الصحيحين" عن أنس، قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في السفر، فمنا الصائم، ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلاً في يوم حار، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، ومنا من يتقي الشمس

١٧. صحيح البخاري، البخاري، حديث 2890.

بيده ، قال : فسقط الصوم وقام المفطرون ، وضربوا الأبنية وسقوا الركاب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذهب المفطرون اليوم بالأجر ١٨.

لم يكن فضل المفطرين لأن الفطر أفضل بإطلاق، بل لأن حاجة الركب كانت إلى عمل يقوم به القادرون. وقد يكون نصيبك من العبادة في ساعة أن ترفع عن غيرك عملاً لا يقدر عليه. والعون أوسع من دفع المال.

تحتاج البيوت إلى هذا الفقه كما تحتاج إليه المؤسسات. من يطبخ لمن أنهكه المرض، ويستلم مهمة زميل داهمته مصيبة، ويكتب لفاقد البصر ما يحتاج، ويرتب للمسن موعده وتنقله، وينقل العلم الصحيح إلى من لا يصل إليه؛ كلهم يدخلون في صور العون العام بحسب صدق العمل ومشروعيته. لا نمنح كل صورة حكماً واحداً، لكننا نكسر الوهم الذي يحصر الخير في المال والخطب.

والخدمة الخفية محك شديد للإخلاص. قد يراك الناس في التبرع ولا يرونك في غسل الإناء وحمل المتاع وترتيب المكان بعد انصرافهم. من تربى على العون لا يحتقر العمل الذي لا يحمل

١٨. جامع العلوم والحكم، ابن رجب، شرح الحديث السادس والثلاثين، في صور إعانة الرفيق في السفر.

اسمه، ولا يستكثر ما بذل على من احتاجه. يعرف أن الله رأى
موضع اليد، وأن قيمة العمل لا تتوقف على معرفة الناس
بصاحبه.

ليس المال الباب الوحيد

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال:

بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ جَعَلَ يَصْرِفُ بَصْرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيَعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ " . قَالَ فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ ١٩٠

قد يجبس الإنسان نفسه عن الخير لأنه يقيس قدرته برصيده. ينظر إلى أهل الغنى، ثم يقول: ماذا أصنع؟ لكن السنة ترد هذا الوهم. قد يكون فضل ظهرك وسيلة تنقل بها من لا وسيلة له، وفضل زادك طعاماً يبلغ به جائع ليلته. وقد يكون فضلك اليوم معرفة بطريق لا يعرفه غيرك، أو خبرة في مهنة، أو ساعة من وقتك، أو قدرة على الإصلاح بين متخاصمين.

١٩٠. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 1728.

وفي الآية: ﴿* لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ بَصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

قال الطبري في تفسير الآية:

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: " لا خير في كثير من نجواهم "، لا خير في كثير من نجوى الناس جميعاً = " إلا من أمر بصدقة أو معروف "، و" المعروف "، هو كل ما أمر الله به أو نذب إليه من أعمال البر والخير، = " أو إصلاح بين الناس "، وهو الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين، بما أباح الله الإصلاح بينهما، ليتراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة، على ما أذن الله وأمر به.

= ثم أخبر جل ثناؤه بما وعد من فعل ذلك فقال: " ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً "، يقول: ومن يأمر بصدقة أو معروف من الأمر، أو يصلح بين الناس = " ابتغاء مرضاة الله "، يعني: طلب رضى الله بفعله ذلك = " فسوف نؤتيه أجراً عظيماً "، يقول: فسوف نعطيه جزاءً لما فعل من ذلك عظيماً، ولا حدّ لمبلغ ما سمي الله " عظيماً " يعلمه سواه. ٢٠

وإذا اتسع المعروف اتسعت مسؤولية الإنسان بقدر ما أعطاه الله،
لا بقدر ما في يد غيره.
قال الغزالي كما أورده الزبيدي:

والذي . يتقرب إلى الله بالسعي في حوائج الناس وإفادة العلم
ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب
من قضى حاجته فقط ، ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه
فقط ، دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه ؛
فإن ذلك يحبط الأجر .

فهما توقع من المتعلم مساعدة في شغل ، وخدمة ، أو مرافقة في
المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه أو ترددا منه في حاجة فقد
أخذ أجره بلا ، ثواب له غيره .

نعم ، إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه ؛
ليكون له مثل أجره ، ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته
فترجو أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا ينتظره ولا يريده منه
ولا يستبعده منه لو قطعه .^{٢١}

٢١. إتحاف السادة المتقين، الزبيدي، كتاب ذم الجاه والرياء، نقل الغزالي في صدر
الشرح.

والنفع بالعلم من أعظم الأبواب حين يكون علماً صحيحاً، يبذله صاحبه برفق، ولا يجعله وسيلة ليستخدم المتعلم أو ينتظر منه المقابل.^{٢٢٠}

من هنا نفهم أن المن لا يبدأ بعد الصدقة فقط. قد يكون مناً خفياً في قلب النافع حين يرى أن للناس ديناً في أعناقهم لأنه أرشدهم أو علمهم أو توسط لهم. والعمل الذي يحرر إنساناً من بعض حاجته لا ينبغي أن يصنع له قيلاً جديداً.

٢٢٠. إتحاف السادة المتقين، الزبيدي، شرح كتاب ذم الجاه والرياء، موضع السعي في حوائج الناس وإفادة العلم.

ما الذي يقدم في هذه الساعة؟

قال ابن القيم:

الصف الرابع ، قالوا : إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته ، فأفضل العبادات في وقت الجهاد : الجهاد ، وإن آل إلى ترك الأوراد ، من صلاة الليل وصيام النهار ، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض ، كما في حالة الأمن .

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً القيام بحقه ، والاشتغال به عن الورد المستحب ، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل .

والأفضل في أوقات السحر الاشتغال بالصلاة والقرآن ، والدعاء والذكر والاستغفار .

والأفضل في وقت استرشاد الطالب ، وتعليم الجاهل الإقبال على تعليمه والاشتغال به .

والأفضل في أوقات الأذان ترك ما هو فيه من ورده ، والاشتغال بإجابة المؤذن .

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجد والنصح في إيقاعها على أكل الوجوه ، والمبادرة إليها في أول الوقت ، والخروج إلى الجامع ، وإن بعد كان أفضل .

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاء ، أو البدن ، أو المال الاشتغال بمساعدته ، وإغاثة لهفته ، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك .

والأفضل في وقت قراءة القرآن جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه ، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به ، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره ، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك .

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثار من التعبد ، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد ، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

والأفضل في العشر الأخير من رمضان لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم ، وإقراءهم القرآن ، عند كثير من العلماء .

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته ، وحضور جنازته وتشيعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيك .
والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم ، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه .

والأفضل خلطتهم في الخير ، فهي خير من اعتزالهم فيه ، واعتزالهم في الشر ، فهو أفضل من خلطتهم فيه ، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم .
فالأفضل في كل وقت وحال إثارة مرضاة الله في ذلك الوقت والحال ، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه .

وهؤلاء هم أهل التعب المطلق ، والأصناف قبلهم أهل التعب المقيد ، فتي خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته ، فهو يعبد الله على وجه واحد ، وصاحب التعب المطلق ليس له غرض في تعب بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت ، فمدار تعبده عليها ، فهو لا يزال متنقلا في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى ، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي

سيره ، فإن رأيت العلماء رأيته معهم ، وإن رأيت العباد رأيته معهم ، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم ، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم ، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم ، فهذا هو العبد المطلق ، الذي لم تملكه الرسوم ، ولم تقيدته القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذتها وراحتها من العبادات ، بل هو على مراد ربه ، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه ، فهذا هو المتحقق بـ ” إياك نعبد وإياك نستعين ” حقا ، القائم بهما صدقا ، ملبسه ما تهيأ ، ومأكله ما تيسر ، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت وبوقته ، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليا ، لا تملكه إشارة ، ولا يتعبده قيد ، ولا يستولي عليه رسم ، حر مجرد ، دائر مع الأمر حيث دار ، يدين بدين الأمر أنى توجهت ركائبه ، ويدور معه حيث استقلت مضاربه ، يأنس به كل محق ، ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع ، كالنخلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكتها ، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله ، والغضب إذا انتهكت محارم الله ، فهو لله وبالله ومع الله ، قد صحب الله بلا خلق ، وصحب الناس بلا نفس ، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين ، وتخلى عنهم ، وإذا كان مع خلقه

عزل نفسه من الوسط وتخلّى عنها ، فواها له ! ما أغربه بين الناس ! وما أشد وحشته منهم ! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به ، وطمأنينته وسكونه إليه !! والله المستعان ، وعليه التكلان . ٢٣٠

يعلّمنا هذا الميزان أن نسأل عما يلزمنا في الساعة التي نحن فيها. فإذا حضرت صلاة مفروضة فحقها هو المقدم، وإذا استرشد جاهل وأنت أهل لتعليمه كان تعليمه وظيفة الوقت، وإذا اضطر محتاج إلى بدنك أو مالك أو جاهك كانت إغاثته مقدمة على ورد تطوعي يمكن تداركه.

هذا الفقه يحجر النفع من الفوضى. ليس المطلوب أن تفتح كل باب، ولا أن تحمل كل ألم، ولا أن تقطع حق نفسك وأهلك حتى يقال إنك نافع. المطلوب أن تعرف ما أقامك الله فيه، وما أوجب عليك، وما تقدر عليه، ثم لا تبخل بما تملك حين يحين موضعه.

قال ابن الجوزي:

واعلم أن العزلة لا ينبغي أن تقطع عن العلم ، والجماعات ، ومجالس الذكر ، والاحتراف للعائلة ، وإنما ينبغي أن يعتزل الإنسان ما يؤدي ، وقد يخاف من المخالطة المباحة أذى ، فيجهد الإنسان في ترك ما يخاف عواقبه .

وفصل الخطاب في هذا : أن الناس على ضربين : عالم وعابد ، فالعالم لا ينبغي له أن ينقطع عن نفع الناس فإنه خلف الأنبياء ، وليعلم أن هداية الخلق أفضل من كل عبادة . وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي عليه السلام : ” والله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم ” . ففتى ما جاء الشيطان فحسن للعالم الانقطاع عن الخلق في الجملة فذاك خديعة منه ، ولقد حسن لكثير من السلف دفن كتبهم ، ومحو علمهم ، وهذا من الخطأ العجيب ، بل ينبغي للعالم أن يعتزل عن شر من يؤدي ، ويبرز لمن يستفيد ، فظهوره أفضل من إخفائه .

٢٤

وقد يحتاج المرء إلى العزلة ليحفظ قلبه من الشر، لكنه لا يتخذها ذريعة لدفن علم يحتاج إليه الناس. فالوقت الذي ينفع فيه بعلمه له حق، كما أن للقلب حقه في الخلوة التي تعينه على الطاعة.

الجزء من جنس العمل

تتكرر في الأحاديث صلة عجيبة بين ما يفعله العبد لإخوانه وما يرجوه من ربه: يفرج فيفرج الله عنه، وييسر فييسر الله عليه، ويستر فيستره الله، ويعين فيكون الله في عونته. وليس معنى هذا أن العمل صفقة عاجلة تحدد أنت صورتها وموعدها؛ بل هو وعد شرعي يربي القلب على أن الخير لا يضيع عند الله.

ولهذا لا يتحول الوعد الأخروي إلى مطالبة لصاحب الحاجة بالشكر، ولا إلى يقين عاجل بصورة الجزاء. يعمل النافع لربه، ويصح ما ظهر من فعله، ويترك لله ما لا يملكه من سريرة وقبول.

وإذا تعلم القلب هذا، لم يعد شكر الناس شرطاً ليستمر. يفرح بالشكر من غير أن يعبد، ويتألم من الجحود من غير أن يجعل ألم نفسه عقوبة للمحتاج. يراجع نيته، ويصلح طريقته، ثم يمضي إلى الخير ما دام الخير مشروعاً مقدوراً.

الرفق جزء من النفع

ليس كل قضاء للحاجة إحساناً كاملاً. قد تقضيها بوجه يجرح، أو بصوت يفضح، أو بسؤال يوقظ في المحتاج ذلاً كان يحاول ستره. ومن هنا يدخل الرفق في صميم النفع، لا بوصفه زينة للأسلوب.

الرفق يحسن فهم الحاجة قبل المبادرة، ويختار الوقت والعبارة، ويعطي من غير إذلال، وينصح من غير تشهير، ويستر من غير أن يعطل إنكاراً واجباً، ويحيل إلى المختص حين لا يملك الحل. واللين لا يعني ترك الحق، كما أن الحزم لا يبيح القسوة.

ويحتاج الإنسان إلى الرفق في البيت، وعند المطالبة بالدين، وفي النصيحة والتعليم، ومع المخطئ، وفي الإصلاح بين الناس. فالنافع حقاً لا يكتفي بأن يصل الشيء إلى يد صاحبه؛ ينظر كذلك في الطريق الذي وصل به، وفي الأثر الذي تركه في قلبه.

أن تعرف ما الذي تخففه

قد نرى إنساناً مضطرباً، فنبادر إلى ما نحسن تقديمه: نصيحة، أو مال، أو اتصال بصديق. وتكون المبادرة كريمة في أصلها، لكن حاجته قد تكون في موضع آخر. من تعطلت به وسيلة السفر لا يحتاج دائماً إلى كلام طويل عن الصبر؛ ربما احتاج أولاً إلى طريق يصل به إلى أهله. ومن أثقله قرار لا ينقصه المال قد ينتفع ببيان واضح يساعده على فهم ما يختار. معرفة الحاجة جزء من حسن الاقتراب، وليست مرحلة باردة تؤخر الرحمة.

وبعد أن تبينت الفروق بين الحاجة والكربة والتنفيس والتفريج، يصبح المطلوب هنا عملياً: سمِّ الجزء الذي ستكفل به، والنتيجة التي لا تملكها. قد ترفع عائقاً محدداً ولا تنهي المشكلة، وقد تحفظ سراً ولا تملك مالاً، وقد تدل على مختص ولا تضمن قراره. هذا الوضوح يحميك من وعد أكبر من قدرتك، ويحمي صاحب الحاجة من انتظار ما لم تتكفل به. ٢٥

ولنتأمل مثلاً افتراضياً قريباً: طالب تأخر في إنجاز طلب دراسي لأنه لم يفهم تعليماته. يمكن أن ننجز الطلب بدلاً منه، ويمكن أن نشرح له موضع الصعوبة، ويمكن أن ندله على جهة تجيب عن سؤال لا نعلم جوابه. لا تتساوى هذه الأعمال في كل حال؛ فإذا ضاق الوقت ولم تكن له قدرة على الإتمام، اختلف القرار عما لو كان يستطيع التعلم بهدوء. ولا يصح أن نسمي مجرد إرسال رابط مساعدة مكتملة قبل أن نعرف هل استطاع فتحه وفهمه. المثال لا يطلب تدخلاً واسعاً في حياة الطالب؛ إنه يفرق بين الحركة التي قمنا بها والحاجة التي بقيت عنده.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

قال السعدي في تفسير الآية:

فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء ونواب الخليفة، ونواب القاضي.

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوزات، بإيفاء جميع ما عليك فلا تبخس لهم حقاً ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحب وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.^{٢٦}

وقد يكون المطلوب إزالة عائق صنعناه نحن. يتأخر جوابنا فيتوقف عمل إنسان، أو تبقى عندنا أمانة يحتاج إليها، أو نعطيه معلومة غير دقيقة فيتعب في تصحيحها. هنا لا تبدأ المساعدة من تفضل جديد، بل من إصلاح ما يتعلق بنا. وفي تفسير السعدي للنحل 90 تمييز بين أداء الحقوق بالعدل وبين الزيادة بالإحسان؛ وهو فرق يمنعنا من أن نضع أسماء جميلة على تقصير ما زال ينتظر الإصلاح.

٢٧

٢٦. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة النحل، الآية 90.

٢٧. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير النحل 90، فقرتا العدل في الحقوق والمعاملات والإحسان.

اسأل نفسك، قبل أن تعرض حلك: ما الذي سيتغير لصاحب الحاجة إذا فعلت هذا؟ إن كان الجواب أنك ستشعر بأنك شاركت، فأعد السؤال حتى يظهر نصيبه هو. قد يكون التغير صغيراً ومحددًا: فهم خطوة، أو وصول متاع، أو انتهاء انتظار، أو معرفة الجهة التي تملك القرار. لا يلزم أن تنقلب حياته كلها كي يكون الفعل نافعا. لكن يلزم لصدق وصفنا أن نعرف ما تم وما لم يتم، وألا نضم إلى عملنا نتيجة لم نشهدها.

وفي المقابل، ليست كل رغبة نسمعها تكليفاً لنا بتنفيذها. قد يتضمن الطلب ظلاً لغير صاحبه، أو استعمالاً لا نحسنه، أو وعداً لا نملكه. نستطيع أن نحترم الشخص ونبين الحد، وأن نبث معه عن بديل مشروع إن وجد. ومن اللطف ألا نتركه يفسر ترددنا على أنه موافقة، ثم نفاجئه بالاعتذار حين لا يبقى له وقت. الوضوح المبكر يعينه على أن يبحث عن طريق آخر.

حين يتضح هذا الفرق، يخف عن القلب عبء البطولة. لا يلزم أن تقول: سأزيل عنك كل ما يؤلمك. يكفي أن تعرف الجزء الذي تستطيع حمله وأن تحمله بأمانة. قد تبدأ الرحمة بسؤال قصير، وتم بجواب صادق، وتكبر بعمل محدود أحسن أداؤه. ومن اجتماع هذه الأعمال الصادقة يجد الناس عوناً يمكن الاعتماد عليه.

حين يصير النفع خلقاً لا حادثة

قال الأسود:

سَأَلْتُ عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ
قَالَتْ كَانَ يَكُونُ فِي مَهْنَةِ أَهْلِهِ - تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ - فَإِذَا حَضَرَتِ
الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ. ٢٨

أصدق صور النفع ليست دائماً تلك التي يسمع بها الناس. قد تبدأ
في البيت، حيث تكرر الحاجة حتى لا يبقى فيها بريق المناسبة.
القرب ميدان للخير، والخدمة لا تبيح إهمال الفريضة إذا حضرت.
عن أنس رضي الله عنه:

أَنَّ امْرَأَةً، كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي إِلَيْكَ
حَاجَةً فَقَالَ " يَا أُمَّ فُلَانٍ انْظُرِي أَيَّ السَّكِّ شِئْتِ حَتَّى أَقْضِيَ
لَكَ حَاجَتَكَ " . نَحْلًا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ
حَاجَتِهَا. ٢٩

٢٨. صحيح البخاري، البخاري، حديث 676.

٢٩. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2326.

قد يكون العون أن تمنح صاحب الحاجة وقتاً يكفيه لينها، وأن
تصبر معه حتى يفرغ منها. وفي القسم السادس شواهد أخرى على
الإصغاء والتعاون وصيانة كرامة من نعينه.^{٣٠}

وتأتي شواهد الإيثار والبذل العام في مواضعها مفصلة، بألفاظ
كل رواية وحدودها. وظيفتها هناك أن تعلمنا أن مقدار البذل
ليس الجامع الوحيد؛ فقد تقوم الحاجة بعمل خفي في بيت، أو
وقت يصرف إلى صاحبها، أو مورد ينظم، أو مال يحمل مصلحة
عامة. أما هنا فيكفي الأصل: لا يتحول العمل النافع إلى خلق حتى
يتكرر حيث يوجد الحق، لا حيث توجد المنصة وحدها.

وحين يتكرر المعروف في حياتنا، يبقى لكل موقف حقه: حاجة
نسمعها، وعمل نحسنه، ووعد نفي به. لا تستغني الألفة عن العناية،
ولا يجعلنا ما قدمناه بالأمس معفين من النظر فيما يحتاجه الناس
اليوم.

٣٠. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2326؛ المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي،
شرح الحديث 2326.

قبل اختيار المعروف

فتحت لنا الشواهد أبواباً واسعة، لكن اختيار الباب يحتاج إلى معرفة الحق الحاضر، والقدرة، والضرر المحتمل، وكرامة صاحب الحاجة. سييسط القسم التالي هذه الموازين. ولنبدأ هنا بما يسبقها: هل ما طلبه الإنسان معروف مشروع، وهل هو حق له أم فضل زائد؟

أي معروف يحتاجه هذا الموقف؟

قد يقول لك إنسان: «انفعني»، ثم يطلب شيئاً لا يحسن أن تعينه عليه. وقد يأتيك آخر يطلب يسير، فتراه أقل من أن تشغل نفسك به، مع أنه يفتح له باباً تعطل طويلاً. بين الموقفين نتعلم ألا نكتفي باسم المساعدة؛ نسأل عن الفعل الذي يحتاجه وراءه. ماذا سيحدث إذا فعلناه؟ ومن سيصل إليه أثره؟ وهل يحفظ حقاً أم يأخذ من حق غائب؟

لنتصور طالباً استعصى عليه فهم مسألة، فطلب منك جواباً يسلمه باسمه. تستطيع أن تنهي قلقه سريعاً بإعطائه ما يريد، وتستطيع أن تجلس معه حتى يعرف موضع الخطأ ويستطيع المحاولة. الأول يحقق رغبة عاجلة، لكن وصفه بالنفع لا يكفي لتصحيح الغش. والثاني قد يحتاج صبراً أكثر، وقد لا ينتهي في جلسة، لكنه يعين الطالب على عمل يملكه. هذا مثال تعليمي اقتراضي؛ وفي تفاصيل التقييم يلتزم بما تسمح به الجهة التعليمية، فلا نجعل كل تعاون ممنوعاً ولا كل مساعدة مباحة.

قال الطبري في تفسير سورة النساء، الآية 114:

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: " لا خير في كثير من نجواهم "، لا خير في كثير من نجوى الناس جميعاً " إلا من أمر بصدقة أو معروف "، و" المعروف "، هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير، " أو إصلاح بين الناس "، وهو الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين، بما أباح الله الإصلاح بينهما، ليتراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة، على ما أذن الله وأمر به.

= ثم أخبر جل ثناؤه بما وعد من فعل ذلك فقال: " ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً "، يقول: ومن يأمر بصدقة أو معروف من الأمر، أو يصلح بين الناس " ابتغاء مرضاة الله "، يعني: طلب رضى الله بفعله ذلك = " فسوف نؤتيه أجراً عظيماً "، يقول: فسوف نعطيه جزاءً لما فعل من ذلك عظيماً، ولا حدّ لمبلغ ما سمي الله " عظيماً " يعلمه سواه.^{٣١}

لهذا لا يصير الطلب معروفاً لمجرد أن صاحبه يحبه؛ ننظر في مشروعيته وما يترتب عليه.^{٣٢}

٣١. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة النساء، الآية 114.

٣٢. جامع البيان، الطبري، تفسير النساء 114، فقرتا المعروف والإصلاح.

ويعيدنا اجتماع معاني البر في آية البقرة إلى حياتنا حين تنتهي المناسبة: كيف نفى بما التزمناه؟ وكيف نصبر إذا طال التعب؟ لا يحمل أحد كل أبواب الخير، لكن حماسه لباب لا يعفيه من بقية حقوقه. ٣٣

وقد يصل الشيء إلى صاحبه لأنه حق له، أو تفضلاً زائداً. يمنعنا الفرق بين العدل والإحسان في تفسير آية النحل من تسمية أداء الواجب منحةً نطالب صاحبها بالامتنان. ٣٤

تصور، مثلاً، من يعيد كتاباً استعاره ثم ينتظر من صاحبه امتناناً لا ينتهي. إعادة الكتاب أداء لما عليه. وإذا عرض أن يعينه على ترتيب مكتبته، فذلك عرض آخر يمكن قبوله أو الاعتذار عنه. وضوح الفرق يريح العلاقة: يعرف الأول ما لزمه، ويستطيع الثاني أن يشكر دون أن يتحول شكره إلى إقرار بأن حقه كان منحة. ليست العبرة بحجم الشيء؛ قد نخلط الحق بالفضل في أبسط تعاملات يومنا.

٣٣. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير البقرة 177، شرح الإيمان والبذل والصلاة والزكاة والوفاء والصبر.

٣٤. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير النحل 90، فقرتا أداء الحقوق والإحسان.

وكذلك الحاجة لا تعني دائماً أن حياة صاحبها قد استحالت كربة. قد يحتاج قارئ إلى شرح كلمة، ومسافر إلى دلالة، وكبير سن إلى وقت أوسع ليحجب. لا نحتاج إلى تضخيم حال أحد حتى نستحق أن نعينه. نصف ما عرفناه بقدره؛ فالطلب الصغير لا يصغر صاحبه، والخدمة اليسيرة قد تكون هي المناسبة له الآن. وإذا اشتد الأمر، احتاج فهماً وعوناً يليقان بشدته، لا مجرد تغيير الاسم في حديثنا عنه.

بهذا تصبح الألفاظ معينة على حسن العمل. حين تسمي ما عليك حقاً، يسهل أن تؤديه بلا منة. وحين تعرف المعروف من موافقة الهوى، تستطيع أن تعتذر عن طلب مؤذ وتعرض عوناً صحيحاً. وحين ترى البر في اتساعه، لا تختصر صلتك بالله في الدور الذي أحسنت أدائه اليوم. ثم تمضي إلى الإنسان الذي أمامك بسؤال أقرب: ما العمل المشروع الذي ينفعه فعلاً، وما الجزء الذي أستطيع حمله؟

من السؤال إلى الطريق

إذا كان النفع واسعاً إلى هذا الحد، فإن السؤال التالي ليس: كم عملاً أستطيع أن أجمع؟ بل: كيف أتعلم رؤية الحاجة، وترتيب الحق، واختيار الوسيلة، وحفظ الكرامة، ثم متابعة الأثر؟

في القرآن تتجاوز حقوق الوالدين والقرابة، واليتيم والمسكين والجار وابن السبيل، وإنظار المعسر، والإصلاح بين الناس. ويصحبها القول الحسن، ومنع المن والأذى، والتعاون على البر دون الإثم. حين تقرأ هذه المعاني مجتمعة، ترى أن المعروف يتصل بما تؤديه من حق، وبما تكفه من أذى، وبالطريقة التي تعامل بها من احتاج إليك.

القسم الثاني — موازين النفع وحدوده

البر الذي لا يتجزأ

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ
السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

في آية واحدة يجتمع ما يحاول الناس أحياناً أن يفرقوه: إيمان القلب، وشعيرة البدن، وحق المال، وخلق الوفاء، وصبر الشدة. ليس البر حركة منفردة يختارها الإنسان لأنها توافق طبعه ثم يدع سائر أمر الله. قد يسهل على كريم الطبع أن يعطي، ويشق عليه أن يحفظ عهده. وقد يداوم آخر على صلاة ظاهرة، ثم لا يرى لليتيم والمسافر والسائل نصيباً من ماله. والآية ترد الفريقين إلى البناء كله.

قال الطبري في تفسير الآية:

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل قوله ذلك. فقال بعضهم: معنى ذلك: ليس البر الصلاة وحدها، ولكن البر الخصال التي أبينها لكم.^{٣٥}

قال الطبري في تفسير الآية:

قال أبو جعفر: وأولى هذين القولين بتأويل الآية، القول الذي قاله قتادة والربيع بن أنس =: أن يكون عنى بقوله: " ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب "، اليهود والنصارى. لأن الآيات قبلها مضت بتوبيخهم ولومهم، والخبر عنهم وعما أعد لهم من أليم العذاب. وهذا في سياق ما قبلها، إذ كان الأمر كذلك، - " ليس البر "، - أيها اليهود والنصارى، أن يولي بعضكم وجهه قبل المشرق وبعضكم قبل المغرب، " ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب " الآية.^{٣٦}

ليس في ذلك تهوين لشأن القبلة؛ إنما فيه رد للجزء إلى مكانه داخل الطاعة. فالشعيرة لا تلغى بحقوق الناس، وحقوق الناس لا تستقل عن عبادة الله.

٣٥. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة البقرة، الآية 177.

٣٦. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة البقرة، الآية 177.

قال الطبري في تفسير الآية:

قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ"، وأعطى ماله في حين محبته إياه، وضمه به، وشح عليه، . كما:-

2521- حدثنا أبو كريب وأبو السائب قالا حدثنا ابن إدريس قال، سمعت ليثاً، عن زيد، عن مرة بن شراحيل البجلي، عن عبد الله بن مسعود: "وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ"، أي: يؤتیه وهو صحيحٌ شحيحٌ، يأمل العيش ويخشى الفقر.^{٣٧}

ثم قالت الآية: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. يعطيه وهو محبوب، لا بعدما يموت في قلبه فلا يشعر بفقده. فسر الطبري هذا المعنى بأن النفس حريصة على جمع المال، تأمل العيش وتخشى الفقر. هنا يقع الاختبار: هل يرى العبد ما في يده ملكاً مغلقاً، أم أمانة جعل الله فيها أبواباً للقرابة واليتم والمسكنة والانقطاع والسؤال وفك الرقاب؟

لكن القرآن لم يقل: أعط ثم انتهى الأمر. عقب العطاء بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر. قد يدفع المرء مالاً كثيراً ثم يخلف وعداً علق به فقير حاجته، أو يمن على يتيم، أو ينهار عند أول كلفة. الصدق الذي ختمت به الآية ليس لقطة سخاء؛ هو ثبات تتساند فيه العقيدة والعبادة والمعاملة.

٣٧. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة البقرة، الآية 177.

وهذا يمنع خطأ شائعاً في الحديث عن النفع المتعدي: ليس كل نفع للناس أفضل من كل عمل آخر على الإطلاق. الواجب لا يزاحمه تطوع، والمعونة المحرمة لا تصير براً، والصدقة لا تصلح ثمناً لتضييع الصلاة. النافع حقاً هو من طلب رضا الله على الوجه الذي شرعه، فوضع كل حق في موضعه.

ما تكشفه سورة الماعون

قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ١-٧].

قال الطبري في تفسير الآية:

وقوله: (فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ) يقول: فهذا الذي يكذب بالدين، هو الذي يدفع اليتيم عن حقه، ويظلمه. يقال منه: دعت فلاناً عن حقه، فأنا أدعه دعاً. ٣٨

ليست الصورة مجرد رجل لم يعط؛ هي يد تدفع ضعيفاً لا يجد أباً يحميه. ثم انتقلت السورة من الفعل الفردي إلى الجوع العام: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٣]. قد يعجز الإنسان عن الإطعام، لكنه لا يعجز دائماً عن أن يدل أو يحث أو يجمع القادرين. فإذا مات في المجتمع حتى صوت الحضر، صار الجوع شأنًا يراه الناس ولا يتحرك له أحد.

ثم جاءت الصلاة في قلب السورة، لكن صلاة ساهية مرائية. وهذا موضع توازن لا يسمح لنا أن نجعل خدمة الناس بديلاً عن الصلاة، ولا أن نجعل الصلاة ستاراً لقسوة القلب. السورة تفضح الانفصال بين عبادة تعرض أمام العيون وحقوق تضيع بعيداً عنها. واختلف السلف في الماعون: فقليل الزكاة المفروضة، وقيل ما يتعاوره الناس من الدلو والقدر والفأس وأشباهها. ويجمع المعنيين أصل المنفعة: حق كبير يمنع، أو أداة صغيرة يحتاجها جار ساعة ثم تعود. ليس النفع دائماً مشروعاً ضخماً. أحياناً يكون شاحناً تعيره، أو آلة تساعد بها، أو مقعداً تفسحه، أو معرفة عملية تختصر على إنسان يوماً من الحيرة.

ومع شدة السورة لا يجوز أن نجعلها باباً متعجلاً للحكم على الأعيان. ليس كل من بخل بشيء قد كذب بالدين، ولا يحكم على مسلم بالكفر من تقصير واحد. السورة تعرض صفات مجتمعة وتحذر القلب منها؛ أما أحكام الأشخاص فلها شروطها وموانعها وأهل العلم بها.

ميثاق لا يفصل المسجد عن الطريق

حكى القرآن ميثاق بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣]. السياق خبر عن ميثاق قوم سابقين وذم من تولى عنه، فلا تؤخذ تفاصيل شريعتهم أحكاماً لنا من هذه الآية وحدها. لكن هذه المعاني نفسها أكدتها شريعتنا بنصوصها، ويبقى نظم الآية معلماً بليغاً.

قال الطبري في تفسير الآية:

وأما تأويل القول الحسن الذي أمر الله به الذين وصف أمرهم من بني إسرائيل في هذه الآية، أن يقولوه للناس، فهو ما:-

1451 - حدثنا به أبو كريب قال، حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله: (وقولوا للناس حسناً)، أمرهم أيضاً بعد هذا الخلق: أن يقولوا للناس حسناً: أن يأمرُوا بـ ” لا إله إلا الله ” من لم يقلها ورغب عنها، حتى يقولوها كما قالوها، فإن ذلك قربة من الله جل ثناؤه. وقال الحسن أيضاً، لين القول، من الأدب الحسن الجميل والخلق الكريم، وهو مما ارتضاه الله وأحبه.

1452 - حدثني المثنى قال، حدثنا آدم قال، حدثنا أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية: (وقولوا للناس حسناً)، قال، قولوا للناس معروفًا.

1453 - حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال، حدثنا حجاج، عن ابن جريج: (وقولوا للناس حسناً)، قال: صدقاً في شأن محمد صلى الله عليه وسلم.

1454 - وحدثت عن يزيد بن هارون قال، سمعت سفيان الثوري يقول في قوله: (وقولوا للناس حسناً)، قال: مروهم بالمعروف، وانهمهم عن المنكر.^{٣٩}

جمع الميثاق إخلاص العبادة، وإحسان البيت، وصلة القرابة، ورحمة اليتيم، وحق المسكين، وحسن الخطاب، والصلاة والزكاة. وفسر الطبري حسن القول بالمعروف واللين والخلق الجميل، وأدخل فيه الدعوة إلى الحق. فلا يصح أن نحفظ صلتنا بالله في الشعيرة ثم نطلق ألسنتنا على عباده، أو نتلطف في الكلام ونترك حقاً مالياً واجباً.

ليس حسن القول تغليفاً للكذب، ولا الإحسان للوالدين طاعةً في معصية، ولا صلة القريب محاباةً على حساب العدل. لكل حق حدوده، لكن اجتماعها يمنع التدين المجزأ: صلاة بلا رحمة، أو

٣٩. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة البقرة، الآية 83.

خدمة اجتماعية بلا توحيد، أو خطاب لطيف بلا أمانة. الإنسان واحد، وعبوديته تظهر في محرابه وطاولة ميراثه وطريقة رده على السائل.

من هنا يصبح اللسان أداة نفع مثل اليد. قد تعطي المحتاج ثم تجرحه أمام الناس، فينقص إحسانك من حيث ظننت أنك أكملته. وقد تعجز عن إعطائه، فتدله بصدق وتعتذر برفق، فيبقى له من لقاءك طريق وكرامة. الكلمة الحسنة لا تستبدل الحق، لكنها تحمله إلى القلب من غير أن تكسره.

يدان لا تجتمعان على كل شيء

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرِ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَن صَدَّقُواكُم بِالنَّاسِ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

نحب التعاون لأنه يجمع القوة ويقصر الطريق. غير أن القرآن لا يمدح اجتماع الأيدي وحده؛ فقد تجتمع الأيدي على ظلم كما تجتمع على إغاثة. لذلك سمي المقصد أولاً: البر والتقوى، ثم سمي الحد الذي لا يجوز تجاوزه: الإثم والعدوان.

جاء هذا الأمر في سياق ينهى المؤمنين أن يحملهم بغض قوم اعتدوا عليهم على أن يعتدوا. هنا يظهر الامتحان الصعب: ليس العدل خلقاً نمارسه مع من نحب فقط. وقد تكون أنفع خدمة تقدمها لصاحبك أن تمنعه من الظلم، وأصدق نصرة لقريبك أن ترده عن مال ليس له، وأحفظ مساعدة لزميلك أن ترفض ستر خطأ يضر بالناس ثم تعينه على إصلاحه.

قال الطبري:

القول في تأويل قوله تعالى : { وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان } يعني جل ثناؤه بقوله : { وتعاونوا على البر والتقوى } وليعن بعضكم أيها المؤمنون بعضا على البر , وهو العمل بما أمر الله بالعمل به { والتقوى } هو اتقاء ما أمر الله باتقائه واجتنابه من معاصيه . وقوله : { ولا تعاونوا على الإثم والعدوان } يعني : ولا يعن بعضكم بعضا على الإثم , يعني : على ترك ما أمركم الله بفعله . { والعدوان } يقول : ولا على أن تتجاوزوا ما حد الله لكم في دينكم , وفرض لكم في أنفسكم وفي غيركم . وإنما معنى الكلام : ولا يجرمنكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا , ولكن يعن بعضكم بعضا بالأمر بالانتهاء إلى ما حده الله لكم في القوم الذين صدوكم عن المسجد الحرام وفي غيرهم , والانتفاء عما نهاكم الله أن تأتوا فيهم وفي غيرهم وفي سائر ما نهاكم عنه , ولا يعن بعضكم بعضا على خلاف ذلك . وبما قلنا في البر والتقوى قال أهل التأويل . ذكر من قال ذلك : 8646 - حدثني المثنى , قال : ثنا عبد الله , قال : ثني معاوية , عن علي , عن ابن عباس , قوله : { وتعاونوا على البر والتقوى } البر : ما أمرت به , والتقوى : ما نهيت عنه . 8647 - حدثني المثنى , قال : ثنا إسحاق , قال : ثنا عبد الله بن

أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، عن أبي العالية في قوله :
 { وتعاونوا على البر والتقوى } قال : البر : ما أمرت به ،
 والتقوى : ما نهيت عنه . ٤٠

قال السعدي:

{ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى } أي: ليعن بعضكم بعضاً على البر.
 وهو: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة
 والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين. والتقوى في هذا
 الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال
 الظاهرة والباطنة. وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها،
 أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور
 بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها، بكل قول
 يبعث عليها وينشط لها، وبكل فعل كذلك. { وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى
 الْإِثْمِ } وهو التجرؤ على المعاصي التي يأثم صاحبها، ويخرج.
 { وَالْعُدْوَانِ } وهو التعدي على الخلق في دماءهم وأموالهم
 وأعراضهم، فكل معصية وظلم يجب على العبد كف نفسه عنه،

ثم إعانة غيره على تركه. { وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } على من عصاه وتجراً على محارمه، فاحذروا المحارم لئلا يحل بكم عقابه العاجل والآجل. ٤١

والمعونة تكون بقول يشجع على الخير، وبفعل ييسره. ولهذا لا ينحصر التعاون في جمع المال؛ قد يكون بناء نظام يحفظ الحقوق، أو تعليم مهنة، أو مراجعة قرار قبل أن يضر، أو شهادة بالحق، أو حمل عبء عن مرهق.

وفي الجهة الأخرى قد يلبس الإثم ثوب الخدمة. يطلب قريب منك أن تستعمل جاهك لتقدم من لا يستحق، أو أن تخفي معلومة تضر شريكاً، أو أن تشهد بنصف الحقيقة لتنجو سمعة أحد. ربما يقول لك: أنا محتاج إليك. وحاجته لا تغير اسم الفعل. إن أعتته على الظلم فقد نفعت رغبته العاجلة وأضررت دينه وحق غيره.

والقرآن لا يترك بين خيارين قاسيين: أن تعينه على الباطل أو تتخلى عنه. تستطيع أن تنصره بمنعه، ثم تعينه على التوبة ورد الحق وتحمل نتيجة خطئه. النفع ليس دائماً أن تعطي الإنسان ما طلب؛ قد يكون أن تحميه مما طلب.

العدل أول المعروف

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. العدل يؤدي الحق، والإحسان يزيد فضلاً، والبغي يتجاوز الحد ويعتدي على الدم أو المال أو العرض. ولهذا لا يكون المعروف جميلاً إذا بني على ظلم خفي.

قد يتصدق صاحب عمل ثم يخس أجيراً أجره، أو يتبرع مدير لمشروع عام وهو لا ينصف من تحت ولايته، أو يكثر إنسان من الهدايا ويؤذي أقرب الناس بلسانه. هذه صور يلعب فيها التفضل بينما الأرض نفسها محتلة. لا يعوض الإحسان حقاً مسلوباً؛ يبدأ بإعادته، ثم يرتقي بعد ذلك إلى السماحة والفضل.

ومن هنا يتسع نفع الناس للعدل في الحكم، والأمانة في البيع، والصدق في المعلومة، وبذل العلم والجهد. يعين كرم الأفراد على سد حاجات كثيرة، لكنه لا يعني من إصلاح ظلم قائم في طريقة العمل أو توزيع الحقوق. رد الحق إلى صاحبه يفتح للإحسان موضعاً أصدق.

مال له أبواب محددة

قال الله تعالى في الزكاة: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهِ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٠]. كلمة ﴿فَرِيضَةً﴾ [التوبة: ٦٠] تنقل العطاء هنا من مجرد ميل كريم إلى مال محكوم بأبواب سماها الله. لا يملك المزي أن يحول الزكاة إلى المشروع الأقرب إلى ذوقه قبل أن يتحقق من المصرف.

قال الطبري في تفسير الآية:

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ما الصدقات إلا للفقراء والمساكين، ومن سماهم الله جل ثناؤه. ٤٢

قال الطبري في تفسير الآية:

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: "الفقير"، هو ذو الفقر أو الحاجة، ومع حاجته يتعفف عن مسألة الناس والتذلل لهم، في هذا الموضع = "والمسكين" هو المحتاج المتذلل للناس بمسألتهم.

وإنما قلنا إن ذلك كذلك، وإن كان الفريقان لم يُعْطِيا إلا بالفقر والحاجة، دون الذلة والمسألة، لإجماع الجميع من أهل العلم أن "المسكين"، إنما يعطى من الصدقة المفروضة بالفقر، وأن معنى "المسكنة"، عند العرب، الذلة، كما قال الله جل ثناؤه: وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ، [سورة البقرة: 61]، يعني بذلك: الهون والذلة، لا الفقر. فإذا كان الله جل ثناؤه قد صنف من قسم له من الصدقة المفروضة قسماً بالفقر، فجعلهم صنفين، كان معلوماً أن كل صنف منهم غير الآخر. وإذا كان ذلك كذلك، كان لا شك أن المقسوم له باسم "الفقر"، غير المقسوم له باسم الفقر و"المسكنة"، والفقر المعطى ذلك باسم الفقير المطلق، هو الذي لا مسكنة فيه. والمعطى باسم المسكنة والفقر، هو الجامع إلى فقره المسكنة، وهي الذلّ بالطلب والمسألة.

= فتأويل الكلام، إذ كان ذلك معناه: إنما الصدقات للفقراء: المتعفف منهم الذي لا يسأل، والمتذل منهم الذي يسأل.^{٤٣}

قال الطبري في تفسير الآية:

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: يعطى العامل عليها على قدر أعماله وأجر مثله.^{٤٤}

٤٣. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة التوبة، الآية 60.

٤٤. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة التوبة، الآية 60.

قال الطبري في تفسير الآية:

وأما " الغارمون "، فالذين استدانوا في غير معصية الله، ثم لم يجدوا قضاء في عين ولا عَرْض. ٤٥

قال الطبري في تفسير الآية:

وأما قوله: (وابن السبيل)، فالمسافر الذي يجتاز من بلد إلى بلد. ٤٦

قال الطبري في تفسير الآية:

16880- حدثنا أحمد بن إسحاق قال، حدثنا أبو أحمد قال، حدثنا مندل، عن ليث، عن مجاهد: (وابن السبيل)، قال: لابن السبيل حق من الزكاة وإن كان غنياً، إذا كان مُنْقَطِعاً به.

٤٥. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة التوبة، الآية 60.

٤٦. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة التوبة، الآية 60.

16881- حدثنا أحمد قال، حدثنا أبو أحمد قال، حدثنا معقل بن عبيد الله قال: سألت الزهري عن ” ابن السبيل “، قال: يأتي عليّ ابن السبيل، وهو محتاج. قلت: فإن كان غنياً؟ قال: وإن كان غنياً. ٤٧

فالحاجة التي يراها الشرع ليست صورة واحدة، ولا يختصرها من يمد يده في الطريق.

وفي هذا درس للمؤسسات والأفراد. التحقق من المصرف ليس قسوة على المحتاج، بل أمانة مع حقه وحقوق بقية المستحقين. والرسوم الإدارية لا تصبح تلقائياً من سهم العاملين لمجرد أن المؤسسة أنفقتها؛ لذلك تحتاج مسائل التطبيق إلى فقهاء موثوقين ونظام واضح وشفافية. كما أن اختلاف العلماء في بعض الأصناف وتطبيقاتها لا يحل بملصق دعائي أو رغبة حسنة.

وفي المقابل لا نحبس كل معروف داخل حساب الزكاة. صدقة التطوع، والوقف، والهدية، والنفقة على من تجب نفقته، والقرض الحسن، والمساعدة المهنية؛ لكل باب أحكامه وسعته. قد يكون مشروع نافع غير داخل في مصرف الزكاة، فيدعم من المال

الطوعي بدل أن نغير حدود الفريضة لأجله. من تمام الرحمة أن
تعرف أي مال في يدك، ولمن جعله الله، ثم تؤديه بطيب نفس
ودقة يد.

العدل حين يكون الخصم بغيضاً

يسهل أن تكون منصفاً لمن تحب، لأن نفسك تساعدك. الاختبار الأشد أن يقف أمامك من آذاك أو خالفك، فتسمع ما له كما تبين ما عليه. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

قال الطبري في تفسير الآية:

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله محمد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعدواتهم لكم، ولا تقصّروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدّي، واعملوا فيه بأمرى. ٤٨

قال السعدي في تفسير الآية:

أي { يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } بما أُمِرُوا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم، بأن تكونوا { قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ } بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة والباطنة. وأن يكون ذلك القيام لله وحده، لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط، الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط، في أقوالكم ولا أفعالكم، وقوموا بذلك على القريب والبعيد، والصديق والعدو. { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ } أي: لا يمحلتكم بغض { قَوْمٍ عَلَىٰ } ألا تعدلوا { كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، ولو كان كافراً أو مبتدعاً، فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به

من الحق، لأنه حق لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق. { اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } أي: كلها حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى. { إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } فجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاء عاجلاً، وآجلاً. ٤٩

العدل هنا ليس حياداً أخلاقياً يسوي بين الظالم والمظلوم؛ بل هو الذي يسمى الاعتداء اعتداءً، ثم يمنعنا من إضافة كذبة أو عقوبة زائدة لأن غضبنا يطلبها.

هذا باب واسع من نفع الناس: في تقييم موظف أخطأ، وفي نزاع أسري، وفي مراجعة شكوى، وفي حديث عام عن جماعة نختلف معها. قد تكون القضية عادلة، ثم يفسدها خبر غير صحيح نعيد نشره لأنه يخدمها. وقد يكون الخصم مخطئاً في أصل موقفه، لكنه صادق في جزئية، فنردها ونظم الحقيقة معه. التقوى لا تحتاج إلى الكذب كي تنتصر.

إنصاف الخصم يحمي المظلوم أيضاً؛ لأن المجتمع الذي يبيح الجور على المبعوض سيستعمل الأداة نفسها غداً ضد ضعيف آخر. والنفع المستدام لا يبنى على استثناءات الغضب، بل على قاعدة يستطيع الجميع أن يأمنوا إليها: الحق يثبت بدليله، والجزاء يقف عند حده، والكرامة الإنسانية لا يسقطها الخلاف.

التهلكة التي تبدأ من ترك الواجب

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

قال القرطبي في تفسير الآية:

الأولى : روى البخاري عن حذيفة : وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة قال : نزلت في النفقة ، وروى يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران قال : غزونا القسطنطينية ، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن الوليد والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدو ، فقال الناس : مه مه ! لا إله إلا الله ، يلقي يديه إلى التهلكة ! فقال أبو أيوب : سبحان الله ! أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار لما نصر الله نبيه وأظهر دينه ، قلنا : هلم نقيم في أموالنا ونصلحها ، فأنزل الله عز وجل : وأنفقوا في سبيل الله الآية ، والإلقاء باليد إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد ، فلم يزل أبو أيوب مجاهدا في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية ، فقبره هناك ، فأخبرنا أبو

أيوب أن الإلقاء باليد إلى التهلكة هو ترك الجهاد في سبيل الله ،
وأن الآية نزلت في ذلك . وروي مثله عن حذيفة والحسن
وقتادة ومجاهد والضحاك .^{٥٠}

قد يسمع المرء صدر الآية وآخرها، ثم يعزل النهي في وسطها عن
سياقه، فيجعله حجة على ترك كل عمل يطلب مالا أو جهداً أو
احتمالاً. لكن خبر أبي أيوب الأنصاري الذي ساقه القرطبي يرد
العبارة إلى موضعها الأول: رأى قوم أن يقيموا في أموالهم
ويصلحوها، فبين أن التهلكة كانت الإقامة عليها وترك ما وجب
من النفقة والجهاد.

قال السعدي في تفسير الآية:

يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو إخراج الأموال في الطرق
الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير، من صدقة على مسكين،
أو قريب، أو إنفاق على من تجب مؤنته.

وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في
سبيل الله، فإن النفقة فيه جهاد بالمال، وهو فرض كالجهاد
بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة، الإعانة على تقوية المسلمين،
وعلى توهية الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعرازه، فالجهاد
في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح، لا

٥٠. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تفسير سورة البقرة، الآية 195.

يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله، إبطال للجهاد، وتسليط للأعداء، وشدة تكاليفهم، فيكون قوله تعالى: (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) كالتعليل لذلك، والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجبا أو مقاربا لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك، ترك الجهاد في سبيل الله، أو النفقة فيه، الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغيير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف، أو محل مسببة أو حيات، أو يصعد شجرا أو بنيانا خطرا، أو يدخل تحت شيء فيه خطر ونحو ذلك، فهذا ونحوه، ممن ألقى بيده إلى التهلكة.

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة الإقامة على معاصي الله، واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض، التي في تركها هلاك للروح والدين.^{٥١}

لا يعني هذا أن كل مخاطرة شجاعة، أو أن حفظ النفس بخل. المفسرون أنفسهم وسعوا اللفظ ليشمل ترك الواجب الذي يفضي إلى الهلاك، ويشمل كذلك تعمد أسباب الضرر. فالميزان له

٥١. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة البقرة، الآية 195.

طرفان: لا تحفظ مالك حتى تضع حقاً لازماً أو مصلحة عامة تقوم بك، ولا تبذل بلا علم حتى تهدم نفسك ومن تعول ثم تسمي الهدم إحساناً.

في حياة الناس صور صغيرة من هذا المعنى. قد تعرف أسرة أن مريضها يحتاج علاجاً عاجلاً، فيؤخر القادرون النفقة حتى تتضاعف الكلفة. وقد ترى مؤسسة خلاً في السلامة، فتوفر المال اليوم وتدفع غداً ثمناً أكبر في الأرواح والثقة. وقد يندفع متطوع منفرد إلى موقف لا يحسنه، فيزيد الضحية خطراً ويعطل أهل الاختصاص. ليست النجدة حركة سريعة فقط؛ إنها تقدير للواجب والقدرة والمال.

الإحسان إذن لا يقاس بحجم الخسارة التي ألحقها الإنسان بنفسه، ولا براحة بقاءه بعيداً. يسأل: ما الواجب؟ ما الوسيلة المأمونة؟ من الأقدر؟ وما القدر الذي أستطيعه من غير ظلم لمن تلزمني رعايته؟ بين الجبن والتهور منزلة العبودية: تبذل حين ينبغي البذل، وتوقف حين يكون التوقف حفظاً للنفس أو لحق الغير، وتستشير إذا التبس الطريق.

حين تكون النعمة أمانة لا منصة

قال الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۚ وَأَحْسِنَ ۚ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

ليس السؤال القرآني عن المال: كم تملك؟ بل: إلى أين يقودك ما تملك؟ فقد وعظ قارون بأربع جمل متتابعة تجمع الطريق كله: أن يبتغي بما آتاه الله الدار الآخرة، وألا ينسى نصيبه من الدنيا، وأن يحسن كما أحسن الله إليه، وألا يطلب الفساد في الأرض. ليست النعمة هنا شاهد تفوق، بل مادة امتحان؛ يمكن أن تصير زاداً إلى الله، ويمكن أن تصير آلة بغي.

قال الطبري في تفسير الآية:

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل قوم قارون له: لا تبغ يا قارون على قومك بكثرة مالك، والتمس فيما آتاك الله من الأموال خيرات الآخرة، بالعمل فيها بطاعة الله في الدنيا وقوله: (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) يقول: ولا تترك نصيبك وحظك من الدنيا، أن تأخذ فيها بنصيبك من الآخرة، فتعمل فيه بما ينجيك غداً من عقاب الله. ٥٢

قال الطبري في تفسير الآية:

وقوله: (وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) يقول: وأحسن في الدنيا إنفاق مالك الذي آتاكه الله، في وجوهه وسبله، كما أحسن الله إليك، فوسع عليك منه، وبسط لك فيها.^{٥٣}

٥٣. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة القصص، الآية 77.

قال السعدي في تفسير الآية:

{ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ } أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات، { وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا } أي: لا تأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق لآخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعاً لا يثلم دينك، ولا يضر بآخرتك، { وَأَحْسِنْ } إلى عباد الله { كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ } بهذه الأموال، { وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ } بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم، { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } بل يعاقبهم على ذلك، أشد العقوبة.^{٥٤}

٥٤. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة القصص، الآية 77.

حفظ الطبري سياق الموعظة: قوم قارون يخاطبونه في مال أورثه الفرح المطغي والبغي. وفسر الإحسان بأن ينفق المرء ما آتاه الله في وجوهه، كما وسع الله عليه. وفسر بعض المفسرين «نصيب الدنيا» على أنه ما يقدمه الإنسان فيها لآخرته، ورأى آخرون فيه الانتفاع بالحلال من غير إسراف. وبين السعدي أن طلب الآخرة بالمال لا يقتضي أن يتصدق الإنسان بجميع ماله حتى يضيع نفسه؛ بل ينتفع بالدنيا بما لا يضر دينه، ويبتغي بماله ما عند الله. °°

°°° تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير القصص 77، فقرتا ابتغاء الآخرة وعدم تضییع النفس ببذل جميع المال.

وهذا الجمع يرد خطأين متقابلين. الأول أن تتحول العبادة إلى إهمال للنفس ومن تجب رعايته، كأن ضياع الإنسان برهان صدقه. والثاني أن تتحول عبارة «نصيبك من الدنيا» إلى غطاء للاستهلاك الذي لا يترك للآخرة إلا الفتات. الميزان ليس مقدار الحرمان أو التمتع وحده، بل أن يبقى الحلال في موضعه، والآخرة مقصداً، والإحسان أثراً، والفساد ممنوعاً.

قال ابن عطية:

وقوله تعالى: ولا تنس نصيبك من الدنيا اختلف المتأولون فيه، فقال ابن عباس -رضي الله عنهما- والجمهور: معناه: لا تضع عمرك في ألا تعمل عملاً صالحاً في دنياك؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها في الدنيا، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فينبغي ألا تهمله. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالكلام كله -على هذا التأويل- شدة في الموعظة. وقال الحسن وقتادة: معناه: ولا تضع حظك أيضاً من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه، ونظرك إلى عاقبة دنياك. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالكلام -على هذا التأويل- هو في الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه، وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدة. وقال الحسن: معناه: قدم الفضل وأمسك ما تبلغ به، وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرف، وحكى الثعلبي أنه قيل: أرادوا بنصيبه الكفن. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا

وعظ متصل كأنهم قالوا: لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك الذي هو الكفن، ونحو هذا قول الشاعر: نصيبك مما تجمع الدهر كله رداء ان تلوى فيهما وحنوط وقوله: وأحسن كما أحسن الله إليك أمر بصلة المساكين وذوي الحاجة. وباقي الآية بين.^{٥٦}

يتسع الإحسان هنا لصلة المساكين وذوي الحاجة، وتكشف الأقوال في نصيب الدنيا عن العناية بعمل الآخرة والانتفاع بالحلال. فلا يحمل طلب الثواب صاحبه على إضاعة نفسه، ولا يتحول التمتع بالحلال إلى عذر لحبس حق المحتاج.^{٥٧}

وصور النعمة أوسع من المال. علم الطيب نعمة، وجاه المسؤول نعمة، وفراغ القادر نعمة، وثقة الناس نعمة. يبتغي صاحبها الآخرة حين يضعها في موضعها، وينتفع منها بالحلال من غير أن ينسى الحقوق، ويحسن بها إلى الخلق، ويراقب اللحظة التي تتحول فيها القوة من خدمة إلى سيطرة. ليس النافع من يوزع بعض الثمر ويبقي الشجرة تظل الظلم؛ النافع من يصلح وجهة النعمة وأثرها معاً.

٥٦. المحرر الوجيز، ابن عطية، تفسير سورة القصص، الآية ٧٧.

٥٧. المحرر الوجيز، ابن عطية، تفسير سورة القصص، الآية ٧٧.

أن تحي نفساً: البداية ألا تهلكها

تحيء آية المائدة بعد قصة أول دم سفك ظلماً: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢]. والسياق جزء من أمانة الاستدلال؛ فالآية تخبر عما كُتب على بني إسرائيل، وتغلظ حرمة النفس بعد جريمة ابن آدم. لا يحسن أن تقتطع جملة الإحياء ثم تحمل وحدها كل حكم معاصر في الطب أو الحرب أو القصاص. قال الطبري في تفسير الآية:

وقال آخرون معنى قوله: "ومن أحياها": من عفا عمن وجب له القصاص منه فلم يقتله.^{٥٨}

قال الطبري في تفسير الآية:

وقال آخرون: معنى قوله: "ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً"، ومن أنجأها من غرق أو حرق. ذكر من قال ذلك:

٥٨. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة المائدة، الآية 32.

11792 - حدثنا ابن حميد قال، حدثنا جرير، عن منصور، عن مجاهد: ” ومن أحيائها فكأنما أحيى الناس جميعاً ” قال: من أنجأها من غرق أو حرق أو هلكة.

11793 - حدثنا ابن وكيع قال، حدثنا أبي = وحدثنا هناد قال، حدثنا وكيع = عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ” ومن أحيائها فكأنما أحيى الناس جميعاً “، قال: من غرق أو حرق أو هدم.

11794 - حدثني الحارث قال، حدثنا عبد العزيز قال، حدثنا إسرائيل عن خصيف، عن مجاهد: ” ومن أحيائها “، قال: أنجأها. ٥٩

قال الطبري في تفسير الآية:

وأما قوله: ” ومن أحيائها فكأنما أحيى الناس جميعاً ” فأولى التأويلات به، قول من قال: من حرم قتل من حرم الله عز ذكره قتله على نفسه، فلم يتقدم على قتله، فقد حيى الناس منه بسلامتهم منه، وذلك إحياءه إياها. وذلك نظير خبر الله عز ذكره عمن حاج إبراهيم في ربه إذ قال له إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت [سورة البقرة: 258]. فكان معنى الكافر في قوله: أنا أحيي ، أنا أترك من قدرت على قتله - وفي

قوله: وَأُمِيتُ ، قتله من قتله. فكذلك معنى ” الإحياء ” في قوله: ” ومن أحيائها “، من سلم الناس من قتله إياهم، إلا فيما أذن الله في قتله منهم = ” فكأنما أحيانا الناس جميعاً “.^{٦٠}

قبل أن تكون يدك أداة إنقاذ، ينبغي ألا تكون مصدر خوف وعدوان.

قال ابن عطية:

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ فِيهِ تَجَوُّزٌ لَّأَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْ التَّرْكِ وَالْإِنْقَازِ؛ وَالْأَوَّلُ فَالْإِحْيَاءُ حَقِيقَةٌ؛ الَّذِي هُوَ الْإِخْتِرَاعُ؛ إِنَّمَا هُوَ لِلَّهِ تَعَالَى؛ وَإِنَّمَا هَذَا الْإِحْيَاءُ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِ نَمْرُودَ: ﴿ أَنَا أُحْيِي ﴾ [البقرة: ٢٥٨] سَمَّى التَّرْكَ إِحْيَاءً؛ وَمَحْيَى نَفْسٍ كَمُحْيِي الْجَمِيعِ فِي حِفْظِ الْحُرْمَةِ؛ وَاسْتِحْقَاقِ الْحَمْدِ.^{٦١}

يفرق هذا البيان بين الترك والإنقاذ وبين خلق الحياة، الذي هو من فعل الله وحده. وهذا التفريق يصون هيبة الآية من المبالغة. لا نقول إن المنقذ خلق حياة، ولا إن كل خدمة عابرة تساوي

٦٠. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة المائدة، الآية 32.

٦١. المحرر الوجيز، ابن عطية، تفسير المائدة ٣٢، الفقرة المتصلة في معنى «ومن أحيائها»، قبل الانتقال إلى «ولقد جاءتهم رسلنا».

إنقاذ البشرية في جميع الأحكام. إنما تعظم الآية حرمة النفس الواحدة، وتكشف أن انتهاكها ليس حادثاً صغيراً معزولاً، وأن صيانتها عمل يشارك في حفظ معنى الأمان للناس جميعاً.

والنفع في هذا الباب له دوائر. أولاها الكف: ألا يعتدي الإنسان بيده أو قراره أو إهماله المتعمد. ثم الوقاية: أن يزيل خطراً يعرفه من طريق الناس، أو يبلغ المختصين، أو يمنع سبباً ظاهراً للهلكة. ثم الإنقاذ: أن يتدخل بما يحسنه ويقدر عليه، فلا يترك محتاجاً إلى إسعاف، ولا يغامر بجهل يزيد المصيبة. ثم البناء: أن يعين أهل الطب والسلامة والإغاثة والعدالة على أداء وظائفهم.

والرحمة لا تقاس بجملة الاندفاع وحدها. قد تكون الرحمة أن تتقدم، وقد تكون أن تتراجع خطوة لتفسح الطريق لمن هو أعلم. وقد يكون إنقاذ النفس اتصالاً سريعاً، أو شهادة حق تمنع اعتداء، أو نفقة على علاج، أو تدريباً سابقاً يجعل اليد ثابتة حين تقع الكربة. وما يجمع هذه الصور هو صيانة الحرمة، لا طلب بطولة شخصية.

هكذا تضيف الآية إلى خريطة النفع وظيفة لا يغني عنها الإطعام أو الإصلاح أو حسن القول: حفظ الحياة نفسها. لكنها تضيف معها قيماً منضبطاً: لا ادعاء لاختصاص، ولا تعطيل لحق وعدل،

ولا تحويل للتشبيه العظيم إلى أرقام ثواب يجزم بها الكاتب من عنده. نأخذ من الآية تعظيم الحرمة، وسعة الترك والإنقاذ في كلام المفسرين، ونرد التفاصيل إلى أدلتها وأهلها.

قبل أن تمد يدك: ستة موازين تحرس الخير

قبل التدخل، نحتاج إلى لحظة نفهم فيها الحاجة وما يترتب على استجابتنا لها. تجمع الأسئلة التالية أهم الموازين التي مرت بنا، لتعين على قرار يحفظ حق صاحب الحاجة وحقوق غيره.

نبدأ بوظيفة الوقت التي تقدم بيانها عند ابن القيم: ما الذي يلزمنا الآن؟ قد يكون فرضاً حاضراً، أو حقاً للوالدين، أو معونة تعينت. ثم نفحص الوسيلة والقدرة والعواقب. هذا ترتيب مقترح يعين على المراجعة، وتبقى أحكام الوقائع لأهل العلم بها.

الميزان الأول: هل هو حق أم فضل؟

من أخطر ما يفسد النفع أن يسمى الواجب تفضلاً. من أنظر معسراً بعد ثبوت عسرته لم يمنحه مزية يتباهى بها؛ فقد أمر الله بإنظاره إلى الميسرة. وإذا وضع عنه بعض الدين أو كله فقد دخل باب فضل آخر بحسب قدرته وحاله. وبين الأمرين فرق يحفظ كرامة المدين، ويمنع الدائن من تحويل الحق المفروض عليه إلى قصة من.

وكذلك الزكاة ليست مآلاً مطلقاً يوزعه صاحبها حيث أحب؛ لها مصارف بينها القرآن، وتفصيلها للفقهاء. والعدل مع الخصم ليس مكرومة إضافية؛ هو قرينة مأمور بها، حتى لا يحمل الشنان على الجور. فإذا أدى الإنسان نفقة تلزمه، أو رد مآلاً، أو حفظ أمانة، أو أنصف من يكره، فليحمد الله أن أعانه على الحق، ولا يجعل صاحب الحق أسيراً لثناء دائم.

هذا الميزان لا يلغي الفضل؛ بل يضعه في موضعه. يؤدي الحق الواجب، ويبقى مجال للتفضل بما زاد عليه: كإسقاط شيء من الدين بعد إنظار المعسر. وهذا تمييز بين الواجب والفضل، لا اشتراط لترتيب زمني واحد؛ والعفو لا يملكه إلا صاحب الحق وفيما يحقق الإصلاح. لكن الفضل لا يبدأ بسلب الحق، ولا يطلب من المظلوم كي يبدو مجلسنا أكثر هدوءاً.

الميزان الثاني: هل الطريق إلى الخير خير؟

قد تكون الغاية مشروعة، وتكون الوسيلة مفسدة. يريد المرء جمع المال لمحتاج فيكشف اسمه وصورته وما يخجل منه. يريد شفاعته إنسان فيضغط لإسقاط حق غيره. يريد ستر قريب فيخفي اعتداء يتكرر. يريد إصلاح أسرة فيسوي بين المعتدي والمعتدى عليه، ثم يسمي الصمت سلاماً.

أمر الله بالتعاون على البر والتقوى ونهى عن التعاون على الإثم والعدوان. وأمر بالعدل ونهى عن البغي. وفي الشفاعة الحسنة جعل للساعي نصيباً من خيرها، وفي السيئة كفلاً من شرها. ليست الوسيلة غلاًفاً محايداً يوضع على كل مقصد؛ إنها جزء من العمل نفسه.

لهذا يسأل النافع قبل أن يتحرك: هل يحتاج صاحب الحاجة أن أستأذنه؟ هل في الصورة أو الخبر كشف لا ضرورة له؟ هل ستأخذ هذه الوساطة دور مستحق آخر؟ هل سكوتي يحفظ هفوة عابرة أم يمكن ضرراً؟ قد يتغير القرار كله حين نأخذ كرامة المتلقي وحقوق الغائبين في الحسبان.

الميزان الثالث: من الأقدَر؟

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، قال:

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِنِّي أَبْذَعُ بِي فَأَحِلَّنِي فَقَالَ " مَا عِنْدِي " . فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَدْلُهُ عَلَيَّ مِنْ يَحْمِلُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ " ٦٢٠

ليس العجز عن الحل عجزاً عن النفع. صدق الجواب لم يغلق الباب، والدلالة لم تنتقص لأنها لم تكن الفعل الأخير.

قد يكون نصيبك من الخير أن تصل المريض بطبيب، والسائل بعالم، والمظلوم بحام أمين، والأسرة بجهة حماية، والمحتاج ببرنامج موثوق. وقد يكون نصيبك أن تقول: لا أعرف. هذه الكلمة إذا منعت فتوى بغير علم أو تدخلاً طيباً مرتباً ليست انسحاباً من الخدمة؛ إنها حراسة لها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال:

بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ
أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ مَتَى السَّاعَةُ فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ سَمِعَ مَا قَالَ، فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ
بَعْضُهُمْ بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قُضِيَ حَدِيثُهُ قَالَ "أَيْنَ - أَرَاهُ -
السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ". قَالَ هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ "فَإِذَا
ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ". قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتَهَا قَالَ "إِذَا
وَسِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ". ٦٣

تحتاج المسؤولية إلى أهلها. وإحالة الحاجة إلى الأقدر صورة من النفع؛ فقد يؤدي الناس من يحتكر العمل مع أنه لا يحسنه. أما تفاصيل اختيار العاملين وتقدير الخبرات فتتظر في ضوء العمل وحقوقه. ٦٤

الميزان الرابع: ما الضرر الذي يمكن أن يولده التدخل؟

جاءت آية التهلكة في سياق الإنفاق عند المفسرين، فلا يصح أن تحول إلى كلمة تمنع كل مخاطرة، كما لا يصح أن تهمل لتبرير كل اقتحام. وحين يعظم القرآن حرمة النفس في المائدة، يفتح للإنقاذ معناه ويبدأ قبله بالكف عن العدوان. فاليد النافعة لا تسأل فقط: ماذا أستطيع أن أفعل؟ بل: ماذا يمكن أن يحدث بسبب فعلي؟

٦٤. فتح الباري، ابن حجر، شرح صحيح البخاري، حديث 59، ج 1، ص 173.

إزالة الأذى من الطريق قربة، لكن الاقتراب من سلك مكشوف بغير معرفة قد يصنع ضحيتين. محاولة فض نزاع قد تحسن ممن يملك القدرة والحكمة، وقد تزيد الخطر ممن لا يعرف أطرافه. نشر قصة مفقود قد يسرع العثور عليه، وقد يكشف بيانات تضر به. تبين هذه الأمثلة حاجة المبادرة إلى تقدير الخطر والرجوع إلى المختص.

تقدير الخطر جزء من حضور القلب. قد يكون ما تقدر عليه تنبيه الناس من موضع آمن والاتصال بالجهة المختصة. ولا تعني الرغبة في تأمين المكان الاقتراب من مصدر خطر أو مباشرة إجراء لا تحسنه؛ فطريقة التدخل يحددها نوع الواقعة وأهل الاختصاص.

الميزان الخامس: هل يحفظ الفعل العدل؟

الإحسان بلا عدل قد يصير محاباة. والرفق بلا عدل قد يصير ضعفاً يترك البغي قائماً. والعفو بلا إصلاح قد يطلب من الضحية أن تدفع ثمن راحة الآخرين. لهذا جاء الأمر بالعدل مع الشنآن، وجاء إصلاح الطائفتين في الحجرات بعد رد الباغية إلى أمر الله، ثم إصلاحهما بالقسط.

لا يعني هذا أن كل نزاع يقاس على بغي الطوائف أو أن الفرد مخول بالعنف؛ للآية سياقها وأحكامها. لكن وظيفتها في ميزان الكتاب ظاهرة: لا يسمى جمع الطرفين إصلاحاً إذا بقي الحق مطموساً والعدوان آمناً من التكرار. وقد يكون أصدق النفع كلمة توقف صاحبك عن ظلم، لا كلمة تحميه من نتيجة فعله.

والعدل ليس قسوة. هو الأرض التي يقف عليها العفو الصحيح والرفق النافع. حين يعرف كل طرف حقه، ويؤمن الضعيف، ويتوقف الضرر، يصبح التفضل ممكناً من غير ابتزاز. أما قبل ذلك فقد تكون الدعوة إلى السماحة اسماً جميلاً لترك الجرح مفتوحاً.

الميزان السادس: ماذا صنعت النعمة في صاحبها؟

وعظ قوم قارون صاحبهم أن يبتغي بما آتاه الله الدار الآخرة، وألا ينسى نصيبه من الدنيا، وأن يحسن كما أحسن الله إليه، وألا يبيع الفساد في الأرض. جمعت الموعظة وجهة النعمة وحدودها: الآخرة مقصد، والحلال محفوظ، والإحسان أثر، والفساد ممنوع.

والنعمة أوسع من المال. معرفة الطريق نعمة، وثقة الناس نعمة، والجاه نعمة، والوقت نعمة، والقدرة على التعليم نعمة، والمنصب الذي تفتح به أبواب الناس نعمة. كل واحدة منها يمكن أن توصل حقاً، ويمكن أن تتحول إلى منصة تعلو بها النفس على المحتاج.

من علامات أمانة النعمة أن يصل الخير ولا يستعبد المتلقي؛ أن تعلمه ما يحتاج ولا تبقيه متعلقاً بك، وأن تشفع له في حق من غير أن تشتري ولاءه، وأن تستعمل المنصب لتقريب العدل لا الأقارب، وأن تنفق من غير أذى. وليس النجاح أن تخرج النعمة من يدك فقط؛ النجاح أن تخرج ولا تحمل معها فساد القلب أو كسر الكرامة.

تجمع هذه الموازين ما تقدم من معاني الحق والقدرة والعدل وحسن القصد. فائدتها أن تمهلك لحظة ترى فيها الصورة أوضح، ثم تعينك على العمل حين يتبين موضعه.

اسأل إذن: أهو حق أم فضل؟ أوسيلته بر أم عدوان؟ أنا الأقدر أم أعرف الأقدر؟ ما ضرره المحتمل؟ أين العدل؟ وماذا تصنع هذه النعمة في قلبي وفي قلب من ينتفع بها؟ فإذا وجدت جواباً صادقاً، فلا تجعل كثرة الأسئلة ذريعة للتأخر. الموازين لم توضع لتطفئ الرحمة، بل لكي تصل بها إلى موضعها سليمة.

حين يتزاحم بابان من الخير

قد نتسع رغبتك في خدمة الناس أكثر مما يتسع يومك. توافق على مهمة، ثم تعرض أخرى، ويصل طلب ثالث وأنت لم تتم الأول. كل طلب له وجه يستحق النظر، لكن الساعة الواحدة لا تحمل أعمالاً غير محدودة. ويأتي التعب أحياناً من موافقات متتابة صدرت قبل أن تسأل: ما الذي صار في ذمتي بالفعل؟ ومن الذي ينتظرني لأنني وعدته؟

قال السعدي في تفسير سورة البقرة، الآية 177:

يقول تعالى: { لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ } أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف، وهذا نظير قوله صلى الله عليه وسلم: " ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب " ونحو ذلك. { وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ } أي: بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص. { وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } وهو كل ما أخبر الله به في كتابه، أو أخبر به الرسول، مما يكون بعد الموت. { وَالْمَلَائِكَةِ } الذين وصفهم الله لنا في كتابه، ووصفهم رسوله صلى الله عليه وسلم { وَالْكِتَابِ } أي: جنس الكتب التي أنزلها

الله على رسوله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام، { وَالنَّبِيِّنَ } عموماً، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم. { وَآتَى الْمَالَ } وهو كل ما يتولاه الإنسان من مال، قليلاً كان أو كثيراً، أي: أعطى المال { عَلَى حَبِّهِ } أي: حب المال، بين به أن المال محبوب للنفوس، فلا يكاد يخرج العبد. فمن أخرجه مع حبه له تقرباً إلى الله تعالى، كان هذا برهاناً لإيمانه، ومن إيتاء المال على حبه، أن يتصدق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى، ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة، كانت أفضل، لأنه في هذه الحال، يجب إمساكه، لما يتوهمه من العدم والفقر. وكذلك إخراج النفيس من المال، وما يحبه من ماله كما قال تعالى: { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ } فكل هؤلاء ممن آتى المال على حبه. ثم ذكر المنفق عليهم، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك. من الأقارب الذين تتوجع لمصائبهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاقلون، فمن أحسن البر وأوفقه، تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي، على حسب قربهم وحاجتهم. ومن اليتامى الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمته [تعالى] بالعباد، الدالة على أنه تعالى أرحم بهم من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد، وفرض عليهم في أموالهم، الإحسان إلى من فقد آبائهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه، ولأن الجزاء من جنس العمل فمن

رحم يتيم غيره، رُحِمَ يَتِيمُهُ. { وَالْمَسَاكِينَ } وهم الذين أسكتهم الحاجة، وأذلهم الفقر فلهم حق على الأغنياء، بما يدفع مسكتهم أو يخففها، بما يقدرُون عليه، وبما يتيسر، { وَابْنَ السَّبِيلِ } وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فحث الله عباده على إعطائه من المال، ما يعينه على سفره، لكونه مظنة الحاجة، وكثرة المصارف، فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته، وخوله من نعمته، أن يرحم أخاه الغريب، الذي بهذه الصفة، على حسب استطاعته، ولو بتزويده أو إعطائه آلة لسفره، أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها. { وَالسَّائِلِينَ } أي: الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج، توجب السؤال، كمن ابتلي بأرث جناية، أو ضريبة عليه من ولاية الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة، كالمساجد، والمدارس، والقناطر، ونحو ذلك، فهذا له حق وإن كان غنيا { وَفِي الرِّقَابِ } فيدخل فيه العتق والإعانة عليه، وبذل مال للمكاتب ليوفي سيده، وفداء الأسرى عند الكفار أو عند الظلمة. { وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ } قد تقدم مرارا، أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة، لكونهما أفضل العبادات، وأكمل القربات، عبادات قلبية، وبدنية، ومالية، وبهما يوزن الإيمان، ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان. { وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا } والعهد: هو الالتزام بإلزام الله أو إلزام العبد لنفسه. فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها،

ودخلوا تحت عهدتها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد، التي أوجبها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالإيمان والندور، ونحو ذلك. { وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ } أي: الفقر، لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره. فإن تنعم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألم، وإن جاع أو جاعت عياله تألم، وإن أكل طعاما غير موافق لهواه تألم، وإن عرى أو كاد تألم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذي يستعد له تألم، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه تألم. فكل هذه ونحوها، مصائب، يؤمر بالصبر عليها، والاحتساب، ورجاء الثواب من الله عليها. { وَالضَّرَاءِ } أي: المرض على اختلاف أنواعه، من حمى، وقروح، ورياح، ووجع عضو، حتى الضرر والإصبع ونحو ذلك، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك؛ لأن النفس تضعف، والبدن يألم، وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصا مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر، احتسابا لثواب الله [تعالى]. { وَحِينَ الْبَأْسِ } أي: وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم، لأن الجلال، يشق غاية المشقة على النفس، ويجزع الإنسان من القتل، أو الجراح أو الأسر، فاحتيج إلى الصبر في ذلك احتسابا، ورجاء لثواب الله [تعالى] الذي منه النصر والمعونة، التي وعد بها الصابرين. { أَوْلَئِكَ } أي: المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة، والأعمال

التي هي آثار الإيمان، وبرهانه ونوره، والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقة الإنسانية، فأولئك هم { الَّذِينَ صَدَقُوا } في إيمانهم، لأن أعمالهم صدقت بإيمانهم، { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } لأنهم تركوا المحظور، وفعلوا المأمور؛ لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير، تضمننا ولزومنا، لأن الوفاء بالعهد، يدخل فيه الدين كله، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها، كان بما سواها أقوم، فهو لاء هم الأبرار الصادقون المتقون. وقد علم ما رتب الله على هذه الأمور الثلاثة، من الثواب الدنيوي والأخروي، مما لا يمكن تفصيله في [مثل] هذا الموضع. ٦٥

هذا البناء يذكرنا بأن العمل النافع لا ينفصل عن بقية الاستقامة: لا يكفي أن نفتح باباً جميلاً إذا أغلقنا خلفه باب حق قائم. أما ترتيب واجبين متزاحمين في واقعة بعينها فله علمه وتفصيله، ولا يحسمه حماس اللحظة. ٦٦

٦٥. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة البقرة، الآية 177.

٦٦. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير البقرة 177، شرح البر والوفاء بالعهد.

يمكن أن تبدأ الموازنة بورقة صغيرة تكتب فيها الأفعال، لا صفات الأشخاص. بدل «فلان مهم وفلان أقل أهمية»، اكتب: موعد التزمته، ومهمة يمكن تأجيلها، وحاجة لا أعرف درجة عجلتها، وعمل يوجد من يحمله غيري. هذه الطريقة المقترحة لا تمنح حكمًا فقهيًا، لكنها تكشف ما تخفيه كثرة الرسائل. قد تظن الطلب الأخير أشد إلحاحًا لأن صاحبه يكرر الاتصال، بينما ينتظر آخر بصمت اعتمادًا على وعدك الأول.

ثم اسأل عن أثر التأخير. هناك عمل إذا تأخر أمكن تداركه بلا ضرر ظاهر، وعمل يضيع مواعده، وعمل لا تملك المعلومات الكافية لتقدير أثره. وفي النوع الأخير لا نتظاهر باليقين؛ اطلب بيانًا بالقدر اللازم أو اسأل من يعرف. كذلك لا تفترض أن وجود أشخاص كثيرين يعني أن أحدهم قد تحمل المهمة. ما لم يتفق على المسؤولية، قد يظن كل واحد أن غيره سيفعل، وتبقى الحاجة بين الظنون.

خذ مثالًا افتراضيًا: اتفقت الأسرة على أن تتولى أمرًا محددًا في المساء، ثم طلب إليك صديق أن تعينه في نشاط تطوعي يمكن أن يقوم به أكثر من شخص. قبل قبول الطلب الجديد، تحقق مما يترتب على ترك اتفاقك الأول، وهل توجد موافقة حقيقية على تغيير الترتيب. ليس رضا أحد أفراد الأسرة نيابة عن الجميع،

وليس سكوت المتعب إقراراً بأن يحمل نصيبك. قد نثيسر المشاركة في النشاط بعد تعديل واضح، وقد يكون الوفاء بما بدأت به هو العمل الذي يلزمك الآن.

وفي مثال آخر، يطلب منك عمل يتجاوز خبرتك. يمكنك أن تستهلك ساعات تحاول فيها إظهار القدرة، ويمكنك أن توصل السؤال مبكراً إلى أهله. الإحالة هنا تفتح وقتاً ووسيلة أصدق، لكنها لا تعفيك من إتمام الجزء الذي تعهدت به إن كان باقياً في قدرتك. بين ترك المهمة كلها والاستئثار بها طريق ثالث: تتحدد الأجزاء، ويعرف كل طرف ما له وما عليه، ويبين لصاحب الحاجة ما ينتظر فعلاً.

بعد القرار، لا تترك الوعود القديمة معلقة. أخبر من يتأثر بالتغيير، واذكر ما تستطيع تأكيده وما لا تستطيع. وإذا لم تكن قادراً على الوفاء فلا تستبدل موعداً متعذراً بموعد متفائل لا أساس له. قد يؤلم الاعتذار في وقته، لكنه يتيح للآخر أن يرتب أمره. أما الوعد المتجدد بلا قدرة فيأخذ من وقته كل مرة، ولو صاحبه خطاب لطيف.

ولست الموازنة دعوة إلى الحساب الجاف مع كل إنسان. إنها وسيلة كي يبقى للقلب الرحيم أثر يستطيع إتمامه. وقد يخرج من المراجعة عمل أقل عدداً، لكنه أوضح مسؤولية وأحفظ للحقوق. هكذا نتعلم أن تختار بابك اليوم، وأن تدع لغيرك باباً آخر، من غير أن تجعل كثرة ما بدأت به دليلاً على كثرة ما نفع.

القسم الثالث — دوائر النفع وأصحاب الحقوق

خريطة القرب التي لا تنسى العابر

قال الله تعالى: ﴿*وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا^ص وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فُجُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

تبدأ الخريطة بالتوحيد؛ لأن نفع الخلق ليس ديناً مستقلاً عن عبادة الخالق. ثم تقترب الدوائر من الإنسان: والدان، وقربة، وضعفاء، وجيران، وصاحب ملازم، ومسافر انقطع به الطريق. ليس الناس في الآية جمهوراً بعيداً نصفق له، بل وجوهاً تمر بنا كل يوم، وقد لا نراها لأن الألفة حجت حاجتها.

قال الطبري في تفسير الآية:

= "وبالوالدين إحساناً"، يقول: وأمركم بالوالدين إحساناً = يعني براً بهما = ولذلك نصب "الإحسان"، لأنه أمر منه جل ثناؤه بلزوم الإحسان إلى الوالدين، على وجه الإغراء.^{٦٧}

قال الطبري في تفسير الآية:

وأما قوله: ” وبذي القربى “، فإنه يعني: وأمرَ أيضاً بذِي القربى
 = وهم ذوو قرابة أحدنا من قبل أبيه أو أمه، ممن قربت منه
 قرابته برحمه من أحد الطرفين إحساناً بصلة رحمه. ٦٨

قال الطبري في تفسير الآية:

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: ”
 معنى، الجنب، في هذا الموضع: الغريب البعيد، مسلماً كان أو
 مشركاً، يهودياً كان أو نصرانياً“، لما بينا قبل من أن ”الجار ذي
 القربى“، هو الجار ذو القرابة والرحم. والواجب أن يكون ”
 الجار ذو الجنابة“، الجار البعيد، ليكون ذلك وصية بجميع
 أصناف الجيران قريهم وبعيدهم. ٦٩

قال الطبري في تفسير الآية:

قال أبو جعفر: فإذا كان ”الصاحب بالجنب“، محتملاً معناه ما
 ذكرناه: من أن يكون داخلاً فيه كل من جنب رجلاً بصحبة في
 سفر، أو نكاح، أو انقطاع إليه واتصال به = ولم يكن الله جل

٦٨. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة النساء، الآية 36.

٦٩. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة النساء، الآية 36.

ثناؤه خصّ بعضهم مما احتمله ظاهر التنزيل = فالصواب أن يقال: جميعهم معنيون بذلك، وكلهم قد أوصى الله بالإحسان إليه. ٧٠

قال الطبري في تفسير الآية:

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك: أن " ابن السبيل "، هو صاحب الطريق = و" السبيل " : هو الطريق، وابنه: صاحبه الضارب فيه = فله الحق على من مرّ به محتاجاً منقطعاً به، إذا كان سفره في غير معصية الله، أن يعينه إن احتاج إلى معونة، ويضيفه إن احتاج إلى ضيافة، وأن يحمله إن احتاج إلى حملان. ٧١

قال السعدي في تفسير الآية:

يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة وذلا وإخلاصا له، في جميع العبادات الظاهرة والباطنة. وينهى عن الشرك به شيئا لا شركا أصغر ولا أكبر، لا ملكا ولا نبيا ولا وليا ولا غيرهم من المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، بل الواجب المتعين لإخلاص العبادة

٧٠. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة النساء، الآية 36.

٧١. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة النساء، الآية 36.

لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد. ثم بعد ما أمر بعبادته والقيام بحقه أمر بالقيام بحقوق العباد الأقرب فالأقرب. فقال: { وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا } أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم والخطاب اللطيف والفعل الجميل بطاعة أمرهما واجتناب نهيهما والإنفاق عليهما وإكرام من له تعلق بهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما. وللاإحسان ضدان، الإساءة وعدم الإحسان. وكلاهما منهي عنه. { وَبِذِي الْقُرْبَىٰ } أيضا إحسانا، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله. { وَالْيَتَامَىٰ } أي: الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، فلهم حق على المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم بكفالتهم وبرهم وجبر خواطرهم وتأديتهم، وتربيتهم أحسن تربية في مصالح دينهم ودنياهم. { وَالْمَسَاكِينَ } وهم الذين أسكتهم الحاجة والفقر، فلم يحصلوا على كفايتهم، ولا كفاية من يمنون، فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم، بسد خللتهم وبدفع فاقمتهم، والحض على ذلك، والقيام بما يمكن منه. { وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ } أي: الجار القريب الذي له حقان حق الجوار وحق القرابة، فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف. { وَ } كذلك { الْجَارِ الْجُنُبِ } أي: الذي ليس له قرابة. وكلها كان الجار أقرب بابا كان أكدا حقا، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة

والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال وعدم أذيته بقول أو فعل. { وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ } قيل: الرفيق في السفر، وقيل: الزوجة، وقيل: صاحب مطلقاً، ولعله أولى، فإنه يشمل صاحب في الحضر والسفر ويشمل الزوجة. فعلى صاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له؛ والوفاء معه في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلها زادت الصحبة تأكيد الحق وزاد. { وَابْنُ السَّبِيلِ } وهو: الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتاج، فله حق على المسلمين لشدة حاجته وكونه في غير وطنه بتبليغه إلى مقصوده أو بعض مقصوده [وبإكرامه وتأنيسه] { وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } : أي: من الآدميين والبهائم بالقيام بكفائتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم. فمن قام بهذه المأمورات فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل، ومن لم يقم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله معجب بنفسه نفور بقوله، ولهذا قال: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا } أي: معجبا بنفسه متكبراً على

الخلق { نَحُورًا } يثني على نفسه ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله، فهولاء ما بهم من الاختيال والفخر يمنعهم من القيام بالحقوق. ٧٢

تبدأ دوائر الإحسان بالحقوق القريبة، ثم تمتد إلى من تجمعنا بهم صحبة أو جوار أو طريق. وقد يملك العابر مالاً ولا يملك معرفة المكان أو من يدلّه عليه؛ فلا ينحصر نفعه في دفع المال إليه. ٧٣

هذا الترتيب يراجع نزعة خفية: قد يتحمس الإنسان لمشروع بعيد يراه الناس، ثم يترك أباه ينتظر مكاملة، أو جاره لا يعرف باب من يطلب، أو زميله يحمل عبئاً يستطيع تخفيفه. ليس معنى ذلك أن كل قريب يقدم على كل بعيد في كل حال؛ فقد تعظم ضرورة البعيد أو يتعين إنقاذه. لكنه يعني أن القرب نفسه سبب حق، وأن الإحسان العام لا يصلح ستاراً للتقصير الخاص.

وفي خاتمة الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]. كأن الخريطة كلها معرضة لآفة واحدة: أن يتحول النفع إلى مرآة يرى فيها المحسن صورته. يخدم والديه ثم يعدد ما

٧٢. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة النساء، الآية 36.

٧٣. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير النساء 36، فقرة ابن السبيل.

صنع، ويعطي جاره ثم يستصغره، ويعين المسافر ثم ينشر ضعفه. وقد يصل الشيء إلى صاحبه، لكن الفخر يفسد قلب الباذل ويجرح قلب الآخذ.

ولذلك لا يكون اتساع الدوائر بإلغاء الفروق. للوالدين حق ليس كحق العابر، وللقريب صلة، ولليتيم ضعف، وللجار حرمة، وللرفيق صحبة. فقه النفع أن تعرف لكل واحد الباب الذي دخله منه حقه، ثم تؤديه من غير أن تحتقر من احتاج إليك.

القول الكريم جزء من الحاجة

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِنَّمَا يُبَلِّغُنَّ عَنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ مُبَذِّرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

حين يكبر الوالدان قد تكثر حاجتهما في وقت تضيق فيه طاقة الابن، وهنا يظهر معنى البر في التفاصيل التي لا تسجلها الفواتير. قد يؤدي المال كاملاً، ثم تخرج منه كلمة تضجر تجعل الأب أو الأم يشعران أنهما عبء. لذلك لم يكتف القرآن بالأمر بالإحسان؛ نزل إلى أقل صوت يمكن أن يحمل ضيقاً، فنهى عن «أف»، ثم عن النهر، ثم أمر بقول كريم.

قال الطبري في تفسير الآية:

يعني بذلك تعالى ذكره حكم ربك يا محمد بأمره إياكم ألا تعبدوا إلا الله، فإنه لا ينبغي أن يعبد غيره، وقد اختلفت ألفاظ أهل التأويل في تأويل قوله (وَقَضَى رَبُّكَ) وإن كان معنى جميعهم في ذلك واحدا.

- ذكر ما قالوا في ذلك: حدثني علي بن داود، قال: ثنا عبد الله بن صالح، قال: ثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) يقول: أمر^{٧٤}.

يجمع البر بذلك اليد واللسان والقلب: خدمة تؤدي، وكلمة تحفظ، وتواضع يرفق، ودعاء لا ينقطع. ليست الكرامة إضافة تجميلية بعد قضاء الحاجة؛ هي جزء من الحاجة نفسها.

قال السعدي في تفسير الآية:

يقول تعالى: {وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ} من البر والإكرام الواجب والمسنون وذلك الحق يتفاوت بتفاوت الأحوال والأقارب والحاجة وعدمها والأزمته.

٧٤. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة الإسراء، الآية 23.

{ وَالْمُسْكِينِ } آتَهُ حَقَّهُ مِنَ الزَّكَاةِ وَمِنْ غَيْرِهَا لَتَزُولَ مَسْكَنَتُهُ
 { وَابْنُ السَّبِيلِ } وَهُوَ الْغَرِيبُ الْمُنْقَطِعُ بِهِ عَنْ بَلَدِهِ، فَيُعْطَى الْجَمِيعُ
 مِنَ الْمَالِ عَلَى وَجْهِ لَا يَضُرُّ الْمُعْطَى وَلَا يَكُونُ زَائِدًا عَلَى الْمَقْدَارِ
 اللَّائِقِ فَإِنْ ذَلِكَ تَبْذِيرٌ قَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْهُ ٧٥

ثم تنتقل الآيات إلى ذي القربى والمسكين وابن السبيل، وتسمي ما يصل إليهم «حقاً». وفي تفسير السعدي أن حق القريب يتفاوت باختلاف القرابة والحاجة والحال والزمان، وأن العطاء يكون على وجه لا يضر المعطي ولا يتجاوز المقدار اللائق. هذا يحررنا من طرفين: من شئ يسمى كل نفقة تبذيراً، ومن اندفاع يوزع المال بلا تقدير ثم يضيع من تجب نفقته.

ليس كل ما يطلبه القريب حقاً، كما أن صلته ليست فضلاً يمكنك تركه بلا حساب. يحتاج النافع إلى علم يفرق بين النفقة الواجبة والهدية، وبين حاجة حقيقية ورغبة متكررة، وبين معونة تقيم الإنسان وإعانة تغذي معصيته أو اتكاله. ولا تصير هذه الأسئلة باباً للقسوة؛ بل وسيلة لإيصال الحق في صورة تنفع حقاً.

والتبذير لا يقاس بحجم الرقم وحده. قد يكون القليل موضوعاً في غير موضعه، وقد يكون الكثير لازماً لإنقاذ نفس أو سداد حق. المعيار يحتاج إلى الشرع والحال والقدرة. أما من جعل النهي عن التبذير ذريعة لترك المسكين وابن السبيل، فقد فصل آخر الآية عن أولها.

حقوق البيت والجار والطريق

قال الأسود:

سَأَلْتُ عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ
قَالَتْ كَانَ يَكُونُ فِي مَهْنَةِ أَهْلِهِ - تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ - فَإِذَا حَضَرَتِ
الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ. ^{٧٦}

البيت ميدان نفع، والأهل ليسوا آخر من يصلهم المعروف بعد أن
ينتهي النافع من جمهوره. ^{٧٧}

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورِثُهُ ^{٧٨}

وخارج الجدار يجيء حق الجار. قوة الوصية تعظم حقه، ولا تغير
فرائض الميراث. فلا يبقى الجار اسماً في العنوان البريدي: تفقد بلا
تجسس، وهدوء بلا أذى، ومواساة بلا من، واستجابة عند
الطارئ في حدود القدرة.

٧٦. صحيح البخاري، البخاري، حديث 676.

٧٧. صحيح البخاري، البخاري، حديث 676.

٧٨. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2625.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
 لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ
 كَأَنَّهُ تَوْذِي النَّاسِ ٧٩

ثم تنتسع الدائرة إلى طريق يمر به من لا تعرفهم. قد يصل النفع إلى
 أناس لا تعرف أسماءهم؛ فيصير المرفق العام أمانة، ويصير منع
 الضرر إحساناً ولو لم يشكر أحد.

لكن المحبة وحدها لا تكفي لصحة التصرف. إزالة خطر ظاهر في
 حدود القدرة شيء، والعبث بمرفق أو سلك أو جهاز لا يحسن
 المرء التعامل معه شيء آخر. وقد يكون النفع في إبعاد الناس، أو
 وضع تحذير مأمون، أو إبلاغ الجهة المختصة.

تنتظم الدوائر الثلاث من غير خصومة: خدمة أهل لا تسقط
 الصلاة، ووصية بجار لا تنشئ له ميراثاً، وإزالة أذى عن عامة لا
 تبيح أذى أكبر. والخلل أن يحب الإنسان العمل البعيد الذي يراه
 الناس، ثم يترك القريب يحمل وحده أعباء البيت؛ أو يحسن إلى
 بعيد ويؤذي جاره؛ أو يندفع إلى الطريق بغير علم فيصنع خطراً
 جديداً. النافع حقاً لا يختار جمهوراً واحداً، بل يؤدي حق كل
 دائرة بميزانها.

الجار الذي يصل إليه أثر القدر

عن أبي ذر رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ^{٨٠}

قد يحب المرء جيرانه في قلبه، ثم لا يخرج من هذا الحب شيء يعبر الجدار. وهذه صورة صغيرة لا تحتاج إلى ثراء: أن يوسع الموجد، ثم يتعاهد به من حوله.
قال النووي:

في هذه الأحاديث الوصية بالجار ، وبيان عظم حقه ، وفضيلة الإحسان إليه^{٨١}

ويقدم حديث أبي ذر فعلاً من أفعال الإحسان إلى الجار، بعد الوصية العظيمة به في حديث ابن عمر. فالطعام صورة من هذا الإحسان، وتبقى صور أخرى يحددها ما يحتاج إليه الجار وما نستطيع تقديمه^{٨٢}

٨٠. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2625.

٨١. شرح صحيح مسلم، النووي، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه.

٨٢. المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، ج 16 ص 176.

في قوله «وتعاهد جيرانك» معنى يتجاوز المصادفة. فالتعاهد يستدعي ملاحظة وتذكراً، لا انتظار أن يطرق المحتاج الباب. ومع ذلك لا يفتح النص باب التجسس على البيوت، ولا يوجب مقداراً واحداً في كل حال. قد يكون الجار مستغنياً عن الطعام محتاجاً إلى كف الضوضاء، وقد يكون مريضاً له حمية لا تلائم ما طبخت، وقد تكون له كرامة يصونها أن تسمي ما تقدمه هدية لا صدقة.

وزيادة الماء ليست دعوة إلى إفساد الطعام أو تقديم ما لا يليق. هي تربية على أن يسأل صاحب القدر: هل يتسع ما عندي لغيري؟ والسؤال لا يخص المرق وحده. وقتك قد يتسع لاتصال على جار مسن، وسيارتك قد تتسع لمرافق في موعد، ومعلوماتك قد تختصر على ساكن جديد طريقاً شاقاً. وتختلف وسيلة العون باختلاف الحق والحاجة والقدرة.

تبدأ الجيرة النافعة من إزالة الأذى قبل بذل الفضل. لا يغني طبق نقدمه عن كف أذانا عن الجار، ولا يصلح تفقده إذا تحول إلى اقتحام، ولا تليق بالهدية منة تجرح صاحبها. ثم يأتي بعد الكف باب المواساة: أن يزيد الإنسان ماء مرقته، لا ليحصى من أكل، بل ليدرب قلبه على أن يرى من حوله شركاء في حق القرب. وربما كان أعظم أثر للطعام أنه يقول بصمت: لست وحدك خلف هذا الباب.

الفقير الذي لا يطرق الباب

قال الله تعالى في وصف المصلين: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

قال الطبري في تفسير الآية:

يقول تعالى ذكره: وإلا الذين في أموالهم حق مؤقت، وهو الزكاة للسائل الذي يسأله من ماله، والمحروم الذي قد حرم الغنى، فهو فقير لا يسأل.

واختلف أهل التأويل في المعنى بالحق المعلوم الذي ذكره الله في هذا الموضع، فقال بعضهم: هو الزكاة.

• ذكر من قال ذلك:

حدثني ابن بشار، قال: ثنا عبد الأعلى، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، في قوله: (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) قال: الحق المعلوم: الزكاة.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ) : قال: الزكاة المفروضة.

وقال آخرون: بل ذلك حق سوى الزكاة.

• ذكر من قال ذلك:

حدثني علي، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس في قوله: (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) يقول: هو سوى الصدقة يصل بها رحمه، أو يقري بها ضيفاً، أو يحمل بها كلاً أو يعين بها محروماً.

حدثني ابن المثنى، قال: ثنا عبد الرحمن، عن شعبة، عن أبي يونس، عن رباح بن عبيدة، عن قزعة، أن ابن عمر سئل عن قوله: (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) أهى الزكاة؟ فقال: إن عليك حقاً سوى ذلك.

حدثنا أبو هشام الرفاعي، قال: ثنا ابن فضيل، قال: ثنا بيان، عن الشعبي، قال: إن في المال حقاً سوى الزكاة.

حدثنا ابن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، قال: في المال حق سوى الزكاة.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا مهران، عن سفيان، عن مجاهد: (في أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ) قال: سوى الزكاة، وأجمعوا على أن السائل هو الذي وصفت صفته.^{٨٣}

اختلف المفسرون في الحق المعلوم: أهو الزكاة، أم يدخل فيه حق سوى الزكاة من الصلة والضيافة والإعانة؟ وليس هذا الموضع محل حسم الخلاف الفقهي أو اختراع مقدار جديد. لكن اتفاق المعنى التربوي ظاهر: المال لا ينقطع عن حق الله وحق المحتاج، والمحتاجون ليسوا صنفاً واحداً.

قال السعدي في تفسير الآية:

{ لِلسَّائِلِ } الذي يتعرض للسؤال { وَالْمَحْرُومِ } وهو المسكين الذي لا يسأل الناس فيعطوه، ولا يفتن له فيتصدق عليه.^{٨٤}

قال الطبري في تفسير الآية:

حدثنا سهل بن موسى الرازي، قال: ثنا وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن قيس بن كرم، عن ابن عباس قال: (للسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) : المحارف الذي ليس له في الإسلام نصيب.^{٨٥}

٨٤. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة المعارج، الآية 25.

٨٥. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة المعارج، الآية 25.

قال الطبري في تفسير الآية:

حدثنا ابن المثنى، قال: ثنا وهب بن جرير، قال: أخبرنا شعبة، عن عاصم، عن أبي قلابة، قال: جاء سيل باليمامة، فذهب بمال رجل، فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: هذا المحروم.^{٨٦}

قال الطبري في تفسير الآية:

وقال قتادة، ما حدثني به ابن بشار، قال: ثنا عبد الأعلى، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، في قوله: (لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) قال: السائل: الذي يسأل بكفه، والمحروم: المتعفف، ولكليهما عليك حق يا ابن آدم.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: (لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) وهو سائل يسألك في كفه، وفقير متعفف لا يسأل الناس، ولكليهما عليك حق.^{٨٧}

٨٦. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة المعارج، الآية 25.

٨٧. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة المعارج، الآية 25.

السائل يصل إليك بصوته، أما المحروم فقد لا يطرق الباب. فسرره السعدي بالمسكين الذي لا يسأل، فلا يفتن له الناس. ونقل الطبري وجوهاً متعددة: من تعثرت أسباب رزقه، والمتعفف، ومن أصاب ماله ما أذهب. هؤلاء قد يعيشون قريباً منا دون أن تدخل أسمائهم في قوائم الطلب.

النفع الذي ينتظر السؤال فقط قد يفوته من يمنعه الحياء من الطلب. لذلك يحتاج البيت والحى والمؤسسة إلى عين رحيمة لا متطفلة: تلاحظ تغير الحال دون فضح، وتسأل أهل الثقة دون إشاعة، وتفتح قناة تحفظ كرامة الطالب، وتعرض المساعدة بطريقة تسمح له أن يقبل أو يعتذر.

ليس المقصود أن نفتش أسرار الناس أو نحول كل صمت إلى فقر. المقصود ألا نقيس الحاجة بعلو الصوت. قد يكون أكثر الناس إلحاحاً أقدرهم على الوصول، ويكون أشدهم حرماناً من لا يعرف كيف يشرح، أو يمنعه العفاف أن يقف في الصف. من تمام المعروف أن نبني طريقاً يصل إليه قبل أن تكسره الحاجة أو يكسر ستره السؤال.

قبل أن تسأل: كم أعطي؟

سأل المؤمنون ماذا ينفقون، فجاءهم الجواب وفيه سؤال آخر يخفي:
على من يقع إنفاقكم؟ قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ
مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ
السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].
ليست النفقة حركة مال من يد إلى يد فحسب؛ إنها ترتيب للحقوق،
حتى لا يطلب الإنسان أبواباً بعيدة من الخير ويترك خلفه والداً
محتاجاً أو قريباً انقطع به السبب.

قال القرطبي في تفسير الآية:

الثالثة : قيل : إن السائلين هم المؤمنون ، والمعنى يسألونك ما هي
الوجوه التي ينفقون فيها ، وأين يضعون ما لزم إنفاقه . قال
السدي : نزلت هذه الآية قبل فرض الزكاة ثم نسختها الزكاة
المفروضة . قال ابن عطية : ووهم المهدوي على السدي في
هذا ، فنسب إليه أنه قال : إن الآية في الزكاة المفروضة ثم نسخ
منها الوالدان . وقال ابن جريج وغيره : هي ندب ، والزكاة غير
هذا الإنفاق ، فعلى هذا لا نسخ فيها ، وهي مبينة لمصارف
صدقة التطوع ، فواجب على الرجل الغني أن ينفق على أبويه
المحتاجين ما يصلحهما في قدر حالهما من حاله ، من طعام

وكسوة وغير ذلك . قال مالك : ليس عليه أن يزوج أباه ، وعليه أن ينفق على امرأة أبيه ، كانت أمه أو أجنبية ، وإنما قال مالك : ليس عليه أن يزوج أباه لأنه رآه يستغني عن التزويج غالبا ، ولو احتاج حاجة ماسة لوجب أن يزوجه ، ولولا ذلك لم يوجب عليه أن ينفق عليهما . فأما ما يتعلق بالعبادات من الأموال فليس عليه أن يعطيه ما يحج به أو يغزو ، وعليه أن يخرج عنه صدقة الفطر ؛ لأنها مستحقة بالنفقة والإسلام .^{٨٨}

قال السعدي في تفسير الآية:

أي: يسألونك عن النفقة، وهذا يعم السؤال عن المنفق والمنفق عليه، فأجابهم عنهما فقال: (قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ) أي: مال قليل أو كثير، فأولى الناس به وأحقهم بالتقديم، أعظمهم حقا عليك، وهم الوالدان الواجب برهما، والمحرم عقوقهما، ومن أعظم برهما، النفقة عليهما، ومن أعظم العقوق، ترك الإنفاق عليهما، ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة، على الولد الموسر، ومن بعد الوالدين الأقربون، على اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب، على حسب القرب والحاجة، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة، (وَالْيَتَامَى) وهم الصغار الذين لا كاسب لهم، فهم في مظنة الحاجة لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم، وفقد الكاسب، فوصى الله

بهم العباد، رحمة منه بهم ولطفاً، (وَالْمَسَاكِينَ) وهم أهل الحاجات، وأرباب الضرورات الذين أسكنتهم الحاجة، فينفق عليهم، لدفع حاجاتهم وإغنائهم.

(وَابْنَ السَّبِيلِ) أي: الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة، التي توصله إلى مقصده.

ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف، لشدة الحاجة، عمم تعالى فقال: (وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ) من صدقة على هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات، لأنها تدخل في اسم الخير، (فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) فيجازيكم عليه، ويحفظه لكم، كل على حسب نيته وإخلاصه، وكثرة نفقته وقلتها، وشدة الحاجة إليها، وعظم وقعها ونفعها. ٨٩

قرأ المفسرون في الآية تعليماً لمواضع الفضل، مع تمييزهم بين النفقة الواجبة وصدقة التطوع ومصارف الزكاة. لذلك لا يكفي أن نقول: الأقربون أولى، ثم نجعل القرابة جداراً يحجب كل محتاج؛ ولا أن نفتح دوائر العطاء حتى نضيع من تعين حقه علينا. يبدأ الميزان بمن اجتمع له حق القرب وحقيقة الحاجة، ثم يتسع لليتيم والمسكين والمسافر المنقطع ولسائر وجوه الخير.

قد تكون صدقة البعيد لامعة، أما نفقة البيت فصامتة تتكرر ولا يراها الناس. وقد يكون هذا الصمت هو موضع العبادة: دواء الوالد، وحاجة الأم، وتعليم قريب فقد معيله، ثم ما يفيض إلى دوائر أوسع. ليست الأولوية إغلاقاً للخير، بل حماية له من أن يتحول إلى صورة عامة جميلة فوق تفصيل خاص مؤلم.

حين يكون حق المحتاج أن تتركه يتنفس

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

قد نطن أن نفع الناس يبدأ حين نمد أيدينا بالعطاء، لكنه يبدأ أحياناً حين نكف اليد التي تطالب. للدائن حق ثابت، وللمدين المعسر عجز حقيقي، والقرآن لا يحو الأول ليحمي الثاني؛ يأمر صاحب الحق أن ينتظر حتى تأتي الميسرة. في هذا الانتظار مساحة يتنفس فيها من أحاط به الدين، فلا تتحول حاجته إلى سجن نفسي واجتماعي، ولا يصبح الزمن الذي يحتاجه للنهوض باباً لزيادة جديدة.

قال الطبري في تفسير الآية:

قال أبو جعفر: والصواب من القول في قوله: " وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ "، أنه معني به غرماء الذين كانوا أسلموا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهم عليهم ديون قد أربوا فيها في الجاهلية، فأدركهم الإسلام قبل أن يقبضوها منهم، فأمر الله بوضع ما بقي من الربا بعد ما أسلموا، وبقبض رؤوس أموالهم، ممن كان منهم من غرمائهم موسراً، أو إنظار من كان منهم معسراً برؤوس أموالهم إلى ميسرتهم. فذلك حكم كل من

أسلم وله ربا قد أربى على غريم له، فإن الإسلام يبطل عن غريمه ما كان له عليه من قبل الربا، ويلزمه أداء رأس ماله - الذي كان أخذ منه، أو لزمه من قبل الإرباء - إليه، إن كان موسرا. وإن كان معسرا، كان منظرا برأس مال صاحبه إلى ميسرته، وكان الفضل على رأس المال مبطلا عنه.

غير أن الآية وإن كانت نزلت فيمن ذكرنا، وإياهم عنى بها، فإن الحكم الذي حكم الله به: من إنظاره المعسر برأس مال المرابي بعد بطول الربا عنه، حكم واجب لكل من كان عليه دين لرجل قد حل عليه، وهو بقضائه معسر: في أنه منظر إلى ميسرته، لأن دين كل ذي دين، في مال غريمه، وعلى غريمه قضاؤه منه - لا في رقبته. فإذا عدم ماله، فلا سبيل له على رقبته بحبس ولا بيع، وذلك أن مال رب الدين لن يخلو من أحد وجوه ثلاثة: إما أن يكون في رقة غريمه، أو في ذمته يقضيه من ماله، أو في مال له بعينه.

= فإن يكن في مال له بعينه، فمضى بطل ذلك المال وعدم، فقد بطل دين رب المال، وذلك ما لا يقوله أحد.

= ويكون في رقبته، فإن يكن كذلك، فمضى عدمت نفسه، فقد بطل دين رب الدين، وإن خلف الغريم وفاء بحقه وأضعاف ذلك، وذلك أيضا لا يقوله أحد.

فقد تبين إذا، إذ كان ذلك كذلك، أن دين رب المال في ذمة غريمه يقضيه من ماله، فإذا عدم ماله فلا سبيل له على رقبته، لأنه قد عدم ما كان عليه أن يؤدي منه حق صاحبه لو كان موجوداً، وإذا لم يكن على رقبته سبيل، لم يكن إلى حبسه وهو معدوم بحقه، سبيل. لأنه غير مانعه حقاً، له إلى قضائه سبيل، فيعاقب بمطله إياه بالحبس.^{٩٠}

قرأ الطبري الآية في سياق بقايا الربا ورؤوس الأموال، ثم قرر أن حكم إنظار المعسر لا يبقى محبوساً في سبب النزول؛ فكل من حل عليه دين وهو عاجز عن الوفاء ينظر إلى ميسرته. وفسر السعدي الأمر بأنه واجب، ثم جعل إسقاط الدين أو بعضه هو درجة التصديق التي نذبت إليها خاتمة الآية.

هنا يستقيم ميزان دقيق: الإنظار حق للمعسر، والوضع فضل من الدائن. لا يجوز أن نحول الفضل إلى ضغط أخلاقي جديد فنقول لصاحب المال: إن لم تسقط حقك فلست رحيماً. وقد يكون وراء هذا الحق يتيم أو أسرة أو مؤسسة تحمل أموال الناس. وفي الجهة الأخرى لا يجوز للدائن أن يلبس المطالبة ثوب الإهانة، أو يستثمر خوف المدين، أو يزيد عليه بسبب التأخير.

٩٠. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة البقرة، الآية 280.

والإعسار غير المماثلة. من يقدر على الوفاء ثم يؤخر الناس ليس هو صاحب العسرة الذي نتحدث عنه الآية. لذلك لا يناقض الرحمة أن يتحقق الدائن أو الجهة المختصة من الحال، ما دام التحقق عادلاً لا يفضح الإنسان ولا يفترض كذبه. النفع ليس سذاجة؛ هو عدل يعرف الفرق بين عاجز يحتاج إلى وقت، وقادر يأكل حقوق الناس.

وقد يكون إسقاط بعض الدين أنفع من إسقاطه كله، إذا حفظ للدائن حقه وفتح للمدين باب الخروج. وقد يكون تنظيم دفعات لا زيادة فيها هو الممكن. هذه صور تطبيقية يقدرها أهلها والجهة المختصة، لا أحكاماً تفصيلية تستخرج من هذا الموضع وحده. أما الأصل الذي لا يضيع فهو أن الرحمة تبدأ بمنع الظلم، ثم ترتقي إلى الفضل بحسب القدرة.

حين تكون الحاجة باباً للخروج من الظلم

ذكر الله مستضعفين من الرجال والنساء والولدان حبسهم الظلم في مكة، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

قال الطبري في تفسير الآية:

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: "وما لكم" أيها المؤمنون = "لا تقاتلون في سبيل الله"، وفي "المستضعفين"، يقول: عن المستضعفين منكم = "من الرجال والنساء والولدان"، فأما من "الرجال"، فإنهم كانوا قد أسلموا بمكة، فغلبتهم عشائهم على أنفسهم بالقهر لهم، وآذوهم، ونالوهم بالعذاب والمكاره في أبدانهم ليفتنوهم عن دينهم، فحضر الله المؤمنين على استنقاذهم من أيدي من قد غلبهم على أنفسهم من الكفار، فقال لهم: وما شأنكم لا تقاتلون في سبيل الله، وعن مستضعفي أهل دينكم وملتكم الذين قد استضعفهم الكفار فاستذلوهم ابتغاء فتنهم وصددهم عن دينهم؟ "من الرجال والنساء والولدان" = جمع "ولد": وهم الصبيان = "الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه

القرية الظالم أهلها“، يعني بذلك أن هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، يقولون في دعائهم ربهم بأن ينجيهم من فتنة من قد استضعفهم من المشركين: ”يا ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها“.^{٩١}

قال القرطبي في تفسير الآية:

الأولى : قوله تعالى : وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله حض على الجهاد ، وهو يتضمن تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين الذين يسومونهم سوء العذاب ، ويفتنونهم عن الدين ؛ فأوجب تعالى الجهاد لإعلاء كلمته وإظهار دينه واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده ، وإن كان في ذلك تلف النفوس . وتخليص الأسارى واجب على جماعة المسلمين إما بالقتال وإما بالأموال ؛ وذلك أوجب لكونها دون النفوس إذ هي أهون منها . قال مالك : واجب على الناس أن يفتدوا الأسارى بجميع أموالهم . وهذا لا خلاف فيه ؛ لقوله عليه السلام (فكوا العاني) وقد مضى في ” البقرة ” . وكذلك قالوا : عليهم أن يواسوهم فإن المواساة دون المفاداة . فإن كان الأسير غنيا فهل يرجع عليه الفادي أم لا ؛ قولان للعلماء ، أحصهما الرجوع .^{٩٢}

٩١. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة النساء، الآية 75.

٩٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تفسير سورة النساء، الآية 75.

ضبط الطبري سياق الآية بمن قهروا وفتنوا عن دينهم ولم يملكوا الخروج، وقرأ القرطبي فيها معنى استنقاذ الضعيف، حتى ذكر الفداء بالمال طريقاً من طرق تخليص الأسير.

هذا الموضع لا يحول كل قارئ إلى صاحب قرار في الحرب، ولا يبيح عنفاً فردياً بلا ولاية ولا علم ولا تقدير للمآلات. أحكام الجهاد والسياسة والقضاء لها أبوابها وأهلها. لكن الآية تهدم وهماً آخر: أن النفع ينتهي عند إبقاء المظلوم حياً داخل الظلم. قد يحتاج الإنسان طعاماً اليوم، ويحتاج معه طريقاً آمناً، ومحامياً، ومأوى، وتوثيقاً لحقه، وجهة تمنع المعتدي من تكرار عدوانه.

الحماية نفع، ورفع السبب نفع، وبناء قدرة الضعيف على الاختيار نفع. وليس كل من يقدم معونة قادراً على كل ذلك؛ إنما يعرف حد اختصاصه، ثم يصل صاحب الحاجة إلى من يملك الوسيلة المشروعة. هكذا لا تصبح الشفقة فوضى، ولا تصبح الإجراءات عذراً لترك المستضعف وحده.

بر لا يطلب ثمناً في العقيدة

يفتح القرآن باباً واسعاً في معاملة من لم يقاتل المسلمين ولم يخرجهم من ديارهم: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

قال الطبري:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، من جميع أصناف الملل والأديان أن تبرؤهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم، إن الله عز وجل عم بقوله: (الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ) جميع من كان ذلك صفته، فلم يخص به بعضاً دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ، لأن بر المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب غير محرم ولا منهي عنه إذا لم يكن في ذلك دلالة له، أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح. قد بين صحة ما قلنا في ذلك، الخبر الذي ذكرناه عن ابن الزبير في قصة أسماء وأمها. ٩٣

في هذا الترجيح يتسع البر والقسط لكل من اتصف بما ذكرته الآية، مع بقاء حدود الإعانة التي بينها الطبري.
وقالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما:

قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ { إِنْ أُمِّي قَدِمَتْ } وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي قَالَ “ نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ ”. ٩٤

في صلة الأم حفظ لحق القرابة مع اختلاف الدين، وفي البر والقسط باب لمعاملة من لم يحارب بالعدل والإحسان.

فالاختلاف في الدين لا يحول الإنسان غير المحارب إلى محروم من العدل أو المعروف: يطعم الجائع، ويعالج المريض، ويغاث المنكوب، ويوفى بالعهد، ويكرم الجار والقريب. وهذا البر ليس مساومة على الاعتقاد، ولا ذوباناً للحدود؛ فالآية التالية نفسها تمنع موالاة من قاتل وأخرج وأعان على الإخراج.

بين القطيعة العامة والذوبان طريق مستقيم: رحمة لا تعين ظلماً، وعدل لا يشترط موافقة المظلوم لك، وصلة لا تتحول إلى نصره للمعتدي. الحد الشرعي لا يقتل الرحمة؛ بل يمنع الرحمة من أن

تستعمل ضد من يحتاج إليها. وإذا استقام هذا الميزان صار نفع
الناس شاهداً على عدل الدين، لا صفقة لشراء القلوب ولا ستاراً
لتميع الحق.

إصلاح اليتيم لا عزله

جعل القرآن الإصلاح ميزان التعامل مع اليتيم، فقال تعالى ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبَتْكُمْ إِنْ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. ليست العناية أن نجعل الضعيف ملفاً معزولاً خوفاً من الخطأ؛ وليست الأخوة أن نغو الحدود التي تحفظ حقه.

قال الطبري في تفسير الآية:

قال أبو جعفر: فتأويل الآية إذا: ويسألك يا محمد أصحابك عن مال اليتامى، وخلطهم أموالهم به في النفقة والمطاعمة والمشاركة والمساكنة والخدمة، فقل لهم: تفضلكم عليهم بإصلاحكم أموالهم - من غير مَرَزِئَةٍ شيء من أموالهم، وغير أخذ عوض من أموالهم على إصلاحكم ذلك لهم - خير لكم عند الله وأعظم لكم أجراً، لما لكم في ذلك من الأجر والثواب = وخير لهم في أموالهم في عاجل دنياهم، لما في ذلك من توفر أموالهم عليهم = " وإن تخالطوهم " فتشاركوهم بأموالكم أموالهم في نفقاتكم ومطاعمكم ومشاربكم ومساكنكم، فتضموا من أموالهم عوضاً من قيامكم بأموالهم وأسبابهم وإصلاح أموالهم، فهم إخوانكم، والإخوان

يعين بعضهم بعضاً، ويكنف بعضهم بعضاً، فذو المال يعينُ ذا الفاقة، وذو القوة في الجسم يعين ذا الضعف. يقول تعالى ذكره: فأتَمَّ أيها المؤمنون وأيتاكم كذلك، إن خالطتموهم بأموالكم = نخلطتم طعامكم بطعامهم، وشرابكم بشرابهم، وسائر أموالكم بأموالهم، فأصبتم من أموالهم فضلَ مَرَفَقٍ بما كان منكم من قيامكم بأموالهم وولائهم، ومعاناة أسبابهم، على النظر منكم لهم نظرَ الأخ الشقيق لأخيه، العامل فيما بينه وبينه بما أوجب الله عليه وألزمه = فذلك لكم حلال، لأنكم إخوان بعضهم لبعض، كما:-

4198 - حدثني يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد: " وإن تخالطوهم فإخوانكم "، قال: قد يخالط الرجل أخاه.

4199 - حدثني أحمد بن حازم قال، حدثنا أبو نعيم قال، حدثنا سفيان، عن أبي مسكين، عن إبراهيم قال: إني لأكره أن يكون مال اليتيم كالعرة .

4200 - حدثنا أبو كريب قال، حدثنا وكيع، عن هشام الدستوائي، عن حماد، عن إبراهيم، عن عائشة قالت: إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي عرّة، حتى أخلط طعامه بطعامي وشرابه بشراي.^{٩٥}

النية مهمة، لكنها ليست كلمة تعفي صاحب الولاية من الحساب؛ فهي مقصد يصدقه أثر العمل وأمانته.

لهذا يحتاج بيت اليتيم إلى قلب ودقتر معاً. قلب لا يذكره كل يوم بأنه زائد على الأسرة، ولا يميزه في الطعام واللباس بما يكسر نفسه. ودقتر يحفظ ماله، ويوثق ما أخذ له وما أنفق عليه، ويفصل عند الحاجة بين حقه ومصلحة من يتولى أمره. الحساب البارد وحده قد يحفظ الرصيد ويضيع الإنسان، والعاطفة غير المنضبطة قد تدفع المجلس وتبدد المستقبل.

ولا يحسم هذا الكلام تفاصيل الولاية والاستثمار والنفقة؛ فتلك أبواب فقه ونظام وقضاء. لكنه يثبت الأصل الذي ينبغي أن يحكمها: كل تصرف يدور مع مصلحة اليتيم لا مع راحة القائم عليه، ولا مع حاجته الخفية إلى السيطرة أو الانتفاع. الإصلاح أن يكبر اليتيم محفوظ المال، كريم النفس، متعلماً كيف يستقل بحقوقه لا كيف يبقى مديناً لمن رعاه.

حين يكشف اليتيم حقيقة نظرتنا إلى المال

رد القرآن تصوراً قديماً يتجدد في كل عصر: أن سعة المال علامة كرامة مطلقة، وأن ضيقه علامة هوان. قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلَىٰ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۖ وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۖ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٧-٢٠].

لم يكن السؤال: كم جمعتم؟ بل ماذا فعل جمعكم بقلوبكم وحقوق من لا قوة لهم؟

قال الطبري في تفسير الآية:

وقوله: (وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا) يقول تعالى ذكره: وتأكلون أيها الناس الميراث أكلاً لَمًّا، يعني: أكلاً شديداً لا تتركون منه شيئاً، وهو من قولهم: لمت ما على الخوان أجمع، فأنا ألمه لَمًّا: إذا أكلت ما عليه فأتيت على جميعه.^{٩٦}

٩٦. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة الفجر، الآية 19.

قال الطبري في تفسير الآية:

حدثني يعقوب، قال: ثنا ابن علية، عن يونس، عن الحسن، في قوله: (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا) قال: نصيبه ونصيب صاحبه.

٩٧

قال الطبري في تفسير الآية:

حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قول الله: (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا) قال: الأكل اللمّ: الذي يأكل كل شيء يجده ولا يسأل، فأكل الذي له والذي لصاحبه، كانوا لا يورثون النساء، ولا يورثون الصغار، وقرأ: وَاسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُوْرَثُهُنَّ مَا كَتَبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ أَي: لا تورثونهن أيضا (أَكْلًا لَمًّا) يأكل ميراثه، وكل شيء لا يسأل عنه، ولا يدري أحلال أو حرام. ٩٨

٩٧. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة الفجر، الآية 19.

٩٨. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة الفجر، الآية 19.

قال القرطبي في تفسير الآية:

قوله تعالى : بل لا تكرمون اليتيم إخبار عن ما كانوا يصنعونه من منع اليتيم الميراث ، وأكل ماله إسرافاً وبداراً أن يكبروا . وقرأ أبو عمرو ويعقوب يكرمون ، ويحضون ويأكلون ، ويحبون بالياء ؛ لأنه تقدم ذكر الإنسان ، والمراد به الجنس ، فعبر عنه بلفظ الجمع . الباقي بالتاء في الأربعة ، على الخطاب والمواجهة كأنه قال لهم ذلك تقرّيعاً وتوبيخاً . وترك إكرام اليتيم بدفعه عن حقه ، وأكل ماله كما ذكرنا . قال مقاتل : نزلت في قدامة بن مظعون وكان يتيماً في حجر أمية بن خلف .^{٩٩}

قال السعدي في تفسير الآية:

وأيضاً، فإن وقوف همة العبد عند مراد نفسه فقط، من ضعف الهمة، ولهذا لامهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين، فقال: { كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ } الذي فقد أباه وكاسبه، واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه.

فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، وهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم، وعدم الرغبة في الخير.^{١٠٠}

٩٩. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تفسير سورة الفجر، الآية 17.

١٠٠. تفسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة الفجر، الآية 17.

هكذا لا ينفصل الخبز عن الكرامة، ولا الهدية عن الوثيقة التي تحفظ حقاً دائماً.

قد تقيم الأسرة مأدبة صدقة، ثم تؤخر قسمة تركة لأن الأقوى ينتفع بالتأخير. وقد تكثر مبادرات الإطعام، بينما يبقى المحتاج المتعفف خارج دوائر المعرفة. إن الآيات لا تلغي قيمة الإطعام؛ بل تضيف إليه «التحاض»: أن يصنع الناس ثقافة تذكّر بالمسكين، وتفتح طريقاً لمن يريد المشاركة، وتحول الرحمة الفردية إلى وعي عام منظم.

لكن الحث لا يعفي القادر من فعله، ولا يبرر الضغط العاطفي أو جمع المال بلا أمانة. ولا تدم الآيات أصل المال؛ المال أداة وابتلاء. المذموم حب يلتهم الميراث، ويجعل صاحب المال أكرم في أعيننا من اليتيم، وقيس الإنسان بما يستطيع دفعه. فإذا أردت أن تعرف موضع المال من قلبك، فانظر إلى عدلك حين لا يراك أحد، وإلى طريقتك مع من لا يستطيع مكافأتك أو مقاضاتك بسهولة.

الإطعام والرحمة: من الإنسان إلى كل كبد رطبة

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما:

أَنَّ رَجُلًا، سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ قَالَ
 “تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ”
 ١٠١.

جمع الجواب بين نفع البدن وأمان اللقاء: طعام يسد حاجة،
 وسلام يفتح باب المودة، وكلاهما يتجاوز دائرة من تعرفهم. ولم
 يخص هذا اللفظ الإطعام بالفقير، ولا يقتصر خير الإسلام على
 هاتين الخصلتين.

الإطعام صورة واضحة، لكن هدي السنة يفتح للرحمة باباً أوسع. عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

“بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَأَشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي فَلَا خَفَةَ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ”. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا قَالَ “فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ” ١٠٢.

انتقل الرجل من معرفة عطشه إلى ملاحظة عطش الكلب، ثم بذل ما أمكنه لسقيه. وفي هذا الشاهد نتأمل أن رؤية الحاجة قد تفتح عملاً لم يكن في حساب صاحبه. وتبقى طريقة التعامل مع الحيوان وما قد ينشأ عنها من ضرر محتاجة إلى علم يناسب الحال؛ ففضل الرحمة لا يغني عن معرفة الوسيلة الآمنة.

ومن التطبيقات التي نقترحها أن تبدأ بملاحظة حاجة تستطيع خدمتها: طعام فائض صالح، أو ماء يحتاج إليه مخلوق، أو عائق يؤذي عبّاراً. ليست المبادرة في حجم المشروع؛ قد تكون في انتباه سبق العادة، ثم فعل مأمون في حدود القدرة وأحكام الشرع.

وثنوع وجوه النفع التي دلت عليها الشواهد المستقلة: طعام وسلام، وحق جار، ودلالة إلى قادر، وشفاعة حسنة، وطريق يسان، وبهيمة تسقى، وأهل يخدمون. ليست فضيلة النفع مهارة واحدة يمتاز بها المحسنون الكبار؛ إنها يقظة تتوزع على اليوم كله. وقد لا تكون أثقل الأعمال كلفة هي أكثرها حاجة في الساعة. قد يكون الخير الذي ينتظرك طبقاً يصل، أو اسماً صحيحاً تدل عليه، أو كلمة تنصف، أو خطراً تبلغ عنه، أو عملاً في بيتك لا ينبغي أن يبقى على كتف غيرك.

غرس يأكل منه من لا تعرفه

عن أنس رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرِعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ
 إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ^{١٠٣}

قال ابن حجر:

قوله : (وما من مسلم) أخرج الكافر لأنه رتب على ذلك كون
 ما أكل منه يكون له صدقة ، والمراد بالصدقة الثواب في الآخرة
 وذلك يختص بالمسلم ، نعم ما أكل من زرع الكافر يثاب عليه
 في الدنيا كما ثبت من حديث أنس عند مسلم ، وأما من قال إنه
 يخفف عنه بذلك من عذاب الآخرة فيحتاج إلى دليل ، ولا
 يبعد أن يقع ذلك لمن لم يرزق في الدنيا وفقد العافية . قوله :
 (أو يزرع) ” أو ” للتنويع لأن الزرع غير الغرس .^{١٠٤}

١٠٣. صحيح البخاري، البخاري، حديث 2320؛ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج،
 حديث 1553.

١٠٤. فتح الباري، ابن حجر، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل
 منه.

في هذا الحديث يتحول الغرس من ملك جامد إلى سبب نفع يتكاثر خارج حساب صاحبه. قد يأكل منه إنسان لا يعرف اسمه، أو طير لا يستطيع شكره، أو بهيمة لا تدرك من غرس. ومع ذلك لا يضيع الأثر؛ سماه النبي صلى الله عليه وسلم صدقة. وذكر ابن حجر أن «صدقة» هنا تفيد الأجر، ونبه إلى تنويع الحديث بين الغرس والزرع وإلى أصناف المنتفعين التي جاءت في روايات الباب.

يعلم الغرس النافع ثلاث خصال. الأولى الصبر؛ فلا يثمر كل خير في اليوم الذي بدأ فيه. والثانية بناء السبب؛ فالفاعل لا يطعم كل طائر بيده، لكنه ينشئ أصلاً يتكرر منه الطعام. والثالثة التواضع؛ فقد ينتفع الناس ولا يعرفون صاحبه، وقد يعيش الأثر بعد أن ينسى الناس اسمه. وفي زمن تغلب فيه الرغبة في النتيجة السريعة، يرد الحديث الاعتبار إلى الأعمال التي تحتاج عناية ممتدة قبل أن يرى صاحبها ثمرة.

وفي حياتنا صور أخرى للنفع الممتد: معرفة موثقة ينتفع بها اللاحقون، وإجراء يمنع خطأ متكرراً، وتدريب يزيد عدد القادرين، ووقف يحفظ خدمة ضرورية. نرجو خيرها دون أن نجزم لها بثواب مخصوص؛ ويجمعها عمل حاضر يهيئ منفعة تتكرر لمن يأتي بعدنا.

قال ابن حجر:

واستنبط منه المهلب أن من زرع في أرض غيره كان الزرع
للزارع وعليه لرب الأرض أجرة مثلها ، وفي أخذ هذا الحكم من
هذا الحديث بعد ، وقد تقدم الكلام على أفضل المكاسب في
كتاب البيوع . والله الموفق . ١٠٥

١٠٥ . فتح الباري، ابن حجر، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل
منه .

ويبقى للحديث حدوده. لا يجعل كل مشروع أخضر صالحاً لمجرد اسمه، ولا يفصل في حقوق الأرض والماء والملكية، ولا يبيح نوعاً يضر بالبيئة أو يستهلك مورداً يحتاجه الناس. وقد تعقب ابن حجر استنباط حكم ملك الزرع في أرض الغير من هذا الحديث، ورأى في أخذه منه بُعداً. ١٠٦ ففضل العمل لا يعفينا من سؤال الحق في وسيلته. وقد يكون قطع شجرة مؤذية نفعاً كما دلت رواية مستقلة، ويكون غرس النافع صدقة كما دل هذا النص. العبرة ليست بصورة الشجرة وحدها، بل بحقيقة الأثر في موضعه، والحكم الفني لأهله.

لذلك يسأل صاحب المشروع قبل أن يغرس فكرته: من سيعتني بها بعد الحماس الأول؟ وهل تحل حاجة أم تصنع عبثاً جديداً؟ وهل يستطيع المنتفع أن يصل إليها بكرامة؟ وهل بنيت على مورد مباح ومستدام؟ تعين هذه الأسئلة على أن يبقى النفع الممتد عملاً يصل إلى الناس. فالخير الباقي لا يبقى لأنه كبير فقط؛ يبقى لأن أصله صحيح، ورعايته ممكنة، وثمرته تصل.

١٠٦. فتح الباري، ابن حجر، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، شرح حديث 2320، ج 5 ص 5-7.

حين يمرض من اعتدت قوته

قد يكون المريض هو الشخص الذي اعتاد الناس أن يسندوا إليه أمورهم. يعرف المواعيد، ويتابع الصغير والكبير، ويصلح ما تعطل في البيت. فإذا مرض، تعطلت معه أعمال لم يكن أحد يراها. يسأله الزائر عن صحته، ثم تنتهي الزيارة وتبقى تلك الأعمال في انتظاره. هنا يحتاج النفع إلى عين ترى ما حول السرير أيضاً: وعد لم يقدر على إتمامه، وطفل يحتاج إلى من يطمئنه، وأسرة تحاول أن تدبر يومها بعدما تغير إيقاعه.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ، وَفُكُّوا الْعَانِيَ^{١٠٧}

يجمع الأمر بين حاجات مختلفة، ويجعل للمريض نصيباً من التفقد. لا يظل الإنسان حاضراً في قلوبنا فقط ما دام قوياً قادراً على مشاركتنا؛ نبقي قريبين حين تضيق قدرته ويحتاج إلى من يسأل عنه. ١٠٨

وللعيادة معنى يتجاوز إثبات أننا زرنا. قد نستطيع الحضور، لكن الوقت لا يلائمه، أو يثقل عليه الكلام، أو تكون له تعليمات علاجية ينبغي احترامها. السؤال عن الوقت المناسب صورة من العناية بصاحب الزيارة. ولا يعوض حسن القصد تجاهل ما بينه المريض أو أهله أو الفريق المسؤول عن علاجه. نحن قادمون لنخفف شيئاً من حملة، فينبغي أن يكون ما نختاره قابلاً لأن ينفعه فعلاً.

تصور مثلاً افتراضياً لأسرة تستقبل قريباً عاد من المستشفى. يحبونه، فتتوالى الاتصالات والزيارات حتى يجد نفسه يعيد وصف ما حدث مراراً. يستطيع بعضهم أن ينسق، بإذنه، رسالة مقتضبة تبلغ من يحبون الاطمئنان، وأن يسألوا عما يحتاجه البيت بدل أن

ينتظروا ضيافة من الأسرة المشغلة. لا توجد هيئة واحدة تلاءم كل مريض؛ قيمة المثال في أن المحبة نتعلم الإصغاء، وتقبل أن نغير صورتها حين يتغير حال من تحب.

وقد يأتي العون في أمر بسيط لا صلة له بالعلاج نفسه. يوصل أحدهم غرضاً طلبه المريض، ويتولى آخر مهمة اتفق عليها أهل البيت، ويساعد ثالث في ترتيب معلومة يريد صاحبها فهمها. وكلما كان العمل أوضح، قل ما يضيفه إلى الأسرة من متابعة. عبارة «أنا حاضر لأي شيء» كريمة، لكنها قد تترك على المتعب عبء ابتكار المهمة وشرحها. يمكن أن تقترح ما تحسنه، وتترك له اختيار قبوله، ثم تؤديه في الوقت الذي وافقت عليه.

وفي الكلام مع المريض مساحة تحتاج إلى رفق خاص. لا يلزم أن يجد لكل زائر وصفاً مفصلاً لألمه، ولا أن يبدو متفائلاً حتى يطمئن الآخرين. قد يستطيع الحديث في يوم ويعجز في آخر. إذا قال إنه متعب، فلا تجعل مجلسه اختباراً لصبره أو رضاه، ولا تستخرج من مظهر الحزن حكماً على قلبه. واسمع ما يقوله قبل أن تملأ الوقت بنصائح لم يطلبها. ربما كانت حاجته إلى صاحب يحتمل الصمت، أو إلى حديث مألوف يخرج به قليلاً من دائرة السؤال عن المرض.

ويرجو المسلم للمريض العافية، ويدعوه له، ويذكره بما ينفعه من غير أن يعده بنتيجة لا يملكها. أما اقتراح دواء أو إيقاف علاج أو تفسير عارض، فليس امتداداً تلقائياً للعيادة. لهذا الكلام أهله وواقعه الذي يعرفونه. تستطيع أن تعين المريض على عرض سؤاله على المختص، وأن تكتب له ما يريد تذكره إن طلب، مع بقاء القرار الطبي في موضعه. هذا التمييز يحفظ للقرب دفأه وللمعرفة حقها.

وقد تكون عنايتك بمن يرافق المريض نافعة للمريض نفسه. من بقي معه طويلاً له طاقة وحدود وأعمال أخرى. أسأله عن مهمة تستطيع حملها بدل أن تمدحه على صبره ثم تترك كل شيء عنده. وربما اتفق أفراد الأسرة على توزيع أعمال تناسب قدرة كل واحد. لا يراد أن يتحول البيت إلى جدول جامد، بل أن يظهر العمل الخفي، وألا يحمل الأكثر سكوتاً ما لم يتفق عليه أحد.

واحفظ خبر المرض كما تحفظ ما يؤتمن عليه المرء من شأن قريبه. الإذن لك بمعرفة تفصيل لا يعني الإذن بنقله إلى مجلس أو مجموعة. وقد يريد المريض أن يعرف بعض الناس وألا يعرف آخرون، أو أن ينقل خبراً عاماً دون تفاصيله. أسأله عما يسمح بإبلاغه، ولا تجعل اهتمام الناس سبباً ليخرج الأمر من يده. تبقى التفاصيل النظامية والمهنية للسر الطبي في مجالها؛ أما علاقة القريب فتوامها أمانة الكلام والوفاء بما أوتمن عليه.

إذا طالت مدة المرض، ظهر امتحان الاستمرار. قد يكثر السؤال أول الأيام، ثم تتباعد الأصوات، بينما تبقى الحاجة. وليس مطلوباً أن يحمل إنسان واحد جميع الأيام. قد تكون صلة يسيرة منتظمة، يرضاها صاحبها وتقدر عليها، أصدق من حضور كثيف ينقطع فجأة. وفي كل مرة دع للمريض فرصة أن يغير ما طلبه، حاجته اليوم ليست صورة محفوظة من أول زيارة.

ومن تمام الرفق أن تفرح بعودة قدرته دون أن تستعجلها نيابة عنه. قد يستعيد بعض أعماله ويبقى محتاجاً في غيرها. لا تجعل مساعدتك سبباً لمنعه من كل ما يستطيع، ولا تقطعها لمجرد أنه بدا لك أفضل في لقاء قصير. يسأل القريب ويصغي، ويعين فيما اتفق عليه، ويترك لصاحب الشأن وأهل الاختصاص ما يعرفونه عن حاله. هكذا تبقى العيادة صلة بإنسان كامل، له حياته ورأيه ومحبه، ويكون المرض حالاً من أحواله لا الاسم الوحيد الذي نناديه به.

أن تفتح باب المشاركة

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

“إِنَّ بِلَالًا يُؤَذِّنُ بَلِيلٌ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَنَادِيَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ.”
ثُمَّ قَالَ وَكَانَ رَجُلًا أَعْمَى لَا يَنَادِي حَتَّى يَقَالَ لَهُ أَصَبَحَتْ
أَصَبَحَتْ. ١٠٩

تجمع الرواية عملاً يؤديه ابن أم مكتوم ومعلومة يحتاج إلى من يبلغه إياها. لم يجعل احتياجه إلى هذه المعلومة عمله معدوم القيمة، كما لم يطلب منه أن يستغني عما يحتاج إليه حتى يشارك.^{١١٠}

هذه ملاحظة في الخبر تفتح لنا سؤالاً عن معاملتنا للناس: هل نرى ما يستطيع الإنسان أن يؤديه، أم نبدأ من الصعوبة التي لاحظناها فيه فنجعلها تعريفه كله؟ قد يأتي شخص ليشارك بعلم أو خبرة، ثم لا يسمع منا إلا عروض المساعدة. ويكون شاكراً للعرض، لكنه يريد أيضاً أن يجد مكاناً لما يملك. الخير لا يجري في اتجاه واحد؛ فقد يحتاج إليك في وسيلة، وتحتاج إليه في معرفة لا تحسنها.

ولا تتساوى حاجات الناس لمجرد اشتراكهم في وصف عام. من لديه إعاقة بصرية قد يفضل طريقة في قراءة المادة، ويختار غيره طريقة أخرى. ومن يصعب عليه السمع قد يحتاج إلى بيان مكتوب في موقف، وإلى ترتيب مختلف في موقف آخر. لا

١١٠. صحيح البخاري، البخاري، حديث 617.

نكتشف هذا بالتخمين ولا بكثرة الحديث عنه في غيبته. نتوجه إليه بالسؤال المناسب، ونصغي إلى ما يقترحه، ونميز بين ما نعرفه وما يلزم أن نستعين فيه بخبرة متخصصة.

تخيل لقاءً تعليمياً افتراضياً أعدت مادته في صور لا يمكن لأحد المشاركين قراءتها بالطريقة المتاحة له. قد يقال له بحسن نية: يكفي حضورك معنا. لكن غرضه أن يتعلم ويشارك، لا أن يكون شاهداً على لطف الحاضرين. يستطيع المنظم أن يسأل عن صيغة مناسبة، وأن يهيئها حين يقدر، وأن يبين مبكراً ما تعذر. الفكرة العملية هنا أن نراجع الوسيلة التي اخترناها نحن، قبل أن نصف الشخص بأنه عاجز عن الانتفاع بكل ما نقدمه.

وقد يقع العائق في طريقة التخاطب. نتوجه بالسؤال إلى المرافق، مع أن صاحب الشأن يستطيع الإجابة، أو تكمل كلامه قبل أن يتمه، أو ترفع صوتك دون حاجة، أو تتصرف في أداة يعتمد عليها من غير أن تسأله. ليس القرب من الشخص إذناً مفتوحاً بالتصرف عنه. أعطه وقت الكلام، واتفق معه على ما يريد من مساعدة. احترامه يظهر في التفاصيل العادية التي تبقيه حاضراً في القرار المتعلق به.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ^{١١١}

يرد هذا المعنى نظرنا عن موازين ظاهرية نتعجل بها تقدير الناس. لكنه لا يسوغ أن ننفي الفروق الواقعية في القدرة، أو أن ندعي معرفة ما في قلب أحد. كرامة الإنسان لا تحتاج إلى إنكار ما يشق عليه؛ تحتاج إلى أن نعترف به دون أن نخترله فيه، وأن نرى معه ما يحسنه وما يختاره.^{١١٢}

وقد يرغب الشخص في تجربة عمل مستقل، فنخاف عليه حتى نمنعه من كل تجربة. وقد نذهب إلى الطرف الآخر فنحملة مهمة لا تناسب قدرته لنثبت أننا لا نفرق بين الناس. كلا التصرفين يبدأ من صورتنا نحن. الأنفع أن نتضح المهمة، وما يلزمها، وما

١١١. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2564.

١١٢. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2564.

يستطيع صاحبها أداءه، وما يتاح من تهيئة أو مساندة. وتبقى معايير السلامة والأهلية قائمة في الأعمال التي تحتاجها، دون تحويل وصف الإعاقة وحده إلى جواب عن كل سؤال.

ثم هناك أمر لا يراه من يكتفي بالمواقف الاستثنائية: حق الإنسان في الحياة المعتادة. ليس مطلوباً منه أن يروي قصة ملهمة كلما حضر، أو أن يبرهن في كل لقاء أنه تغلب على الصعوبات. قد يريد أن يدرس أو يعمل أو يزور صديقاً ويعود، دون أن يصبح يومه مادة لدهشة الآخرين. امدح العمل الذي أحسنه بقدره، واترك له حق الخطأ والتعلم والاختيار الذي تتركه لسواه.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

إِنَّ اللَّهَ قَالَ إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبْرٌ عَوِضَتْهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةُ ۝۱۱۳

هذا باب رجاء ثابت، وليس للناس أن يجعلوه حجة لترك العون أو لتأنيب من وصف ما يتعبه. الوعد متعلق بما جاء في النص، ولا يمنحنا علماً بحال شخص معين عند الله. يستطيع القريب أن يجمع التذكير الرفيق بالرجاء مع إزالة عائق مقدور، وأن يعرف أن الاستماع لما يشق على صاحبه لا يناقض محبته للصبر.^{١١٤}

ومن صور المشاركة أن يعرف كل طرف ما ينتظره قبل الوصول. إذا كان المكان أو النشاط لا يلائم بعض الحاجات، إخفاء ذلك مجاملة مؤلمة؛ قد يقطع الإنسان مسافة ليكتشف أنه لا يستطيع الانتفاع بما دُعي إليه. البيان المبكر يتيح له الاختيار، ويتيح للمنظم البحث عن تعديل ممكن. أما المواصفات الفنية للأبنية والخدمات ووسائل الإتاحة فلها معاييرها وأهلها، ولا يكفي فيها شعار حسن المعاملة.

وإذا سألنا بعد العمل: هل انتفع؟ فلنكتف بما يستطيع وصفه وبما يظهر من التجربة، دون أن نجعلنا متحدثين دائمين باسمه. قد يقول إن تعديلاً صغيراً فتح له باباً، وقد يقول إن المقترح لم ينفعه. نستقبل الأمرين بوصفهما معرفة تساعدنا على تحسين العمل.

١١٤. صحيح البخاري، البخاري، حديث 5653.

فالمقصود أن يتسع له مجال المشاركة، وأن يبقى صاحب صوت في الطريق الذي يخصه؛ يعطي حين يستطيع، ويطلب العون حين يحتاج، ويعامل في الحاليتين بما يحفظ حقه.

الأجر الذي ينتظره صاحبه

قد يدخل العامل بيتك أو مؤسستك ليؤدي عملاً، ثم يخرج وقد حمل عنك تعباً وبقي يحمل هم أجره. ربما بدا المبلغ صغيراً في حساب من يدفعه، لكنه داخل في ترتيب يوم من ينتظره. ولهذا يبدأ النفع في علاقة العمل من معرفة الفرق بين حق تعاقد عليه الطرفان وفضل يختار أحدهما أن يزيده. لا تحل كلمة الشكر محل الأجر، ولا يحول وصف العامل بأنه قريب من الأسرة حقه إلى أمر مبهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يَعْطِهِ أَجْرَهُ ۝ ۱۱۵

يحفظ المؤمن لهذا الخبر ثقله، ويبدأ بمراجعة ما عليه. وليس المقصود أن نحاكم كل خلاف مني من جملة واحدة؛ المقصود ألا يضيع الأصل الواضح: من انتفع بعمل غيره لا يجعل حق العامل تابعا لمزاجه أو لرضاه عن نفسه.^{١١٦}

وقد ينشأ بعض الظلم من أمر قيل بلا بيان. تطلب مهمة محددة، ثم يزداد المطلوب أثناء العمل، ويظن كل طرف أن الآخر فهم المقابل كما فهمه هو. فإذا انتهى العمل ظهرت خصومة كان يمكن تقليل أسبابها من البداية. من الأمانة أن يكون المطلوب مفهوماً، وأن يبين التغير حين يقع، وأن يعرف الطرفان ما اتفقا عليه وما لم يتفقا عليه. أما صحة العقد وتقدير المستحق عند النزاع فتحتاج إلى أحكامها ووقائعها، لا إلى حدس أحد الطرفين.

وفي مثال اقتراضي، اتفق شخص مع عامل على إصلاح شيء معين، ثم طلب منه أعمالاً أخرى قبل أن ينصرف. يمكن أن يقول بوضوح: هذه مهمة إضافية، فما الذي يلزمها؟ ويمكن أن يسكت ثم يستقل ما يطلبه العامل بعد إنجازها. المثال لا يحدد أجرة ولا

١١٦. صحيح البخاري، البخاري، حديث 2270.

يفصل نزاعاً، إنه يبين كيف يسبق الوضوح كثيراً من الماراة. العامل لا يعرف دائماً ما يدور في ذهن من استدعاه، وصاحب العمل لا يعرف كل ما تتطلبه المهمة من وقت وجهد. ومن صور الخلل أن يختلط العطاء الاختياري بالحق الواجب. تقدم للعامل هدية في مناسبة، ثم تذكرها كلها سأل عن مستحقه، أو تساعد في أمر شخصي ثم تنتظر أن يبذل عملاً لم يتفق عليه. للهدية معناها، وللدين معناه، ولأجرة العمل معناها؛ والخلط بينها يجعل المعروف طريقاً إلى التبعية. إذا أردت التفضل، فليكن ما تفضل به واضحاً، ولا تستعمله لإسكات سؤال مشروع عن حق آخر.

وتظهر الأمانة أيضاً حين لا تكون أنت صاحب القرار الأخير. قد تتولى متابعة دفع أو إيصال مستند أو شرح سبب تأخر، فتظن أن حدود صلاحيتك تعفيك من كل عناية. لست مطالباً بوعد لا تملكه، لكن يمكنك أن تؤدي ما في عهدتك بصدق، وأن تبين ما تعرفه وما لم تعرفه، وألا تترك صاحب الطلب يكرر الطريق نفسه لأن أحداً لم ينقل المعلومة اللازمة. يبقى لكل دور حد، وقد يكون حفظ هذا الحد مع أداء ما داخله أنفع من وعود واسعة لا يتبعها شيء.

ولا تقاس منزلة العامل بقدرته على الرد عليك. من لا يحسن لغتك، أو يحتاج إلى هذا العمل بشدة، أو يخشى أن يفقد فرصة مقبلة، قد لا يعترض بالطريقة التي تنتظرها. فلا تجعل سكوته دليلاً كافياً على أن كل ما جرى كان واضحاً أو مرضياً. اسأل عن الفهم، واترك له مجال بيان ما أشكل، واستعن بوسيلة تواصل مناسبة حين يحتاج الأمر. هذا اقتراح في حسن المعاملة؛ أما أثر السكوت أو الرضا في عقد معين فله بحثه المختص.

ويحتاج التقدير الصادق إلى أن يكون متعلقاً بالعمل، لا بالتحكم في الإنسان. اشكر الإتيان، وبين الخطأ بقدر الحاجة، واحفظ للناس أسماءهم وخصوصياتهم. قد تضطر إلى رفض عمل غير مطابق لما اتفق عليه أو إلى إنهاء تعامل وفق حقك؛ وليس معنى العدل أن تمتنع عن كل نقد أو مطالبة. لكن القدرة على الاعتراض لا تجعل الإهانة لازمة، والاختلاف على مهمة لا يبيح الكلام في ما لا صلة له بها من أصل العامل أو مظهره أو حياته.

وللعامل أمانة فيما أخذ على نفسه أيضاً. أداء المهمة وصدق البيان وحفظ ما أوتمن عليه معان لا يسقطها احتياجه. ومع ذلك لا نستعمل هذا التذكير لنرد كل شكوى إلى صاحبها، ولا نجعل خطأ جزئياً حكماً مرتجلاً بزوال جميع حقوقه. يحدد ما وقع، وما

اتفق عليه، وما يملك كل طرف أن يطلبه، ويرجع عند الاشتباه إلى الجهة المؤهلة. الإنصاف يبدأ من الوقائع المحددة، لا من تقسيم الناس إلى فئة معصومة وفئة متهمة.

وفي العمل التطوعي يظل البيان مهماً. قد يرضى إنسان ببذل ساعات من وقته، ولا يرضى أن يحمل دوراً مفتوحاً بلا نهاية. وقد يقبل مهمة تطوعاً ثم يطلب منه عمل آخر له طبيعته ومقابله. لا يكفي أن يرفع النشاط اسم الخير كي تستباح طاقات المشاركين. وضخ طبيعة المشاركة، واستقبل الاعتذار عن الزائد، ولا تجعل الحرج الديني بديلاً عن اتفاق مفهوم.

هذه المعاني لا تضع نظام عمل لجميع البلدان. مواعيد الاستحقاق والإجازات والتعويضات والشكاوى والترخيص تتبع العقود والأحكام والأنظمة ذات الصلة، وتحتاج إلى معرفة حديثة في موضعها. الذي نحتاج إلى حمله معنا قبل الدخول في تلك التفاصيل هو أمانة النظر إلى من بذل وقته وجهده. قد يكون أقرب أبواب نفع الناس إليك حقاً لم تؤده بعد، وتصحيح اتفاق التبس، وكلمة اعتذار يتبعها فعل يعيد الأمر إلى موضعه.

الغريب الذي لا تنقصه النقود

قال السعدي في تفسير سورة النساء، الآية 36:

يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رقب عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة وذلا وإخلاصا له، في جميع العبادات الظاهرة والباطنة. وينهى عن الشرك به شيئا لا شركا أصغر ولا أكبر، لا ملكا ولا نبيا ولا وليا ولا غيرهم من المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، بل الواجب المتعين لإخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد. ثم بعد ما أمر بعبادته والقيام بحقه أمر بالقيام بحقوق العباد الأقرب فالأقرب. فقال: { وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا } أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم والخطاب اللطيف والفعل الجميل بطاعة أمرهما واجتناب نهيهما والإنفاق عليهما وإكرام من له تعلق بهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما. وللإحسان ضدان، الإساءة وعدم الإحسان. وكلاهما منهي عنه. { وَبِذِي الْقُرْبَىٰ } أيضا إحسانا، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحه بقوله أو فعله. { وَالْيَتَامَىٰ } أي: الذين فقدوا آباءهم وهم

صغار، فلهم حق على المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم بكفالتهم وبرهم وجبر خواطرهم وتأديهم، وتربيتهم أحسن تربية في مصالح دينهم ودنياهم. { وَالْمَسَاكِينِ } وهم الذين أسكتهم الحاجة والفقر، فلم يحصلوا على كفايتهم، ولا كفاية من يمنون، فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم، بسد خلتهم وبدفع فاقتهم، والحض على ذلك، والقيام بما يمكن منه. { وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى } أي: الجار القريب الذي له حقان حق الجوار وحق القرابة، فله علي جاره حق وإحسان راجع إلى العرف. { و } كذلك { الْجَارِ الْجَنِبِ } أي: الذي ليس له قرابة. وكلما كان الجار أقرب باباً كان أكد حقاً، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة والدعوة واللطفة بالأقوال والأفعال وعدم أذيته بقول أو فعل. { وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ } قيل: الرفيق في السفر، وقيل: الزوجة، وقيل: الصاحب مطلقاً، ولعله أولى، فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر ويشمل الزوجة. فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له؛ والوفاء معه في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد. { وَابْنِ السَّبِيلِ } وهو: الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتج، فله حق على المسلمين لشدة حاجته وكونه في غير وطنه بتبليغه إلى مقصوده أو بعض مقصوده [وبإكرامه

وتأنيسه] { وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } : أي: من الآدميين والبهائم بالقيام بكفائتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم. فمن قام بهذه المأمورات فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل، ومن لم يقم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله معجب بنفسه نخور بقوله، ولهذا قال: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا } أي: معجبا بنفسه متكبرا على الخلق { نَخُورًا } يثني على نفسه ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله، فهؤلاء ما بهم من الاختيال والفخر يمنعهم من القيام بالحقوق. ١١٧

قد يأتي الغريب إلى مكان وفي جيبه ما يكفيه، لكنه لا يعرف كيف يصل إلى ما يحتاجه. يقرأ الأسماء ولا يفهم دلالتها، ويملك السؤال ولا يعرف من يسأله، ويخشى أن يثقل على من حوله. وفي

تفسير السعدي للنساء 36 اتساع لمعنى الإحسان إلى ابن السبيل؛ ذكر الغريب في بلد الغربة، احتاج أو لم يحتج.^{١١٨} فلا ينبغي أن ننتظر أن يفقد ماله حتى نرى وجهها لنفعله.

والغربة هنا تذكرنا بأن المعرفة اليومية التي نعلها بسيطة قد تكون عند غيرنا عائقاً كبيراً. تعرف مدخل المبنى، وطريقة الموعد، والجهة التي تجيب عن سؤال، وما الذي تعنيه عبارة مختصرة في إعلان. هذه معرفة اكتسبتها بالترار، وقد تختصر على القادم وقتاً وحيرة. حين تدله، لا تستكثر الشرح لأنه واضح عندك؛ وضوحه لك ثمرة ألفتك، وليس دليلاً على تقصيره.

تصور طالباً قدم إلى مدينة جديدة، وهذه صورة اقتراضية. يسأل عن مكان محدد، فيجيبه أحدهم باسم حي لا يعرفه، ثم يعيد الاسم بصوت أعلى حين يراه متردداً. قد يكون العون في سؤال أقرب: هل تعرف كيف تصل إلى ذلك الحي؟ وربما احتاج إلى وصف مكتوب أو علامة ظاهرة أو جهة يمكنها تأكيد المعلومة. لا تتطلب المساعدة دائماً مرافقة طويلة؛ تتطلب أحياناً أن نتأكد من أن ما قلته يمكن استعماله.

١١٨. تفسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير النساء 36، فقرة ابن السبيل.

وقد يكون الغريب زميلاً جديداً، أو جاراً، أو قريباً عاد بعد غياب. لا يفسد احترامنا له اعترافه بأنه يجهل إجراء تعودناه. دع للسؤال مكاناً لا تصحبه سخرية، وفرق بين معلومة تعرفها وأخرى تظنها. إذا كان الأمر متعلقاً بحق أو موعد رسمي أو عقد، فالدلالة الأمانة تقوده إلى المصدر المختص بدل أن تمنحه ثقة لا أساس لها. الخطأ الذي يبدو يسيراً للعارف قد يكلف القادم رحلة أخرى أو فرصة لا يسهل تعويضها.

وفي المقابل، ليس كل من جاء من مكان آخر محتاجاً إلى أن ندير يومه. قد يعرف غرضه جيداً، ويحتاج جزءاً واحداً من المعلومة. اسأله عما يريد، ثم اترك له قدرته على الاختيار. وقد يكون أقدر منك في مجال آخر. من حسن الصحبة أن نجد له مكاناً يشارك فيه بما يعرف، وألا نحصر العلاقة في أننا نشرح وهو يتلقى.

وتحتاج المساعدة عبر اختلاف اللغة إلى صبر لا يتظاهر بالفهم. إذا لم تفهم الطلب، فقل ذلك بلطف، واستعمل وسيلة يتفق الطرفان عليها. وفي المسائل الحساسة لا تجعل ترجمة مرتجلة أساساً لقرار يمس صحة أو مالأ أو حقاً. يمكنك أن تعين على الوصول إلى ترجمة مؤهلة أو جهة تعرف كيف تتواصل مع صاحب الشأن. هذا حفظ لأمانة الوسيلة، لا اعتذار عن رؤية الحاجة.

ولا ينتقل حكم مالي لمجرد أننا سمينا الشخص غريباً أو مهاجراً. أهلية الزكاة، والإقامة، والعمل، والالتزامات الرسمية، مسائل لها شروطها في مواضعها. تظل الدلالة وحسن الاستقبال والقول الكريم أبواباً نستطيع النظر فيها دون أن ندعي الفصل في تلك الشروط. والنص الذي يفتح القلب للإحسان لا يغني عن المصدر الذي يبين الحكم التفصيلي إذا احتجنا إليه.

وقد تنقضي الغربة الظاهرة ويبقى شيء من أثرها: لا يزال الإنسان لا يعرف من يثق به في سؤال، أو يجد صعوبة في مشاركة ما عنده. لا يلزم أن نفتحم خصوصيته لنعينه. يكفي أن يعرف باباً واضحاً يستطيع أن يقصده، وصاحباً يجيب بصدق، ومساحة يعتذر فيها عن عرض لا يناسبه. وربما كان ما يبقى في ذاكرته بعد سنين أن أحداً جعل السؤال سهلاً في يوم كان كل شيء فيه جديداً.

حين تصل المساعدة إلى صاحبها

قد يكون المال حاضراً ولا يصل نفعه إلى من احتاج إليه. وقد يبذل الإنسان وقتاً طويلاً في عمل، ثم يبقى الأمر الذي أتعب صاحبه كما هو. لذلك يحسن أن نسأل قبل العطاء: ما الحاجة التي نريد تخفيفها؟ وهل يستطيع صاحبها الانتفاع بما سنقدمه؟ هذا السؤال الهادئ يقربنا من الإنسان الذي أمامنا، ويمنع أن نشتغل بصورة المساعدة عن أثرها.

في البيت نعرف أشياء كثيرة عن أهلنا، وقد تحملنا هذه المعرفة على اقتراض أننا نعرف حاجتهم كلها. نختار هدية، أو نعرض مالا، وربما كان المطلوب وقتاً نؤدي فيه مهمة، أو حضوراً نشارك به عبثاً. يشهد حديث خدمة الأهل لأصل هذا الباب، أما وظيفتنا هنا فهي أن نسأل عما ينفع القريب فعلاً، ثم نفي بما التزمناه؛ فالعمل الصغير الذي يمكن الاعتماد عليه قد يكون أنفع من وعد واسع لا يعرف صاحبه متى يتحقق. ١١٩

ولا يكفي السؤال إذا كان الجواب لن يؤثر في اختيارنا. قد بين لنا من نحب أن ما عرضناه لا يناسبه، فنشعر أن معروفنا رد. لتأن قبل أن نحمل كلامه على الجحود. من حقه أن يوضح حاجته، ومن حقنا أن نبين مقدار قدرتنا. وبين الأمرين مجال لاتفاق صادق: هذا ما تحتاج إليه، وهذا ما أقدر عليه الآن، وما بقي نبحث له عن طريق آخر. هذه طريقة عملية في التعاون، وليست صيغة واجبة تردد في كل موقف.

قال السعدي في تفسير سورة النساء، الآية 36:

يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة وذلا وإخلاصا له، في جميع العبادات الظاهرة والباطنة. وينهى عن الشرك به شيئا لا شركا أصغر ولا أكبر، لا ملكا ولا نبيا ولا وليا ولا غيرهم من المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، بل الواجب المتعين لإخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد. ثم بعد ما أمر بعبادته والقيام بحقه أمر بالقيام بحقوق العباد الأقرب فالأقرب. فقال: { وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا } أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم والخطاب اللطيف والفعل الجميل بطاعة أمرهما واجتناب نهيهما والإنفاق عليهما وإكرام من له تعلق بهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما.

وللإحسان ضدان، الإساءة وعدمُ الإحسان. وكلاهما منهي عنه. { وَيَذِي الْقُرْبَى } أيضا إحسانا، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله. { وَالْيَتَامَى } أي: الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، فلهم حق على المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم بكفالتهم وبرهم وجبر خواطرهم وتأديبهم، وتربيتهم أحسن تربية في مصالح دينهم ودنياهم. { وَالْمَسَاكِين } وهم الذين أسكتهم الحاجة والفقر، فلم يحصلوا على كفايتهم، ولا كفاية من يملكون، فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم، بسد خلتهم وبدفع فاقتهم، والحض على ذلك، والقيام بما يمكن منه. { وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى } أي: الجار القريب الذي له حقان حق الجوار وحق القرابة، فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف. { و } كذلك { الْجَارِ الْجَنَبِ } أي: الذي ليس له قرابة. وكلما كان الجار أقرب بابا كان أكد حقا، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال وعدم أذيته بقول أو فعل. { وَالصَّاحِبِ بِالْجَنَبِ } قيل: الرفيق في السفر، وقيل: الزوجة، وقيل: الصاحب مطلقا، ولعله أولى، فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر ويشمل الزوجة. فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له؛ والوفاء معه في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن يحب له

ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد. { وَابْنَ السَّبِيلِ } وهو: الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتاج، فله حق على المسلمين لشدة حاجته وكونه في غير وطنه بتبليغه إلى مقصوده أو بعض مقصوده [وبإكرامه وتأنيسه] { وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } : أي: من الآدميين والبهائم بالقيام بكفائتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم. فمن قام بهذه المأمورات فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل، ومن لم يقم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله معجب بنفسه نخور بقوله، ولهذا قال: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا } أي: معجبا بنفسه متكبرا على الخلق { نَخُورًا } يثني على نفسه ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله، فهؤلاء ما بهم من الاختيال والفخر يمنعهم من القيام بالحقوق. ١٢٠

وتختلف صورة العون باختلاف صاحبها: قريب تعرف بعض ظروفه، أو جار تعرض عليه ما يناسبه، أو غريب يحتاج دلالة ولا يحتاج مألًا. وقد وسع السعدي الإحسان إلى ابن السبيل في تفسير النساء 36؛ فلا نختصره في الاستحقاق المالي. ١٢١

١٢١. تفسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير النساء 36، فقرة ابن السبيل.

وإذا لم يناسب عرضنا صاحبه، صححنا العرض على ضوء جوابه.
لا نكرر ما رفضه لمجرد أنه الشيء الذي أحببنا تقديمه.

قال السعدي في تفسير سورة البقرة، الآية 220:

لما نزل قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا } شق ذلك على المسلمين، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى، خوفا على أنفسهم من تناولها، ولو في هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فأخبرهم تعالى أن المقصود، إصلاح أموال اليتامى، بحفظها وصيانتها، والاتجار فيها وأن خلطتهم إياهم في طعام أو غيره جائز على وجه لا يضر باليتامى، لأنهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع في ذلك إلى النية والعمل، فمن علم الله من نيته أنه مصلح لليتيم، وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء من غير قصد لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته، أن قصده بالمخالطة، التوصل إلى أكلها وتناولها، فذلك الذي حرج وأثم، و " الوسائل لها أحكام المقاصد " وفي هذه الآية، دليل على جواز أنواع المخالطات، في المآكل والمشارب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة، لطف من الله [تعالى] وإحسان، وتوسعة على المؤمنين، وإلا ف { لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبَكُمْ } أي: شق عليكم بعدم الرخصة بذلك، فحرجتم. وشق عليكم وأثمتم، { إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ } أي: له القوة الكاملة، والقهر لكل

شيء، ولكنه مع ذلك { حَكِيمٌ } لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة، فعزته لا تنافي حكمته، فلا يقال: إنه ما شاء فعل، وافق الحكمة أو خالفها، بل يقال: إن أفعاله وكذلك أحكامه، تابعة لحكمته، فلا يخلق شيئاً عبثاً، بل لا بد له من حكمة، عرفناها، أم لم نعرفها وكذلك لم يشرع لعباده شيئاً مجرداً عن الحكمة، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة، أو راحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راحة، لتتام حكمته ورحمته. ١٢٢

وعند رعاية اليتيم، لا تكون راحة القائم على المال وحدها معياراً للتصرف. يرد تفسير السعدي للبقرة 220 المخالطة إلى الإصلاح وعدم الضرر؛ وتبقى تفاصيل التصرف المالي لأهلها. ١٢٣

وقد تكون الخدمة متاحة في ظاهرها، ثم يعجز صاحب الحاجة عن الانتفاع بها: لبعد المكان، أو صعوبة الوصول، أو غموض المطلوب منه. سؤال واحد عن العائق قد يغير وجه المساعدة. وحين نفهمه، نستطيع اختيار وسيلة تناسبه، بدل أن نزيد العطاء مع بقاء ما يحجبه عنه.

١٢٢. تفسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة البقرة، الآية 220.

١٢٣. تفسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير البقرة 220.

ومن الملاءمة ألا نستبدل حق المعسر في الإنظار بعطاء آخر نختاره له. تقدم الفرق بين الإمهال وإسقاط الدين؛ والمطلوب هنا أن نعرف أيهما احتاج إليه الشخص، مع الرجوع إلى المختص في إثبات الإعسار والنزاع.^{١٢٤}

١٢٤. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير البقرة 280.

قال السعدي في تفسير سورة المائدة، الآية 8:

أي { يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } بما أُمِرُوا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم، بأن تكونوا { قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ } بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة والباطنة. وأن يكون ذلك القيام لله وحده، لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط، الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط، في أقوالكم ولا أفعالكم، وقوموا بذلك على القريب والبعيد، والصدق والعدو. { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ } أي: لا يحملنكم بغض { قَوْمٍ عَلَىٰ } لَا تَعْدِلُوا { كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، ولو كان كافرا أو مبتدعا، فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق، لأنه حق لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق. { اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ } أي: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى. { إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } فبجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاء عاجلا، وآجلا. ١٢٥

١٢٥. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة المائدة، الآية 8.

وفي حاجة المظلوم قد يكون أول ما نقدمه إصغاء يحفظ كرامته، ثم عوناً على الوصول إلى من يستطيع رفع الضرر. الإصغاء لا يوجب أن ننشر كل ما سمعنا، والمواساة لا تجعلنا عالمين بجميع أطراف الواقعة. يقرر السعدي في تفسير المائدة 8 أن العدل يكون مع القريب والبعيد، والصديق والعدو. ومن أثر ذلك أن نتحرى الصدق حين ننصر من نحب، وألا نضيف إلى وجعه خصومة أشعلناها بخبر لم نتثبت منه. ١٢٦

ولا يسقط العدل لاختلاف الدين. تقدم معنى البر والقسط في تفسير الممتحنة 8؛ نستصحبه عند اختيار وسيلة العون، دون خلطه بأحكام مالية أو علاقات لها شروط أخرى. ١٢٧

وفي عون الحيوان، يبقى سؤال الوسيلة الآمنة حاضراً كما تقدم في خبر سقي الكلب. ما نقدر على تقديمه لا يكون ملائماً بمجرد رغبتنا فيه. ١٢٨

١٢٦. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير المائدة 8.

١٢٧. جامع البيان، الطبري، تفسير الممتحنة 8، موضع ترجيحه بعد عرض الأقوال.

١٢٨. صحيح البخاري، البخاري، حديث 2363.

ثم يبقى سؤال بعد كل عون: هل وصل ما بذلناه، وهل بقي شيء نستطيع إتمامه؟ نسأل بقدر الحاجة، لا لنستخرج شكراً ولا لنراقب من أعنّاه. وقد يكون تمام المعروف أن نصل ما انقطع، أو نصحح خطأ في ترتيب، أو نبين بصدق أن قدرتنا انتهت. لا نملك حاجات الناس كلها، لكننا نستطيع أن تؤدي ما حملناه من حق بعناية، وأن نترك لصاحب الحاجة كرامته حين نقرب منه وحين ننصرف.

حين تكون أنت صاحب الحاجة

قد يعتاد الإنسان أن يكون صاحب اليد التي تعطي، ثم يمر به وقت يحتاج فيه إلى من يحمله. يتعطل عمله، أو تضيق قدرته، أو تتجمع عليه أمور لا يستطيع ترتيبها وحده. ويشق عليه أن يصف ما يحتاج، خصوصاً إذا خاف أن تختصره أعين الناس في هذه الحال. لكن حاجته الحاضرة لا تحكي حياته كلها؛ فما يزال له رأي وخبرة وعلاقات وحقوق لا يختزلها باب طرده طلباً للعون.

والحديث الذي يفتح للمسلم باب عون أخيه يذكرنا بعلاقة تبادل فيها الأحوال؛ فالذي يعين اليوم قد يحتاج غداً. لا نستخرج من ذلك حكم كل صورة من السؤال أو الاستحقاق، فلها تفصيلها، لكننا نتعلم ألا نصنع طبقة ثابتة من المحسنين وطبقة أخرى لا دور لها إلا تلقي المعروف. في الحياة مساحات يعين فيها الإنسان ويعان، وتبقى الكرامة في الحالتين. ١٢٩

إذا احتجت إلى مساعدة، فحاول أن تصف المطلوب بقدر ما تعرفه. يمكنك أن تميز بين ما تحتاجه الآن وما تستطيع تأجيله، وبين مال تطلبه ومعلومة أو مهمة يكفي أن يعينك أحد عليها. لا يلزم أن تملك خطة كاملة قبل أن تتكلم، ولا أن تعرض تفاصيل حياتك كلها حتى يصبح طلبك مفهوماً. وقد تستطيع أن تقول إنك لا تعرف الحل، لكنك تعرف العائق الذي أوقفك؛ وهذا بيان يمكن أن يبدأ منه تعاون مفيد.

وحين يعرض عليك إنسان عوناً لا يناسبك، فالتقدير لا يوجب إخفاء المشكلة. تستطيع أن تشكره وتوضح ما يمنع الانتفاع بالعرض، وأن تسأله عما يمكن تعديله. إذا كان موعد التوصيل غير مناسب،

أو كانت الوسيلة لا تلائم قدرتك، فإن السكوت قد يضيع جهده ويقتي حاجتك. والوضوح لا يحتاج إلى قسوة: اذكر الأمر المحدد الذي ينبغي تغييره، واترك مجالاً لمعرفة قدرته أيضاً.

قال الله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

قال السعدي في تفسير الآية:

{ قول معروف } أي: تعرفه القلوب ولا تنكره، ويدخل في ذلك كل قول كريم فيه إدخال السرور على قلب المسلم، ويدخل فيه رد السائل بالقول الجميل والدعاء له { ومغفرة } لمن أساء إليك بترك مؤاخذته والعفو عنه، ويدخل فيه العفو عما يصدر من السائل مما لا ينبغي، فالقول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي يتبعها أذى، لأن القول المعروف إحسان قولي، والمغفرة إحسان أيضاً بترك المؤاخذة، وكلاهما إحسان ما فيه مفسد، فهما أفضل من الإحسان بالصدقة التي يتبعها أذى بمن أو غيره، ومفهوم الآية أن الصدقة التي لا يتبعها أذى أفضل من القول المعروف والمغفرة، وإنما كان المن بالصدقة مفسداً لها محرماً، لأن المنّة لله تعالى وحده، والإحسان كله لله، فالعبد لا يمين بنعمة الله وإحسانه وفضله وهو ليس منه، وأيضاً فإن المان مستعبد لمن يمين عليه، والذل والاستعباد لا ينبغي إلا لله، والله غني بذاته

عن جميع مخلوقاته، وكلها مفتقرة إليه بالذات في جميع الحالات والأوقات، فصدقتم وإنفاقكم وطاعاتكم يعود مصلحتها إليكم ونفعها إليكم، { والله غني عنها، ومع هذا فهو { حلیم } على من عصاه لا يعاجله بعقوبة مع قدرته عليه، ولكن رحمته وإحسانه وحلمه يمنعه من معاجلته للعاصين، بل يمهّلهم ويصرف لهم الآيات لعلهم يرجعون إليه وينيبون إليه، فإذا علم تعالى أنه لا خير فيهم ولا تغني عنهم الآيات ولا تفيد بهم المثالات أنزل بهم عقابه وحرّمهم جزيل ثوابه. ١٣٠

ولمن يقدم العون نصيب أكبر من مسؤولية إتاحة هذا الكلام. لا تسأل عن رأي المستفيد بطريقة توحى بأن الجواب المقبول هو المديح. أخبره بما يستطيع طلب تعديله، وبما لا تملكه، ثم استمع إلى الأثر الذي يصفه. وربما اختلف وصفه عما توقعته؛ ليس هذا وحده جحوداً ولا دليلاً على فشل كل ما فعلت. إنه معلومة عن موضع يحتاج إلى فهم. وفي معنى القول المعروف الذي ذكره السعدي عند البقرة 263 سعة للسؤال والجواب الحسنيين، مع حفظ فضل العطاء الخالي من الأذى. ١٣١

١٣١. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير البقرة 263، شرح القول المعروف والمغفرة والمقارنة بالصدقة المتبوعة بالأذى.

ومن المفيد، في التعاون الذي يحتاج إلى متابعة، أن يتفق الطرفان على طريقة بسيطة للتواصل. متى يعرف صاحب الحاجة أن الطلب قبل؟ ومن يجب إن تأخر؟ وما الجزء الذي لم يلتزم به أصلاً؟ هذا اقتراح تنظيمي؛ فلا ينبغي أن تتحول المساعدة الصغيرة إلى معاملة مرهقة. الغرض أن تقل المساحة التي يملؤها الانتظار والتخمين، وأن يعرف كل طرف متى يحتاج إلى السؤال.

وقد تنتهي الحاجة وتبقى بين الناس مودة، وقد ينتهي التعاون دون علاقة قريبة. لا يلزم أن يمتلك المعين وقت من أعانه بعد ذلك، ولا أن يستعيد المستفيد تفاصيل حاجته كلها اجتماعاً. الشكر مكانه التقدير، لا تسليم القرار في كل أمر. وإذا نشأ خلاف لاحق، بقيت له أسبابه الحاضرة؛ لا يصح أن يصير المعروف القديم جواباً عن كل اعتراض جديد.

هذه المعاني تريح من يعطي ومن يأخذ معاً. فالمعين لا يحمل مسؤولية صناعة حياة يختارها بدلاً عن صاحبها، وصاحب الحاجة لا يشعر أنه اشترى العون بالتنازل عن صوته. يلتقيان على أمر واضح، ثم يبذل كل واحد ما يستطيع فيه. وقد يكون من أجل ما يبقى بعد انقضاء الحاجة أن يتعلم الإنسان كيف يعين غيره بالطريقة التي حفظت كرامته يوم احتاج.

القسم الرابع – طرائق النفع ووسائله

كلام يفتح باباً للخير

قال الله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

تبدأ الآية من موضع نهدر فيه كثيراً من أعمارنا: الكلام الذي يدور بين الناس. ليس كل حديث شراً، ولكن كثيراً منه يمر بلا ثمرة، وقد ينقلب إلى غيبة أو خصومة أو تديير يضر. ثم تفتح الآية في هذا الزحام ثلاثة أبواب واضحة: صدقة تسد حاجة، ومعروف يجمع أبواب البر، وإصلاح يرد القلوب والحقوق إلى موضع أقرب إلى العدل والألفة.

وهذا يغير سؤال المجلس. بدل أن يكون السؤال: ماذا قيل؟ يصير: إلى أي خير دل كلامنا؟ هل خرج منه جائع بطعام، أو جاهل بعلم، أو متخاصمان بطريق إلى الصلح؟ وهل حفظنا أعراض الغائبين، أم زدنا في الخفاء ما لا نرضى أن يقال في حضورنا؟ قال الطبري في تفسير الآية:

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "لا خير في كثير من نجواهم"، لا خير في كثير من نجوى الناس جميعاً "إلا من أمر بصدقة أو معروف"، و"المعروف"، هو كل ما أمر الله به

أو ندب إليه من أعمال البر والخير، = ”أو إصلاح بين الناس“، وهو الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين، بما أباح الله الإصلاح بينهما، ليتراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة، على ما أذن الله وأمر به.

= ثم أخبر جل ثناؤه بما وعد من فعل ذلك فقال: ”ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً“، يقول: ومن يأمر بصدقة أو معروف من الأمر، أو يصلح بين الناس = ”ابتغاء مرضاة الله“، يعني: طلب رضى الله بفعله ذلك = ”فسوف نؤتيه أجراً عظيماً“، يقول: فسوف نعطيه جزاءً لما فعل من ذلك عظيماً، ولا حدّ لمبلغ ما سمي الله ”عظيماً“ يعلمه سواه. ١٣٢

قد يجتمع الناس على تسوية يسمونها صلحاً، لكنها تحمل الضعيف على ترك حقه خوفاً، أو تستر ظلم القوي، أو تحفظ صورة الأسرة وتترك جرح المظلوم مفتوحاً. هذا ليس هو الإصلاح الذي يمدحه الوحي.

ثم تأتي خاتمة الآية فتفصل بين صورتين قد تتشابهان أمام الناس. قد يقول رجل كلمة صلح يريد بها أن يذكر بالحكمة، ويقولها آخر يريد أن يطفى الفتنة لوجه الله. وقد يعطي اثنان المال نفسه، لكن

أحدهما ينتظر أن تتحول حاجة الفقير إلى ولاء دائم له. العمل الظاهر مهم؛ فالناس ينتفعون به، لكن الأجر العظيم الذي وعدت به الآية مرتبط بابتغاء مرضاة الله.

ليس معنى هذا أن الشاكريسيء حين يشكر، ولا أن المحسن يرفض الثناء بخشونة. المعنى أن قلبه لا يجعل الشكر ثمناً للعمل، ولا يوقف الخير إذا جحده من أحسن إليه. هو يفرح بالكلمة الطيبة لأنها من حسن الخلق، ثم يرد قلبه إلى الأصل: فعلت ما استطعت ابتغاء وجه الله.

حين يكون المبدول محبوباً

قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾
﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾
[الإنسان: ٨-٩].

قال الطبري في تفسير الآية:

وقوله: (وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا) يقول تعالى ذكره: كان هؤلاء الأبرار يطعمون الطعام على حُبِّهم إياه، وشهوتهم له.

١٣٣

قال ابن كثير في تفسير الآية:

وقوله: (وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ) قيل: على حب الله تعالى. وجعلوا الضمير عائداً إلى الله عز وجل لدلالة السياق عليه. والأظهر أن الضمير عائد على الطعام، أي: ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد ومقاتل، واختاره ابن جرير، كقوله تعالى: (وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ) [البقرة: 177]، وكقوله تعالى: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ) [آل عمران: 92]. ١٣٤

من السهل أحياناً أن نعطي ما لم نعد نريده؛ أما البذل الذي يمس موضع المحبة فيكشف للقلب مقدار صدقه ومقدار ما بقي فيه من تعلق.

١٣٣. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة الإنسان، الآية 8.

١٣٤. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تفسير سورة الإنسان، الآية 8.

قال الطبري في تفسير الآية:

وقوله: (مسكيناً) يعني جلّ ثناؤه بقوله مسكيناً: ذوي الحاجة الذين قد أذلّتهم الحاجة، (ويَتِيماً) وهو الطفل الذي قد مات أبوه ولا شيء له (وأسيراً) : وهو الحربيّ من أهل دار الحرب يؤخذ قهراً بالغلبة، أو من أهل القبلة يؤخذ فيحبس بحق، فأثنى الله على هؤلاء الأبرار بإطعامهم هؤلاء تقرّباً بذلك إلى الله وطلب رضاه، ورحمة منهم لهم. ١٣٥

قال الطبري في تفسير الآية:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله وصف هؤلاء الأبرار بأنهم كانوا في الدنيا يطعمون الأسير، والأسير الذي قد وصفت صفته؛ واسم الأسير قد يشتمل على الفريقين، وقد عمّ الخبر عنهم أنهم يطعمونهم فالخبر على عمومته حتى يخصه ما يجب التسليم له. وأما قول من قال: لم يكن لهم أسير يومئذ إلا أهل الشرك، فإن ذلك وإن كان كذلك، فلم يخص بالخبر الموفون بالنذر يومئذ، وإنما هو خبر من الله عن كلّ من كانت هذه صفته يومئذ وبعده إلى يوم القيامة، وكذلك الأسير معنيّ به أسير المشركين والمسلمين يومئذ، وبعد ذلك إلى قيام الساعة. ١٣٦

١٣٥. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة الإنسان، الآية 8.

١٣٦. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة الإنسان، الآية 8.

ثم جمعت الآية ثلاثة محتاجين لا تتساوى علاقتهم بالمعطي: مسكيناً اشتدت حاجته، ويتيماً فقد أباه، وأسيراً صار في يد غيره. وقرر الطبري أن اسم الأسير يعم المسلم وغير المسلم ما لم يأت مخصص. كان أسرى المسلمين يومئذ من المشركين، ومع ذلك ذكرهم القرآن في مقام مدح الإطعام. إنسانية المحتاج لا تسقط لأن بينك وبينه اختلافاً، والقدرة عليه لا تبيح تجويعه أو إذلاله.

قال الطبري في تفسير الآية:

وقد حدثنا أبو كريب، قال: ثنا وكيع، عن سفيان، عن سالم، عن مجاهد (إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) قال: أما إنهم ما تكلموا به، ولكن علمه الله من قلوبهم، فأثنى به عليهم ليرغب في ذلك راغب.

حدثنا محمد بن سنان القزاز، قال: ثنا موسى بن إسماعيل، قال: ثنا محمد بن مسلم بن أبي الوضاح، عن سالم، عن سعيد بن جبير (إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهَ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) قال: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علمه الله من قلوبهم، فأثنى عليهم ليرغب في ذلك راغب. ١٣٧

لكن الآية لا تقف عند وصول الطعام إلى اليد. تقول: ﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهَ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]. ونقل الطبري عن مجاهد وسعيد بن جبير أنهم لم يلزم أن يكونوا قد قالوا هذه الجملة بألسنتهم؛ علم الله ما في قلوبهم فأثنى عليهم. هذا أدق من تحويل الإخلاص إلى شعار يعلقه المرء على كل عطاء. قد يكون الصمت أصدق، ويكون ستر العمل أحفظ للقلب ولوجه المحتاج.

قال السعدي في تفسير الآية:

ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: {إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهَ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} أي: لا جزاء مالياً ولا ثناء قولياً. ١٣٨

١٣٧. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة الإنسان، الآية ٩.

١٣٨. تفسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة الإنسان، الآية ٩.

كم من مساعدة بدت هبة ثم تحولت مع الأيام إلى قيد: تذكير متكرر، وطلب خدمة، وغضب إذا لم يمدح المحتاج صاحبه. القرآن يقطع هذا الحبل من القلب قبل أن يجرح وجه الفقير.

ولا يعني بذل المحبوب أن يضيع الإنسان من تجب عليه نفقتهم.
القرآن يربي على الجود، ويظل للقريب حق لا يسقط بعتاء البعيد.

١٣٩

١٣٩. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تفسير سورة الإنسان، الآية 9؛ نوادر
الأصول، الحكيم الترمذي، كما نقله القرطبي.

حين تعطي مما تحب

قال الله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

قال السعدي في تفسير الآية:

هذا حث من الله لعباده على الإنفاق في طرق الخيرات، فقال { لن تنالوا } أي: تدركوا وتبلغوا البر الذي هو كل خير من أنواع الطاعات وأنواع المثوبات الموصل لصاحبه إلى الجنة، { حتى تنفقوا مما تحبون } أي: من أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإنكم إذا قدمتم محبة الله على محبة الأموال فبذلتموها في مرضاته، دل ذلك على إيمانكم الصادق وبر قلوبكم ويقين تقواكم، فيدخل في ذلك إنفاق نفائس الأموال، والإنفاق في حال حاجة المنفق إلى ما أنفقه، والإنفاق في حال الصحة، ودلت الآية أن العبد بحسب إنفاقه للمحوبات يكون بره، وأنه ينقص من بره بحسب ما نقص من ذلك، ولما كان الإنفاق على أي: وجه كان مثابا عليه العبد، سواء كان قليلا أو كثيرا، محبوبا للنفس أم لا، وكان قوله { لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون } مما يوهم أن

إنفاق غير هذا المقيد غير نافع، احترز تعالى عن هذا الوهم بقوله { وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم } فلا يضيق عليكم، بل يثيبكم عليه على حسب نياتكم ونفعه. ١٤٠

ليس المطلوب أن يكره الإنسان المال حتى يجود. وجود المحبة هو الذي يجعل البذل عبادة مجاهدة. يخرج الشيء النفيس من يده، فيشهد قلبه أن محبة الله مقدمة على محبة ما يملك. وفسر السعدي الآية بهذا المعنى، ثم نبه إلى خاتمها: لا يضيع عند الله ما ينفق العبد من قليل أو كثير، محبوب أو دونه؛ الجزاء على قدر النية والنفع.

عن أنس رضي الله عنه، قال:

لَمَّا نَزَلَتْ {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} جَاءَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} وَإِنْ أَحَبُّ أَمْوَالِي إِلَى بَيْرِجَاءٍ - قَالَ وَكَانَتْ حَدِيقَةً كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْخُلُهَا وَيَسْتَظِلُّ بِهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا - فَهِيَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْجُو بِهِ وَذَخَرَهُ، فَضَعَهَا أَيُّ رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "بِحْ يَا أَبَا طَلْحَةَ، ذَلِكَ مَالٌ رَاجِحٌ، قَبْلَنَاهُ

مَنْكَ وَرَدَدْنَاهُ عَلَيْكَ، فَاجْعَلُهُ فِي الْأَقْرَبِينَ". فَتَصَدَّقَ بِهِ أَبُو طَلْحَةَ عَلَى ذَوِي رَحِمِهِ، قَالَ وَكَانَ مِنْهُمْ أَبِي وَحَسَّانُ، قَالَ وَبَاعَ حَسَّانُ حَصَّتَهُ مِنْهُ مِنْ مُعَاوِيَةَ، فَقِيلَ لَهُ تَبِيعَ صَدَقَةَ أَبِي طَلْحَةَ فَقَالَ أَلَا أُبِيعُ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ بِصَاعٍ مِنْ دَرَاهِمٍ قَالَ وَكَانَتْ تِلْكَ الْحَدِيقَةُ فِي مَوْضِعٍ قَصْرِ بَنِي حَدِيلَةَ الَّذِي بَنَاهُ مُعَاوِيَةُ. ١٤١

في هذا التطبيق ثلاثة دروس. أولها سرعة استجابة القلب حين يفهم مراد الله. وثانيها أن البذل من المحبوب لا يعني إفساد المال أو إلقاءه بلا بصيرة؛ استشار أبو طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم في موضعه. وثالثها أن الأقربين قد يجتمع لهم حق الحاجة وحق الرحم، فيكون النفع أعمق وأبقى.

وقول الآية ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] يبقِي ميزان الحقوق قائماً؛ فالجود يهذب محبة المال، ولا يسقط ديناً حلالاً أو نفقة واجبة.

العقبة التي لا تعبر بالكلام

قال الله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿يَكُونُ﴾ فَكٌ رَقَبَةً ﴿يَكُونُ﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿يَكُونُ﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿يَكُونُ﴾ أَوْ مُسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿يَكُونُ﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿[البلد: ١١-١٧]﴾.

للعقبة رهبة الاسم ومشقة الصعود. لم يجعل القرآن عبورها أمنية، بل أعمالاً تكلف النفس: أن تحرر إنساناً، أو تطعم حين يعظم الجوع ويقل الطعام، وأن تبحث في وقت المجاعة عمن اجتمع عليه اليم والقراة أو أذلت الحاجة حتى لزق بالتراب.

قال الطبري في تفسير الآية:

وقوله: (أَوْ أَطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)

يقول: أَوْ أَطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَجَاعَةٍ، والساغب: الجائع. ١٤٢

قال السعدي في تفسير الآية:

{ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ } أي: جامعاً بين كونه يتيمًا، فقيراً ذَا قَرَابَةٍ.

١٤٣

١٤٢. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة البلد، الآية 14.

١٤٣. تفسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة البلد، الآية 15.

ليست الأولوية إذن عاطفة عابرة؛ إنها قراءة لأسباب الضعف المتراكبة. فقد يكون أمامك محتاجان، وأحدهما أشد عجزاً، أو أقرب رحماً، أو أضيق سبيلاً إلى من يعينه. من فقه النفع أن ترى الفروق، لا أن تسوي بين الحاجات لتريح قرارك.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧] حاجز يحفظ معنى الكتاب كله. لا تتحول الرحمة إلى دين مستقل عن رب العالمين، ولا يصير العمل الاجتماعي بديلاً عن الإيمان. وهي في الوقت نفسه ليست فضلة تجميلية في حياة المؤمن؛ فقد جعلها الله من اقتحام العقبة، ثم قرنها بالتواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة.

والتواصي يزيد على أن يرحم المرء وحده. هو أن يبني في محيطه ذاكرة للرحمة: يذكر القادر، ويدل على المحتاج، ويحمي العاملين من الفتور، ويصبر معهم على طول الطريق. قد تشعب وجبة إنساناً يوماً، أما مجتمع يتواصى بالمرحمة فيتعلم كيف يبحث عن الجائع قبل أن يطرق الباب.

حين يصير الجاه يداً ثانية

قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥].

ليس كل إنسان قادراً على قضاء الحاجة بماله أو بيده، لكنه قد يعرف الباب الذي يطرقة المحتاج، أو الشخص الذي يسمعه، أو الجهة التي تستطيع رفع الظلم عنه. هنا يصير الجاه يداً ثانية؛ لا تأخذ الشيء بنفسها، لكنها تقرب صاحب الحق منه.

قال القرطبي في تفسير الآية:

الأولى : قوله تعالى : من يشفع أصل الشفاعة والشفعة ونحوها من الشفع وهو الزوج في العدد ؛ ومنه الشفيع ؛ لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعا . ومنه ناقة شفوع إذا جمعت بين محلبين في حلبة واحدة . وناقة شفيع إذا اجتمع لها حمل وولد يتبعها . والشفع ضم واحد إلى واحد . والشفعة ضم ملك الشريك إلى ملكك ؛ فالشفاعة إذا ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك ، فهي على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع وإيصال المنفعة إلى المشفوع له . ١٤٤

١٤٤. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تفسير سورة النساء، الآية 85.

قال السعدي في تفسير الآية:

المراد بالشفاعة هنا: المعاونة على أمر من الأمور، فمن شفع غيره وقام معه على أمر من أمور الخير -ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم- كان له نصيب من شفاعته بحسب سعيه وعمله ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل والمباشر شيء، ومن عاون غيره على أمر من الشر كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه. ففي هذا الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى، والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان، وقرر ذلك بقوله: { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا } أي: شاهداً حفيظاً حسيباً على هذه الأعمال، فيجازي كلا ما يستحقه. ١٤٥

غير أن الآية لم تمدح الشفاعة بإطلاق؛ قسمتها من أولها إلى حسنة وسيئة. فالواسطة ليست بريئة لمجرد أنها وقوف مع قريب أو صديق، وصاحب المكانة ليس ناقل رسالة لا تبعة عليه. له نصيب من الخير الذي فتح بابه، وعليه كفل من الشر الذي أعان عليه.

قبل أن تحمل حاجة إنسان باسمك، اسأله حتى تفهمها، وثبت مما تستطيع إثباته، وتنظر إلى أصحاب الحقوق الذين لا يجلسون في المجلس. قد يكون طالب الوساطة صادقاً مظلوماً، وقد يكون يريد

تجاوز من سبقه، أو إسقاط شرط عادل، أو حملك على تزكية ما لا تعرف. الشفاعة الحسنة لا تختصر الطريق على حساب الحق؛ إنها تساعد الحق على أن يجد طريقه.

ومن أجمل صورها أن تفسر لمن لا يحسن البيان، وأن تدل التائه على الجهة الصحيحة، وأن ترفع صوت من لا يسمعه أحد، دون أن تزعم لنفسك علماً لم تحصل عليه. ليست القيمة في أن تقول: «أنا أعرف فلاناً»، بل في أن تجعل ما عرفت من الناس باباً لمعروف يحبه الله.

إصلاح لا يساوي بين الظالم والمظلوم

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ثم قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

الإصلاح من أجل صور النفع؛ فقد يوقف دماً، ويحفظ بيتاً، ويرد مالاً، ويمنع خصومة من أن تورث للأبناء. لكنه يفسد حين يصبح هدفه إسكات الصوت الأضعف حتى يعود الهدوء إلى المجلس. الآية لا تطلب توقف القتال بأي صورة، بل ترتب طريقاً: إصلاح أولاً، ثم مواجهة البغي إذا ظهر، ثم إصلاح جديد بالعدل إذا رجع الباغي.

قال السعدي في تفسير الآية:

هذا متضمن لنهي المؤمنين، [عن] أن يبغي بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضاً، وأنه إذا اقتتل طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير، بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، فإن صلحتا، فبها ونعمت، وإن {بغَتْ

إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ {
 أي: ترجع إلى ما حد الله ورسوله، من فعل الخير وترك الشر،
 الذي من أعظمه، الاقتتال، [وقوله] { فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا
 بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ } هذا أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح، فإن
 الصلح، قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيث
 على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن
 لا يراعى أحدهما، لقراءة، أو وطن، أو غير ذلك من المقاصد
 والأغراض، التي توجب العدول عن العدل، { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُقْسِطِينَ } أي: العادلين في حكمهم بين الناس وفي جميع
 الولايات، التي تولوها، حتى إنه، قد يدخل في ذلك عدل الرجل
 في أهله، وعياله، في أدائه حقوقهم، وفي الحديث الصحيح:
 “المقسطون عند الله، على منابر من نور الذين يعدلون في حكمهم
 وأهليهم، وما ولوا” ١٤٦

فليس كل توقيع نهاية للنزاع، ولا كل اعتذار يعيد الحق، ولا كل
 تنازل يصدر عن رضا. وقد يكون قول المصلح للطرفين: «كلاكما
 أخطأ» ظلماً جديداً إذا كان أحدهما معتدياً والآخر يدفع عن
 نفسه.

وفي الوقت نفسه لا تبيح الآية للمصلح أن ينتقل من ردع البغي إلى الانتقام. قالت: ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [المحجرات: ٩]، فإذا رجعت عاد الأمر إلى الصلح بالعدل. المقصود وقف العدوان ورد الحق، لا كسر الخصم وإدامة إذلاله.

وهذه الآية في قتال طائفتين، ولأحكامها باب فقهي وولاية شرعية. لا يجوز لفرد أن يستعير منها سلطة العنف في نزاع عائلي أو وظيفي، ولا أن يسمي كل خلاف بغياً. لكن ميزانها الأخلاقي واضح في كل وساطة مشروعة: افهم الوقائع، لا تحاب، احم الضعيف، أوقف الضرر بالطريق المأذون، ثم ابن صلحاً يعيد الحقوق ولا يخلد العداوة.

والأخوة الإيمانية ليست عذراً لطمس المحاسبة. بل لأنها أخوة وجب ألا يظلم أحد أخاه أو يخذله، ووجب أن يعان الظالم على الخروج من ظلمه. النصرة ليست دائماً أن تقف معه؛ قد تكون أن تمنع يده حتى لا يلقي الله بحق جديد في ذمته.

الصلح لا يصنع رضا مفقوداً

قد ينجح المجلس في خفض الأصوات، ثم يخرج منه الضعيف وهو يحمل ما دخل به وزيادة: ضرره الأول، وتنازلاً لم يردده، وشعوراً بأنه صار عائقاً في طريق راحة الأسرة أو الجماعة. لذلك لا يكفي أن نسأل: هل وافق؟ بل نحتاج قبلها إلى أسئلة أدق: هل فهم ما سوتركه؟ هل كان آمناً وهو يجيب؟ هل يستطيع أن يقول «لا» من غير تهديد أو انتقام؟ وهل الحق الذي طلب منه إسقاطه حقه وحده؟

هذه الأسئلة تميز الرضا من الاستسلام، ولا تطعن في أصل الصلح. ويقدم نظام المعاملات المدنية السعودي مثلاً على عناية القانون بالإرادة وعيوبها، كالتغير والإكراه واستغلال الضعف أو الحاجة. المقصود التنبيه إلى أن التوقيع لا يغني عن فحص الرضا؛ أما ثبوت العيب وأثره في اتفاق معين فيرجعان إلى النص العربي الحاكم والمختص في الواقعة.^{١٤٧}

١٤٧. Civil Transactions Law، وزارة الاستثمار السعودية، المواد 31-32 و61-68 و94-96.

ومن أخطر الأخطاء أن يعامل ادعاء العنف أو الضرر المستمر كأنه خلاف في وجهتي نظر يحتاج فقط إلى جلسة مشتركة. قد يكون الاجتماع نفسه موضع خوف، وقد يستخدم الأقوى رغبة الجماعة في إنهاء الخصومة ليعيد السيطرة على الأضعف. وفي وثيقة أممية متخصصة عن وساطة إلزامية في قضايا قد تتضمن عنفاً، ظهر خطر تأخير الوصول إلى الحماية والقضاء، وخطر إسناد تقدير السلامة إلى وسيط لا يملك خبرة لازمة. لا تجعل هذه الوثيقة كل نزاع عنفاً، ولا تمنع كل وساطة؛ لكنها تنبه إلى خطر جعل الوساطة شرطاً يؤخر الوصول إلى الحماية، في السياق الذي تناولته.

١٤٨

المصلح النافع يبدأ بتسمية نوع النزاع. سوء الفهم قد يصلحه بيان صادق. والحق المختلف في مقداره قد يحتاج مستنداً أو مختصاً. أما الخطر المستمر فيبدأ فيه العمل بالحماية والطريق المأذون، لا بالصورة الاجتماعية للمجلس. وإذا لم يملك الوسيط علماً بالحق أو

١٤٨. المقررة الخاصة للأمم المتحدة المعنية بالعنف ضد المرأة والفريق العامل المعني بالتمييز ضد النساء، اتصال OL ITA 5/2018، ص 1-2.

بالخطر، فمن أمانته أن يقف عند حده؛ الإحالة إلى أهل الاختصاص ليست فشلاً في الإصلاح، بل قد تكون أول الإصلاح.

ثم يأتي معنى التنازل. لصاحب الحق مساحة فضل إذا ملكها وأرادها وكان عفوه يصلح، لكن لا يملك الحاضرون أن يحولوا هذا الفضل إلى ضريبة على المتألم. ولا يثبت رضا الإنسان لأنه سكت، أو لأنه تعب من تكرار القصة، أو لأنه خشي أن يتهم بقطيعة الرحم. ينبغي أن تكون بنود الصلح واضحة: ما الذي سيعود؟ ما الذي سيتوقف؟ من يتابع؟ وما الذي يحدث إذا عاد الضرر؟

وقد يتعلق الفعل بقاصر أو غائب أو سلامة آخرين أو حق عام، فلا يصح للمصلح غير المختص أن يعد تنازل فرد واحد إغلاقاً لكل الآثار. هنا نتقدم الأمانة على سرعة الإنجاز: يحفظ من السر ما يجب حفظه، ويرفع إلى الجهة المختصة القدر اللازم إن ظهر خطر معتبر، ولا ينشر القصة بين الناس باسم التحذير. تفاصيل ذلك تختلف باختلاف البلد والمهنة والواقعة، وتحتاج حكم أهلها.

الصلح العادل لا يطلب من المظلوم أن يثبت طيبته بتعريض نفسه للأذى مرة أخرى، ولا يطلب من المخطئ أن يعيش أسير خطئه بعد أن يردده ويصلحه. إنه يوقف الضرر، ويبين الحق، ويفتح باب

التوبة، ويترك لصاحب الفضل فضله من غير إكراه. فإذا
اجتمعت السلامة والرضا والعدل، صار هدوء المجلس ثمرة
إصلاح، لا ستاراً عليه.

الإصلاح الذي يبدأ من نزاع المال

قال الله تعالى في أول سورة الأنفال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

جاء الأمر بالإصلاح في سياق السؤال عن الأنفال، حيث يوقظ المال في النفوس سؤال الاستحقاق: من تعب أكثر؟ ومن كان أثره أظهر؟ ومن ينبغي أن يأخذ؟ ولذلك لم يكن الإصلاح كلمة لطيفة تلقى فوق النزاع، بل إعادة للمسألة إلى حكم الله ورسوله، وتقوى تضبط الرغبة، وعلاقة تصلح بعد أن يتبين الحق.

قال السعدي في تفسير الآية:

الأنفال هي الغنائم التي ينفلها الله لهذه الأمة من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نزلت في قصة بدر أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، فأنزل الله يسألونك عن الأنفال كيف تقسم وعلى من تقسم؟ قُلْ لَهُمُ: الأنفال لله ورسوله يضعانها حيث شاءا، فلا اعتراض لكم على حكم الله ورسوله، بل عليكم إذا حكم الله ورسوله أن ترضوا بحكمهما، وتسلموا الأمر لهما، وذلك داخل في قوله

فَاتَّقُوا اللَّهَ بَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ واجتناب نواهيه.. وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ أي: أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابير، بالتوادد والتحاب والتواصل.. فبذلك تجتمع كلمتكم، ويزول ما يحصل - بسبب التقاطع - من التخاصم، والتشاجر والتنازع. ويدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخلق لهم، والعفو عن المسيئين منهم فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء والتدابير.. والأمر الجامع لذلك كله قوله: وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنَّ الْإِيمَانَ يَدْعُو إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.. كما أن من لم يطع الله ورسوله فليس بمؤمن. ١٤٩

لكن هذا اللين ليس ستاراً على قسمة جائزة. جمعت الآية بين التقوى والإصلاح والطاعة. لا يطلب من صاحب الحق أن يسكت حتى يقال إن المجلس انتهى بسلام، ولا يعطى الأقوى ما يريد حتى لا يغضب. الصلح الذي يحمل الضعيف ثمن هدوء الآخرين يؤجل النزاع ولا يصلحه.

وقد يكون نفع المصلح في أن يبطئ المجلس قبل أن يوزع الأحكام، ويفصل الوقائع عن الاتهامات، ويعطي كل طرف مساحة يقول فيها ما عنده، ثم يرد المسألة إلى معيار لا يملكه واحد

منهم. وقد يكون نفعه في أن يذكر صاحب الفضل بأن بعض ما يطلبه حظ نفس لا حق ثابت، ويذكر صاحب الحق بأن أخذه لا يحتاج إلى إذلال خصمه.

ليست كل خصومة محتاجة إلى خطيب؛ بعضها يحتاج إلى أمين لا يزيد نارها، وإلى ميزان لا يميل، وإلى قلب يعرف أن سلامة العلاقة لا تشتري بضائع العدل.

ليس نصراً أن تعين أخاك على خطئه

ج

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال الطبري في تفسير صدر الآية:

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وأما "المؤمنون والمؤمنات"، وهم المصدقون بالله ورسوله وآيات كتابه، فإن صفتهم: أن بعضهم أنصار بعض وأعوانهم^{١٥٠}

من النفع أن تجد أخاك عند حاجته، ومن النفع أيضاً ألا تتركه يسمى الظلم مصلحة لأنه صدر منه. قد تدعوك المحبة إلى إعانتة في دينه، وقد تدعوك إلى نصحه بألا يتحمل ديناً جديداً لا يقدر عليه، وإلى الامتناع عن المشاركة في إضراره. وقد تقتضي النصرة أن

١٥٠. جامع البيان، الطبري، تفسير التوبة ٧١، وحدة تفسير ولاية المؤمنين بعضهم لبعض، وتنتهي عند «وأعوانهم».

تشهد له بحق، أو أن تشهد عليه إذا تعلق الحق بغيره. فالذي يحمي المخطئ من نتيجة خطئه كل مرة قد يريحه اليوم، لكنه يطيل مرضه ويصنع متضررين جددًا.
قال السعدي في تفسير الآية:

لما ذكر أن المنافقين بعضهم أولياء بعض ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين، فقال: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ} أي: ذكورهم وإناثهم {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} في المحبة والموالة، والانتماء والنصرة.

{يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} وهو: اسم جامع، لكل ما عرف حسنه، من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم، {وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} وهو كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة.

{وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} أي: لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام.

{أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ} أي: يدخلهم في رحمته، ويشملهم بإحسانه.

{إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} أي: قوي قاهر، ومع قوته فهو حكيم، يضع كل شيء موضعه اللائق به الذي يحمد على ما خلقه وأمر به. ١٥١

ولا يعني الأمر بالمعروف أن يصير كل إنسان شرطياً على الناس. له علم وقدرة ووسيلة ومال، وقد يؤدي إنكار جاهل إلى منكر أكبر. أول الداخلين في أمر المؤمن نفسه، كما نبه السعدي؛ يصلح عمله، ويقيم صلاته، ويؤدي ما عليه، ثم ينصح بقدر علمه وبالطريق المشروع. الولاية التي لا تبدأ من هذا الميزان قد تتحول إلى عصبية ترفع شعار الأخوة وهي تنقض العدل.

المجتمع النافع ليس جماعة يتبادل أفرادها المجاملة، بل شبكة رحمة ومساءلة: يسند المتعب، ويعلم الجاهل، ويذكر الغافل، ويمنع القادر من الاستطالة. أحبك فلا أتركك وحدك، وأحبك فلا أتركك تظلم؛ هاتان الجملتان وجهان لولاية واحدة.

حين يكون الخير عنواناً ترشد إليه

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، قال:

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِنِّي أَبْذَعُ بِي فَاحْمِلْنِي فَقَالَ " مَا عِنْدِي " . فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَدُلُّهُ عَلَى مَنْ يَحْمِلُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ " ١٥٢٠

قد يقف صاحب الحاجة أمامك ولا يكون المطلوب في يدك. يحرر هذا الموقف القلب من وهم أن العاجز عن الحل لا نفع عنده، وأن من أراد الأجر يجب أن يحتفظ بالفعل لنفسه.

حاجة معلومة، ومعرفة بمن يقدر، ودلالة تصل السائل به. لم يحمل الدال الرجل بنفسه، لكنه منع أن تتوقف الحاجة عند حدود ما يملكه فرد واحد. صار العلم بالطريق نفعاً، وصارت صلة الناس بعضهم ببعض باب عبادة.

عن أبي موسى رضي الله عنه، قال:

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ، أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ " اشفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ". ١٥٣

الشفاعة هنا بذل كلمة في حاجة مشروعة، والأجر معلق بالسعي الصالح، أما النتيجة فليست ملكاً للشفيع. لا يقول لصاحب الحاجة: ضمنت لك، ولا يجعل جاهه فوق الحق، ولا يطلب تقديم غير المستحق.

في الدلالة يعرف النافع قادراً فيرشد المحتاج إليه، وفي الشفاعة يتكلم لصاحب الحاجة عند من يرجى منه قضاءها. وقد يجتمعان في موقف واحد. ومن هذين البابين نستفيد في حياتنا العملية: إذا لم تملك المال، فقد تملك اسم الجهة الصحيحة، أو خبر المختص الأمين، أو طريقة الوصول، أو كلمة تعريف لا تظلم أحداً. غير أن المعلومة لا تكون إحساناً حتى تتحرى صحتها، والشفاعة لا تكون حسنة حتى تبقى داخل العدل.

كم من حاجة تتعطل لأن القادرين متفرقون، وكم من إحسان يفسد لأن الوسيط يحب أن يبدو صاحب الفضل كله. الحديثان يريان على نفع أكثر تواضعاً: أن تكون جسراً ثم تتواري. لا

تستولي على قصة المحتاج، ولا تجعل صورته ثمناً لاتصال أجرите،
ولا تنسب لنفسك فعل من حمل أو دفع أو عالج. يكفيك أن
دللت على خير، أو شفعت فيه، وأن يبقى الفضل لله ثم لكل من
قام بنصيبه.

العلم أمانة، والعمل موضع أهله

عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلِمَهُ ١٥٤

قدم اللفظ التعلم على التعليم؛ فلا يكون المعلم ناقلاً لما لم يضبط، ولا طالب العلم مستهلكاً يحبس ما يصلح أدأؤه.

قال ابن حجر:

قوله : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) كذا للأكثر وللسرخسي " أو علمه " وهي للتنويع لا للشك ، وكذا لأحمد عن غندر عن شعبة وزاد في أوله " إن " وأكثر الرواة عن شعبة يقولونه بالواو ، وكذا وقع عند أحمد عن بهز وعند أبي داود عن حفص بن عمر كلاهما عن شعبة وكذا أخرجه الترمذي من حديث علي وهي أظهر من حيث المعنى لأن التي بأو تقتضي إثبات الخيرية المذكورة لمن فعل أحد الأمرين فيلزم أن من تعلم القرآن ولو لم يعلمه غيره أن يكون خيراً ممن عمل بما فيه مثلاً وإن لم يتعلمه ، ولا يقال يلزم على رواية الواو أيضاً أن من تعلمه وعلمه غيره أن

١٥٤. صحيح البخاري، البخاري، حديث 5027.

يكون أفضل ممن عمل بما فيه من غير أن يتعلمه ولم يعلمه غيره ،
لأننا نقول يحتمل أن يكون المراد بالخيرية من جهة حصول
التعليم بعد العلم ، والذي يعلم غيره يحصل له النفع المتعدي
بخلاف من يعمل فقط ، بل من أشرف العمل تعليم الغير ، فمعلم
غيره يستلزم أن يكون تعلمه ، وتعليمه لغيره عمل وتحصيل نفع
متعد ، ولا يقال لو كان المعنى حول النفع المتعدي لاشتراك كل
من علم غيره علما ما في ذلك ، لأننا نقول القرآن أشرف العلوم
فيكون من تعلمه وعلمه لغيره أشرف ممن تعلم غير القرآن وإن علمه
فيثبت المدعى . ولا شك أن الجامع بين تعلم القرآن وتعليمه
مكمل لنفسه ولغيره جامع بين النفع القاصر والنفع المتعدي ولهذا
كان أفضل ، وهو من جملة من عنى سبحانه وتعالى بقوله : ومن
أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين
والدعاء إلى الله يقع بأمور شتى من جملة تعليم القرآن وهو
أشرف الجميع ، وعكسه الكافر المانع لغيره من الإسلام كما قال
تعالى : فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها فإن قيل :
فيلزم على هذا أن يكون المقرئ أفضل من الفقيه قلنا : لا ، لأن
المخاطبين بذلك كانوا فقهاء النفوس لأنهم كانوا أهل اللسان
فكانوا يدرون معاني القرآن بالسليقة أكثر مما يدرها من بعدهم
بالاكتساب ، فكان الفقه لهم سجية ، فمن كان في مثل شأنهم
شاركهم في ذلك ، لا من كان قارئاً أو مقرئاً محضاً لا يفهم شيئاً

من معاني ما يقرؤه أو يقرئه . فإن قيل فيلزم أن يكون المقرئ أفضل ممن هو أعظم غناء في الإسلام بالمجاهدة والرباط والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثلاً ، قلنا حرف المسألة يدور على النفع المتعدي فمن كان حصوله عنده أكثر كان أفضل ، فلعل ” من ” مضمرة في الخبر ، ولا بد مع ذلك من مراعاة الإخلاص في كل صنف منهم . ويحتمل أن تكون الخيرية وإن أطلقت لكنها مقيدة بناس مخصوصين خوطبوا بذلك كان اللائق بحالهم ذلك ، أو المراد خير المتعلمين من يعلم غيره لا من يقتصر على نفسه ، أو المراد مراعاة الحيثية لأن القرآن خير الكلام فمتعلمه خير من متعلم غيره بالنسبة إلى خيرية القرآن ، وكيفما كان فهو مخصوص بمن علم وتعلم بحيث يكون قد علم ما يجب عليه عينا .

١٥٥

ومن هنا نتأمل أمانة التعليم في واقعنا: قد يصحح المعلم اللسان ويجرح صاحبه، أو يتجاوز ما يعلم، أو يجعل طلابه سلماً لشهرته. إتقان المادة واحترام المتعلم مسؤوليتان لا تستغني إحداهما عن الأخرى. ١٥٦

١٥٥. فتح الباري، ابن حجر، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه.
 ١٥٦. فتح الباري، ابن حجر، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه،
 شرح حديث 5027، ج 8 ص 705-706.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال:

بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ
أَعْرَابِي فَقَالَ مَتَى السَّاعَةُ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ سَمِعَ مَا قَالَ، فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ
بَعْضُهُمْ بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ "أَيْنَ - أَرَاهُ -
السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ". قَالَ هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ "فَإِذَا
ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ". قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتَهَا قَالَ "إِذَا
وَسِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ". ١٥٧

حين تفصل المسؤولية عن الأهلية يضيع حق من تتعلق مصالحهم
بها. وتبدأ الأمانة من معرفة قدراتنا وحدود ما نحسن.

ليس السؤال من يحب المنصب، بل من يستطيع أداء حقه. قد يريد قليل العلم الفتوى فيفضل السائل، وقد يسند مسؤول خدمة عامة إلى قريب محبوب لا يحسنها، فتدفع حاجات الناس ثمن المجاملة. حسن القصد يحتاج إلى أهلية تحفظه من أن يصير أذى.

١٥٨

لكن «الأهلية» ليست شعاراً يستعمله كل فريق لإقصاء من يخالفه. تحديدها يحتاج معايير عادلة متصلة بالعمل: علم لازم، وخبرة معتبرة، وأمانة، وقدرة، ومساءلة. وقد يكون الشاب أهلاً مع قلة سنه، ويكون صاحب الشهادة غير أمين، ويكون الخبير عاجزاً عن أداء مهمة لا تناسبه. لا يضع الحديث وحده نظام

١٥٨. فتح الباري، ابن حجر، كتاب العلم، شرح حديث 59، ج 1 ص 173.

التوظيف الحديث، ولا يرتب درجات المؤهلات؛ إنما يمنع أصل التوسيد إلى غير الأهل، ثم ترد التفاصيل إلى الشرع والخبرة والعدل.

وهنا تتغير صورة الخدمة. ليست كل مساعدة أن تفعل بنفسك. قد تكون الأمانة أن تحيل إلى من هو أعلم، وأن تقول: لا أعرف، وأن ترفض مهمة لا تحسنها، وأن تدرب من سيحملها بعدك، وأن توثق المعلومة حتى لا تضيع بتغير الأشخاص. التواضع المهني ليس نقصاً في النفع؛ إنه حمايته من الثقة الزائدة.

ومن أراد تعليم القرآن فليتعلم، ومن أراد حمل أمر الناس فليتأهل، ومن كان في موضع اختيار فليقدم الحق على القرابة والمصلحة الضيقة. عندئذ يصبح العلم نفعاً لأنه صحيح مؤدى، ويرجو صاحب الوظيفة بصدق نيته وأداء حقها أن تكون من عبادته. أما إذا انفصل الظهور عن العلم، والمنصب عن الأهلية، فقد يبدو البناء قائماً وهو يستهلك ثقة الناس من داخله.

أمانة الدور الذي لا يراك الناس فيه

قال ابن حجر:

قوله : (باب من سئل علما وهو مشغل) محصله التنبيه على أدب العالم والمتعلم ، أما العالم فلها تضمنه من ترك زجر السائل ، بل أدبه بالإعراض عنه أولا حتى استوفى ما كان فيه ، ثم رجع إلى جوابه فرفق به لأنه من الأعراب وهم جفاة . وفي العناية جواب سؤال السائل ولو لم يكن السؤال متعينا ولا الجواب ، وأما المتعلم فلها تضمنه من أدب السائل أن لا يسأل العالم وهو مشغل بغيره لأن حق الأول مقدم . ويؤخذ منه أخذ الدروس على السبق ، وكذلك الفتاوى والحكومات ونحوها . وفيه مراجعة العالم إذا لم يفهم ما يجب به حتى يتضح ، لقوله ” كيف إضاعتها ، وبوب عليه ابن حبان ” إباحة إعفاء المسئول عن الإجابة على الفور ” ولكن سياق القصة يدل على أن ذلك ليس على الإطلاق ، وفيه إشارة إلى أن العلم سؤال وجواب ، ومن ثم قيل حسن السؤال نصف العلم ، وقد أخذ بظاهر هذه القصة مالك وأحمد وغيرهما في الخطبة فقالوا : لا نقطع الخطبة لسؤال سائل ، بل إذا فرغ نجيبه . وفصل الجمهور بين أن يقع ذلك في أثناء واجباتها فيؤخر الجواب ، أو في غير الواجبات فيجيب . والأولى حينئذ التفصيل ، فإن كان مما يهتم به في أمر الدين ،

ولا سيما إن اختص بالسائل فيستحب إجابته ثم يتم الخطبة ، وكذا بين الخطبة والصلاة ، وإن كان بخلاف ذلك فيؤخر ، وكذا قد يقع في أثناء الواجب ما يقتضي تقديم الجواب ، لكن إذا أجاب استأنف على الأصح ، ويؤخذ ذلك كله من اختلاف الأحاديث الواردة في ذلك ، فإن كان السؤال من الأمور التي ليست معرفتها على الفور مهمة فيؤخر كما في هذا الحديث ، ولا سيما إن كان ترك السؤال عن ذلك أولى . وقد وقع نظيره في الذي سأل عن الساعة وأقيمت الصلاة ، فلما فرغ من الصلاة قال : أين السائل ؟ فأجابه . أخرجاه . وإن كان السائل به ضرورة ناجزة فتقدم إجابته ، كما في حديث أبي رفاعه عند مسلم أنه قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يخطب : رجل غريب لا يدري دينه جاء يسأل عن دينه ، فترك خطبته وأتى بكرسي فقعده عليه فجعل يعلمه ، ثم أتى خطبته فأتم آخرها . وكما في حديث سمرة عند أحمد أن أعرابيا سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الضب . وكما في الصحيحين في قصة سالم [1] لما دخل المسجد والنبي - صلى الله عليه وسلم - يخطب فقال له : أصليت ركعتين ؟ الحديث ، وسيأتي في الجمعة . وفي حديث

أنس : كانت الصلاة تقام فيعرض الرجل فيحدث النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى ربما نعس بعض القوم ، ثم يدخل في الصلاة ، وفي بعض طرقه وقوع ذلك بين الخطبة والصلاة .^{١٥٩}

في سياق سؤال الأعرابي معنى آخر لا ينبغي أن يغيب عن خدمة الناس: أتم النبي صلى الله عليه وسلم حديثه ثم عاد إلى السائل . واستخرج ابن حجر من ذلك الفرق بالمتعلم وتقديم حق من سبق، وذكر ترتيب الدروس والفتاوى ونحوها على السبق .^{١٦٠} ليس حفظ حق الحاضر إهمالاً للمنتظر، كما أن إجابة القادم لا تسوغ قطع حق من كان قبله . الرحمة والعدل يلتقيان حين يحفظ لكل صاحب حاجة موضعه، ويبين له ما يستطيع أن ينتظره .

ومن تطبيق هذا المعنى في أعمالنا أن يكون الانتظار مفهوماً، لا باباً للإذلال . إذا تعذر إنجاز طلب، أمكن شرح سبب التأخير وحدود القدرة والخطوة الممكنة، من غير وعد لا يملك الموظف تنفيذه . وإذا اقتضت حاجة عاجلة تقديم صاحبها، وجب أن يقوم التقديم

١٥٩ . فتح الباري، ابن حجر، كتاب العلم، باب من سئل علماً وهو مشغول في حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل .

١٦٠ . فتح الباري، ابن حجر، كتاب العلم، شرح حديث 59، ج 1 ص 171 .

على معيار صحيح واضح، لا على معرفة شخصية أو إلحاح أعلى صوتاً. هذه وسائل بشرية لتنظيم الخدمة، تُراجع بحسب طبيعة العمل، وليست نظاماً تفصيلياً مستخرجاً من رواية واحدة.

وقد تكون أمانتك في لحظة ما أن تمنع الحاجة من الضياع بين الأيدي. لا تكتف بإرسال صاحبها إلى باب آخر إذا كنت تستطيع أن تدله على الجهة الصحيحة، أو أن توضح له المعلومة الناقصة، أو أن تخبره بصدق أن الأمر ليس من اختصاصك. وليس المطلوب أن تحمل ما لا تطيق؛ المطلوب ألا تستر حدود قدرتك وراء كلام يوهمه أنك أنجزت ما لم تنجزه. فصدق الحدود قد يكون أنفع من اتساع الوعود.

وفي تعليم القرآن يظهر معنى قريب: يتعلم المعلم من التصحيح، ولا يجعل مقامه مانعاً من الرجوع. إذا أشكل عليه وجه أداء أو معنى، رجع إلى من يحسنه، ولم يترك مكانته تجيب بدل علمه. ويستطيع أن يعين طالباً على مواصلة التعلم ولو كان انتقله إلى معلم آخر أصلح له. حين تكون منفعة المتعلم هي المقصودة، لا يصير بقاء الناس حولنا شرطاً لفرحنا بخيرهم.

العمل الخفي في ترتيب المواعيد وحفظ الحقوق وتصحيح المعلومات لا يلفت الأنظار كما تلفتها المبادرات الكبيرة. لكنه يمس اليوم العادي للناس: يقلل رحلة لا داعي لها، ويحفظ وقتاً، ويمنع قراراً مبنياً على معلومة ناقصة. لا نقدر لهذه الأعمال ثواباً

مخصوصاً بلا دليل، ولا نزعم قبول شخص بعينه؛ إنما نرى فيها أبواباً يمكن أن يدخلها صدق النية وحسن الأداء. وقد لا يحتاج موضعك إلى حركة استثنائية، بل إلى أن تؤدي الأمانة الصغيرة التي وضعها الناس بين يديك.

حين يتقاسم الناس قضاء الحاجة

قد يملك إنسان ما ينفق، ويملك آخر وقتاً لا يملكه الأول، ويعرف ثالث الطريق إلى من يستطيع إتمام العمل. وحين تتلاقى هذه القدرات، يحتاج كل مشارك إلى معرفة دوره، ويحتاج صاحب الحاجة إلى عون يصل إليه دون أن يضع بين الأيدي. نستطيع أن نتعاون على ذلك بمهمات واضحة، يتسلم بعضها من بعض.

المال والوقت والجهد

قال السعدي في تفسير سورة البقرة، الآية 267:

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب، ومما أخرج لهم من الأرض فكما منّ عليكم بتسهيل تحصيله فأنفقوا منه شكراً لله وأداء لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيراً لأموالكم، واقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم، ولا تيمموا الرديء الذي لا ترغبونه ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والمسامحة { واعلموا أن الله غني حميد } فهو غني عنكم ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم، ومع هذا فهو حميد

على ما يأمركم به من الأوامر الحميدة والخصال السديدة، فعليكم أن
تمثلوا أوامره لأنها قوت القلوب وحياة النفوس ونعيم
الأرواح^{١٦١}

يبدأ الأمر بما نقدمه، لا بمقدار ما نحب أن يقال عنا. حين نجهز
طعاماً لغيرنا، لنسأل عن صلاحه للانتفاع، لا عن سرعة التخلص
مما زاد عندنا. وفي تفسير السعدي للبقرة 267 بيان للعناية بطيب
المنفق وترك تعمد الرديء. لا يعني ذلك أن كل شيء مستعمل
لا يصلح للطاء؛ قد ينتفع الإنسان به انتفاعاً حقيقياً. وإنما يدعونا
المعنى إلى ألا نستسهل للآخر ما نعرف رداءة حاله، ثم نحسب
مجرد خروجه من أيدينا تمام المعروف.^{١٦٢}

وقد ورد الحث على المواساة بفضل المركوب والزاد في حديث أبي
سعيد. ففي الأشياء التي تجاوز حاجتنا باب نفع لغيرنا، ولا يلزم
أن نبتدئ في كل مرة بشراء جديد حتى نستطيع المشاركة. لكن
معرفة وجود الفضل ليست نهاية العمل؛ بعد ذلك يأتي سؤال
الانتفاع به وإيصاله. من هنا يمكن أن نتوزع الخدمة: يبذل أحدها

١٦١. تفسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة البقرة، الآية 267.

١٦٢. تفسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير البقرة 267.

ما عنده، ويتولى آخر ما يقدر عليه من ترتيب أو حمل. وهذا اقتراح في أداء العون، لا وصف لتفاصيل وردت كلها في الحديث. ١٦٣

ولمن يحمل العمل ببدنه ووقته نصيب لا ينبغي أن يختفي خلف المال. في خبر أنس عن السفر ذكر لخدمة المفطرين، ثم جاء الثناء عليهم في ذلك اليوم. لم يكن العمل المحتاج إليه خارج مشهد الفضل. ومن هذا نتعلم أن ننظر إلى الجهد الذي تقوم عليه المساعدة، وإن لم يظهر في صورتها الأخيرة. على أن الخبر لا يجعل كل خدمة في كل حال أفضل من كل عبادة، ولا يمنحنا أن نزيد على روايته أعمالاً لم تسمها. ١٦٤

وفي تعاوننا اليوم، يحفظ الالتزام الواضح جهد المشاركين ووقت صاحب الحاجة. حين تقبل مهمة، بين ما تستطيع إنجازه ومتى ترجح إتمامه، وإذا طرأ ما يمنعك فأخبر من ينتظر عملك مبكراً. وقد يكون الاعتذار الواضح أنفع من وعد يوقف عمل الآخرين ولا ينجز شيئاً.

١٦٣. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 1728.

١٦٤. صحيح البخاري، البخاري، حديث 2890.

الدلالة والشفاعة

ثم قد تقف قدرتنا عند معرفة الطريق. جاء في صحيح مسلم خبر من احتاج إلى مركوب، فدل رجل على من يحمّله. وفيه فضل الدلالة على الخير. لا يحتاج الدال إلى ادعاء أنه صاحب المال، ولا إلى إخفاء اسم من أدى العمل. أن تساعد الخير على الوصول مشاركة لها معناها، وإن لم تمر جميع أجزائها بيدك. وقد يكون من صدق الدلالة أن تتحقق أن الطريق الذي تشير إليه متاح، وأن تصح ما أخطأت فيه حين يتبين لك. ١٦٥

والدلالة غير امتلاك القرار. قد نعرف من ينظر في الطلب، وقد نستطيع عرض الحاجة عليه، لكننا لا نملك أن نعد صاحبها بإجابة لم تصدر. جاء الترغيب في الشفاعة في صحيح البخاري، ويفرق القرآن بين الشفاعة الحسنة والسيئة. لذلك لا يكفي أن نسعد

١٦٥. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 1893.

طالب الوساطة إذا كنا نستعين على سلب غيره حقه. نستطيع أن نسعى بصدق، وأن نعرض الحاجة كما هي؛ أما تزويقها بما ليس فيها فليس من تمام النفع. ١٦٦

كرامة المستفيد عند تداول الطلب

وحين ينتقل الطلب بين المشاركين، تنتقل معه معلومات قد تمس حياة صاحبه. نتفق على ما يحتاجه كل دور، ونحفظ ما عداه؛ فالمشاركة في حمل الحاجة لا تجعل قصتها مباحة للتداول.

والحاجة ليست بطاقة دخول إلى الحياة الخاصة. قد يحتاج من يوصل الدواء إلى عنوان، ولا يحتاج إلى معرفة التشخيص. وقد يحتاج من يراجع طلباً إلى مستند يثبت الاستحقاق، ولا يحتاج إلى صورة تتداولها المجموعة كلها. نسأل قبل طلب كل تفصيل: ما العمل الذي لا يتم بدونه؟ ومن الذي يحتاجه ليؤدي دوره؟ ومتى تنتهي الحاجة إلى بقاءه؟ هذه أسئلة تنظيمية يقترحها المؤلف، وقد وافق معناها العملي ما قررته اللائحة السعودية لحماية البيانات الشخصية ودليل الحد الأدنى من البيانات: ارتباط الجمع بغرض

١٦٦. صحيح البخاري، البخاري، حديث 1432.

واضح، وقصره على الضروري، وتقييد الوصول والاحتفاظ. وهي
إحالة إلى تنظيم معاصر في نطاقه، لا إضافة إلى متن الحديث ولا
قاعدة قانونية لكل بلد. ١٦٧

والرضا بمساعدة محددة لا يعني الرضا بنشر الاسم والصورة
والتشخيص وتفاصيل الأسرة. من تمام البيان أن يعرف صاحبها
ما الذي سينقل، وإلى من، ولأي غرض. وإذا كفى وصف
الحاجة دون الاسم أو التفاصيل الخاصة، اقتصرنا على ما يحقق
الغرض. هكذا يبقى التنظيم خادماً للمساعدة، ولا يتحول إلى فضول
يثقل على طالها.

لكن للستر حداً آخر لا يجوز طمسه: ليس كل صمت حماية. قرر
مجمع الفقه الإسلامي الدولي، في شأن السر في المهن الطبية، أن
الأصل حظر إفشاء السر، ثم استثنى ما يكون ضرر كتمانته أكبر
أو تكون مصلحة إفشائه أرجح، ورد تفاصيل الإفشاء وكيفيته
وجهته إلى الأنظمة المختصة. لا نقل هذا القرار إلى كل واقعة بلا

١٦٧. الدليل الاسترشادي لتحديد الحد الأدنى من البيانات الشخصية، الهيئة
السعودية للبيانات والذكاء الاصطناعي.

فحص، ولا نجعل المتطوع قاضياً يقرر وحده مقدار الخطر. غير أنه يكفي لمنع جملة مضللة من نوع: «لا تخبر أحداً مهما وقع». إذا كان الضرر مستمراً أو كانت حياة أو سلامة مهددة، فالمطلوب ليس نشر الحكاية بين الناس، بل الوصول بالقدر اللازم إلى الجهة المختصة. ١٦٨

بهذا يظهر الفرق بين باين قد يختلطان. عثرة خاصة يرجى إصلاحها ويزيد نشرها صاحبها أذى؛ فالأصل أن تحفظ. وضرر يتجدد على إنسان لا يملك دفعه؛ فلا يصح أن يتحول اسم الستر إلى جدار يحمي استمرار الضرر. وبينهما وقائع تحتاج علماً بملاساتها ومراجعة من يعرف الحكم والنظام والمهنة. لذلك لا يقدم هذا الفصل بروتوكول بلاغات، ولا يفصل أحكام الأطفال أو المهن المختلفة؛ تلك مسائل لها جهاتها ومصادرها. ما يثبت هنا أن الكرامة لا تصان بالفضيحة، ولا تصان أيضاً بترك المتضرر وحده.

١٦٨. مجمع الفقه الإسلامي الدولي، قرار بشأن السر في المهن الطبية، قرار 79 (8/10)، البنود أولاً-سادساً.

و حين نضطر إلى نقل معلومة لحماية أو حق، يبقى مقدار النقل جزءاً من الأمانة. نعين الجهة المقصودة، ونرسل ما تحتاجه، ولا نجعل الضرورة ذريعة لنسخ الملف إلى كل مجلس. وتذكر اللائحة السعودية في الإفصاح المرتبط بالسلامة أو حماية الحياة توثيق الطلب وتحديد نوع البيانات بدقة، مع بقاء الإفصاح في الحد اللازم. يؤخذ هذا بوصفه مثلاً تنظيمياً واضحاً، وترد تفاصيل كل بلد ومهنة إلى نظامها وأهلها. ١٦٩

القول والأهلية والإحالة

وقد تختلف آراء المشاركين في طريقة المساعدة. هنا نحتاج الكلمة التي تبين ولا تجرح، وتصحح ولا تهين. في تفسير الإساءة 53 توجيهه إلى اختيار القول الأحسن؛ وليس من حسن القول أن

١٦٩. الهيئة السعودية للبيانات والذكاء الاصطناعي، اللائحة التنفيذية لنظام حماية البيانات الشخصية، المواد 18-20، ولا سيما الحد الأدنى والإفصاح المرتبط بغرض وحماية السلامة أو الحياة.

نسكت عن خطأ مؤثر حتى لا نزعج من صنعته. نستطيع أن نحفظ احترامه ونحن نطلب إصلاح العمل، كما نستطيع أن نعترف بخطئنا دون تحويل الاعتراف إلى قصة عن فضل تواضعنا. ١٧٠

ويبقى لكل دور أهله. التحذير النبوي من إسناد الأمر إلى غير أهله يذكرنا أن النية الحسنة لا تكفي وحدها لحمل مسؤولية لا نحسنها. وليس معنى التعاون أن يتبادل الناس الأدوار بلا تمييز، بل أن يضم بعضهم قدرته إلى قدرة بعض. ومن تطبيق ذلك أن نسلم ما يحتاج إلى اختصاص لصاحبه، وألا نحفظ بالمهمة لمجرد أننا بدأناها. فالعمل الذي اكتمل على يد غيرنا لم يضع بسبب ذلك، وصاحب الحاجة ليس مدينًا لنا بأن يبقى منتظرًا لقدرتنا وحدها. ١٧١

١٧٠. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير الإسراء 53.

١٧١. صحيح البخاري، البخاري، حديث 59.

ومعرفة الحد ليست انسحاباً من الخير. قد يكون تمام الأمانة أن تقول: هذا الجزء أستطيعه، وهذا لا أحسنه. في مدونة أخلاقية خاصة بالمهندسين يظهر مثال واضح: لا يؤدي المهندس خدمة فنية خارج مجال كفاءته، وإذا نسق مشروعاً كاملاً بقي كل جزء في منسوباً إلى المؤهل الذي أعده. ليست هذه المدونة حكماً عاماً على جميع المهن، لكنها تكشف خطأ مألوفاً: أن يصبح اسم المنسق غطاءً لكل اختصاص. لكل مهنة شروطها، ومن الخير أن يسأل الإنسان عنها قبل أن يجعل ثقة الناس به بديلاً عن أهلية لم يثبتها.

١٧٢

وإذا احتجنا إلى الإحالة، فلنحسنها كما نحسن البداية. لا نرسل صاحب الحاجة إلى اسم مبهم، ولا نعهده أن الجهة الأخرى ستقبله، ولا ننقل قصته كلها بحجة تسهيل الطريق. نوضح له أين توقفت قدرتنا، وما الذي أنجز، وما الذي بقي، ثم ننقل القدر اللازم بإذنه أو بالسند الذي يبيحه النظام عند الحاجة. وقد يتبين أن الإحالة الأولى غير مناسبة؛ عندئذ يكون تصحيح الطريق جزءاً من الصدق، لا انتقاصاً من صاحبه.

١٧٢. الجمعية الوطنية للمهندسين المحترفين NSPE، Code of Ethics for Engineers،

مراجعة يوليو 2019، القواعد I.1-3 و II.2، في حدود الكفاءة ومسؤولية الجزء الفني. مدونة هندسية في نطاقها، وليست نظام ترخيص لجميع المهن.

حين تصبح الخدمة رقمية

وقد تكون الخدمة باباً إلكترونياً لا يداً تمتد في مجلس. هنا يسهل أن نعد عدد الزيارات والتنزيلات والرسائل، ثم نسميها أثراً. لكنها لا تجيب وحدها عن السؤال الأهم: هل وصل صاحب الحاجة إلى ما جاء يطلبه؟ تقترح معايير الخدمة الرقمية أن تعرف الجهة صورة النجاح قبل جمع الأرقام، وأن تختار مقاييس تبين حل المشكلة وتعين على إصلاح الخلل. هذا تنظيم معاصر، لا عبادة ذات مقدار ثابت. لذلك يختلف القياس باختلاف الخدمة، وقد يكون أقرب مؤشر هو اكتمال الطلب، أو قلة الأخطاء، أو وصول من كان يعجز عن القناة. ولا يثبت نجاح دنيوي قابل للقياس إخلاص القلب أو قبول العمل عند الله. ^{١٧٣}

ومن الناس من لا يملك اتصالاً ثابتاً، أو لا يحسن استعمال التطبيق، أو يحتاج إلى وسيلة تناسب إعاقة. لا يكون تحويل المعونة إلى شاشة زيادة في النفع إذا أغلق الباب على هؤلاء. معيار الخدمة الحكومي البريطاني، في نطاقه، يجمع بين الوصول الرقمي وغير الرقمي، ويطلب ألا تستبعد الخدمة من تنقصه المهارة أو

١٧٣. Government Digital Service، Service Standard، النقطة 10:

Define what success looks like and publish performance data. قياس حل المشكلة وتحسين الخدمة، دون دلالة على القبول الأخرى.

الشبكة. نستفيد من السؤال ولا نعمم قانونه: من الذي بقي خارج الباب الذي صممناه؟ وهل يستطيع أن يجد مساعدة أو طريقاً بديلاً مناسباً؟^{١٧٤}

والخدمة الرقمية أعطال لا يظهر أثرها في لوحة جميلة. قد نتوقف في ساعة لا يملك المحتاج غيرها، أو تمرر طلباً ناقصاً، أو تعيد الخطأ نفسه إلى أناس كثيرين. لذلك يدخل في الأمانة اختبارها ورصدها وتعيين من يستجيب للمشكلة. وليس الاختبار الآلي وحده شاهداً كافياً على سلامة كل ما يراه الإنسان؛ فالخدمة الحكومية المشار إليها تشترط إشراف الفريق على فحص الجودة،

١٧٤. Make، Government Digital Service، Service Standard، النقطة 5:

What it means. الوصول
والمساعدة لمن تنقصه المهارة أو الاتصال، في نطاق الخدمات الحكومية البريطانية.

ومتابعة نتائج المستخدمين والتحيز إلى جانب الأعطال الفنية. ليس المقصود أن تحمل المبادرة الصغيرة جهاز مؤسسة كبيرة، بل ألا تطلق وسيلة مؤثرة ثم تغيب عن متضرر بخطئها. ١٧٥

وإذا استعملت الخدمة نظاماً آلياً يوصي أو يرتب أو يقرر، زادت الحاجة إلى وضوح المسؤول. يضع إطار المعهد الأمريكي للمعايير والتقنية لإدارة مخاطر الذكاء الاصطناعي وظائف للحكمة وفهم السياق والقياس والمعالجة، ويطلب توثيق المقاييس وحدود صلاحية النظام ومراقبته في العمل، وإتاحة طريق لتعليقات المتأثرين والاعتراض على النتائج. هذا إطار طوعي خاص بهذه الأنظمة، لا حكماً شرعياً ولا شهادة لأداة بعينها. الذي يعيننا أن

١٧٥. Service Standard، Government Digital Service، النقطة 14:

.Operate a reliable service

كلمة «ذكي» لا تعفي الإنسان المؤهل من المراجعة، وأن الأداة التي تعطي نتيجة خارج حدها ينبغي أن يمكن إيقافها أو تجاوزها بدل أن يصبح خطأها قدراً تقنياً لا يسأل عنه أحد. ١٧٦

تكتمل هذه العناية حين يعرف الفريق كيف يراجع عمله: من يستقبل ملاحظة المستفيد؟ ومن يصحح الخطأ؟ وماذا يحدث إذا تعذر استمرار الخدمة؟ قد تكفي المبادرة الصغيرة إجابات قليلة واضحة، وقد تحتاج الخدمة المؤثرة ترتيباً أوسع. والعبرة أن يجد المتضرر من يسمعه ويتحمل مسؤولية الإصلاح، وأن تعود المراجعة بتحسين يمكن ملاحظته.

لعل أجمل ما يتركه هذا التعاون في النفس أن يخف تعلقها بامتلاك المشهد. تبذل ما تقدر عليه، وتعرف فضل من شاركك، ولا تحجب الطريق إلى من هو أقدر منك. فإذا انتهى نصيبك من العمل أحسنت تسليمه، وإذا بقي عليك شيء لم تستر وراء كثرة الأيدي. بهذا المعنى تكون المشاركة مسؤولية واضحة، لا ذريعة يتفرق معها الواجب حتى لا يعرف أحد أين بقي.

أن تترك عنده قدرة

من صور العون أن تنجز لإنسان ما عجز عنه في هذه الساعة. ومن صورهِ أن تعلمهُ أمراً يستطيع بعده أن ينجِز بعض حاجاته بنفسه. وبين الصورتين سعة؛ فلا يتحول التعليم إلى شرط قاسٍ قبل كل مساعدة، ولا يصبح إنجاز الأعمال بدل الناس عادةً تحجب عنهم فرصة التعلم. نسأل عن الحال: هل الوقت يسمح؟ هل يرغب صاحب الحاجة في التعلم؟ وهل المهارة في حدود قدرته وقدرتنا على التعليم؟

عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلِمَهُ^{١٧٧}

١٧٧. صحيح البخاري، البخاري، حديث 5027.

هذا الفضل متعلق بتعلم القرآن وتعليمه؛ فلا ننقل لفظ الخيرية نفسه إلى كل مهارة نختارها. لكنه يضع أمامنا باباً واضحاً من النفع بالعلم. أما طرائق الشرح والتدرج والتجربة التي نستعملها في تعليم أمر مباح فهي اختيارات بشرية تراجع بحسب الحاجة، ولا تصبح سنناً بمجرد اتصالها بمقصد نافع. ١٧٨

في تعليم مهارة عملية بسيطة، ابدأ بما يريد المتعلم إنجازه. قد نعرف تفاصيل كثيرة فنحب أن نشرحها كلها، بينما يعوقه أمر واحد في البداية. إذا أراد تعلم تنظيم ملفاته، مثلاً، فليس محتاجاً في أول لقاء إلى كل ما تعرفه عن الحاسوب. يمكن أن يتفق معك على مهمة محدودة، ثم يرى مثلاً واضحاً، ثم يجرب بنفسه. يختار التدرج على قدره، ولا يحكم على ذكائه من سرعة محاولته الأولى.

وبين أن يرى الخطوة وأن يستطيع أداءها مسافة تظهر عند التجربة. لذلك لا تكتف بسؤاله: هل فهمت؟ قد يجيب بالموافقة حرجاً، أو يظن أنه فهم ثم يتوقف عندما ينفرد بالمهمة. اقترح أن

يؤدي الجزء الذي تعلمه إن أحب، واترك له وقتاً يخطئ فيه ويصحح، بدل أن تستعيد الأداة من يده عند أول تردد. عدّل هذه الطريقة بحسب استجابة المتعلم وما يناسبه.

إذا تعثر، فابحث معه عن موضع التعثر: لفظ غير مفهوم، أو ترتيب لم يتضح، أو وسيلة يصعب استعمالها، أو تعب يجعل الوقت غير مناسب. لا تجمع هذه الاحتمالات كلها في حكم على إرادته. وقد يكون تعديل الشرح كافياً، وقد يكون الأفضل إرجاء الدرس أو إحالته إلى من يقدر على تعليمه. ومن الأمانة ألا يتحول إصرارك على إكمال ما بدأت به إلى عبء على شخص جاء يطلب عوناً.

ولا تبدأ بتعليم ما لا تثقنه. القدرة على ترديد معلومة لا تكفي لتصحيح قراءة القرآن أو تفسير حكم أو تدريب الناس على عمل خطر. اعرّف حدودك، وبينها لمن يتعلم منك، واستعن بمن يحسن ما يتجاوزها. وفي الأعمال التي تحتاج إلى ترخيص أو أهلية مهنية، لا يغني التشجيع عن التحقق من شروطها في موضعها. والتعليم الأمين يفتح للمتعلم الطريق إلى أهل العلم، ولا يعلق معرفته بشخص واحد.

بعد اللقاء يمكن أن تترك له تذكيراً يسيراً بالخطوات، إذا كان نافعاً له، وأن تبين كيف يصل إلى جواب حين يواجه سؤالاً جديداً. لا يلزم أن يرسل إليك كل محاولة ليبقى شعورك بالمشاركة حاضراً.

الغاية أن يتسع ما يستطيع أداءه، وأن يعرف متى يحتاج إلى طلب مساعدة، لا أن يصبح عاجزاً عن الحركة ما لم تصحبه في كل خطوة.

وقد لا تنتهي المحاولة باستقلال كامل، وهذا لا يبطل فائدتها. ربما استطاع جزءاً وبقي محتاجاً في جزء، أو عرف حد ما يمكنه فعله بأمان. كذلك يبقى العون المباشر لازماً في أحوال لا يناسبها التعليم الآن. الناس ليسوا اختبارات نثبت بها نجاح طريقتنا؛ نعدل الوسيلة من أجلهم، ونفرح بما صار ممكناً لهم، ولو أصبح دورنا بعد ذلك أقل ظهوراً.

القسم الخامس — أخلاق اليد النافعة

الإيثار الذي يبدأ في الصدر

قال الله تعالى في الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَجِبُونَ مِنْ هَاجِرِ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يوقِ شَحْنَهُ فَآوَلَيْكَ هُمُ الْمَفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

قبل أن تذكر الآية ما خرج من أيديهم، ذكرت ما استقر في قلوبهم: يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون حسداً لما أعطي إخوانهم. ثم جاء الإيثار. كأن اليد السخية ثمرة لصدر سليم؛ فمن شق عليه أن يرى فضل الله على غيره قد يثقل عليه البذل أو يشق عليه الفرح بنفع غيره؛ فيحتاج إلى مراجعة قلبه ومجاهدة ما يجد.

قال السعدي في تفسير الآية:

وقوله: { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } أي: ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها على من سواهم، الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بحباب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خلق زكي، ومحبة لله تعالى مقدمة على محبة شهوات النفس ولذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه، حين أثر ضيفه بطعامه

وطعام أهله وأولاده وابتوا جيعاً، والإيثار عكس الأثرة، فالإيثار محمود، والأثرة مذمومة، لأنها من خصال البخل والشح، ومن رزق الإيثار فقد وقى شح نفسه { وَمَنْ يُوقِ شَحِّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } ووقاية شح النفس، يشمل وقايتها الشح، في جميع ما أمر به، فإنه إذا وقى العبد شح نفسه، سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعا منقادا، منشراحا بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهى الله عنه، وإن كان محبوبا للنفس، تدعو إليه، وتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز، بخلاف من لم يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير، الذي هو أصل الشر ومادته، فهذان الصنفان، الفاضلان الزكيان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم، وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات المتقين ١٧٩

والشح أعمق من قلة العطاء؛ هو تعلق يجعل النفس تضيق بحق غيرها، وتريد الخير محبوساً عندها، وتخاف من كل بذل كأنه نقص لا يعوض.

ومع علو منزلة الإيثار، لا يتحول إلى أمر بالتفريط في كل حق للنفس والأهل. من الإيثار ما هو نافلة عظيمة، ومن النفقة ما هو واجب، والواجب لا يهدم طلباً لصورة أرفع في أعين الناس. قد يكون الخير اليوم أن تؤثر محتاجاً بطعامك، وقد يكون أن تحفظ قوت أولادك وتبحث له عن باب آخر. الفقه لا يطفئ حرارة الرحمة؛ هو الذي يمنعها من أن تحرق حقاً وهي تريد إنقاذ حق. والإيثار ليس مآلاً فقط. قد تؤثر غيرك بوقت كنت تحبه، أو فرصة يشتد تعلقك بها وهو أحق، أو مجلس تفسح فيه لمن لا يعرفه أحد، أو إنصابت تمنحه لمن أثقله الكلام. لكن الميزان يبقى واحداً: حق لا يضيع، ونفع مشروع، وقلب لا يطلب أن يستعبد من أحسن إليه.

المعروف الذي لا يجرح

قال الله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

قد يصل المال وتفشل الرحمة. يعطيه صاحبه ثم يعيده في كل مجلس خبراً، أو يذكر المحتاج بفضلها، أو يطلب منه ولاءً لا ينتهي. يظل الرقم في سجل التبرعات، لكن القرآن ينظر إلى ما حدث لكرامة الإنسان بعد أن قبضه.

قال الطبري في تفسير الآية:

قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: (قول معروف)، قول جميل، ودعاء الرجل لأخيه المسلم .. = (ومغفرة)، يعني: وستر منه عليه لما علم من خلته وسوء حالته . = (خير) عند الله = (من صدقة) يتصدقها عليه = (يتبعها أذى)، يعني يشتكيه عليها، ويؤذيه بسببها، كما: -

6037 - حدثني المثنى قال، حدثنا إسحاق قال، حدثنا أبو زهير، عن جوير، عن الضحاك: (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) يقول: أن يمسك ماله خير من أن ينفق ماله ثم يتبعه منّا وأذى. ١٨٠

فإذا لم يجد الإنسان ما يعطيه، بقي في يده أن يرد رداً كريماً، وأن يحفظ على السائل ستره. المال ليس الباب الوحيد، والكلمة ليست تعويضاً رخيصاً إذا خرجت من قلب صادق؛ قد تحمي إنساناً من جرح يبقى أطول من حاجته.

وقبل ذلك ضرب الله مثلاً لمضاعفة أجر الإنفاق، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَبْلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

قال السعدي في تفسير الآية:

هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في قوله مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وهنا قال: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) أي: في طاعته ومرضاته، وأولاهما إنفاقها في الجهاد في سبيله (كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، فتتقاد النفس مذعنة للإنفاق ساححة بها مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة، (والله يضاعف) هذه المضاعفة (لمن يشاء) أي: بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها موقعها، ويحتمل أن يكون (والله يضاعف) أكثر من هذه المضاعفة (لمن يشاء) فيعطيهم أجرهم بغير حساب (والله واسع) الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه نائل ولا يحفيه سائل، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة، لأن الله تعالى لا يتعاضمه شيء ولا ينقصه

العطاء على كثرته، ومع هذا فهو (عليم) بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته. ١٨١

هذا وعد يفتح النفس، لكنه ليس معادلة تجارية آلية لكل مال خرج. فسر السعدي تفاوت المضاعفة بحال المنفق وإخلاصه وصدقه، وبحل النفقة ونفعها ووقوعها موقعها. قد يكون المال حلالاً والمقصد صادقاً، لكنه وضع حيث لا ينفع، أو صنع اعتماداً فاسداً، أو وصل بطريقة أهانت صاحبه. جودة النفع جزء من الأمانة.

ثم نهى الله عن إبطال الصدقات بالمن والأذى، وشبه عمل المرائي بتراب على حجر أملس أصابه المطر فكشفه. صورة مرهبة: عمل يبدو أرضاً قابلة للنماء، ثم لا يبقى منه شيء. ولذلك يحتاج المحسن إلى حراسة عمله بعد فعله كما احتاج إلى إخلاص قبله. يحو من لسانه عبارات التملك: لولاي ما حصل لك، أنا الذي صنعتك، لا تنس فضلي. المحتاج عبد لله، وليس تابِعاً لمن أعانه.

وفي إظهار الصدقة وإخفائها ميزان آخر. قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَبَدَّلَ
الْصَّدَقَاتُ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة:
. [٢٧١]

قال القرطبي في تفسير الآية:

ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع ؛ لأن
الإخفاء فيها أفضل من الإظهار ، وكذلك سائر العبادات
الإخفاء أفضل في تطوعها لانتفاء الرياء عنها ، وليس كذلك
الواجبات . قال الحسن : إظهار الزكاة أحسن ، وإخفاء التطوع
أفضل ؛ لأنه أدل على أنه يراد الله عز وجل به وحده . قال ابن
عباس : جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها يقال
بسبعين ضعفا ، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها
يقال بخمسة وعشرين ضعفا . قال : وكذلك جميع الفرائض
والنوافل في الأشياء كلها .

قلت : مثل هذا لا يقال من جهة الرأي وإنما هو توقيف ، وفي
صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أفضل صلاة
المرء في بيته إلا المكتوبة وذلك أن الفرائض لا يدخلها رياء
والنوافل عرضة لذلك . وروى النسائي عن عقبة بن عامر أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الذي يجهر بالقرآن كالذي يجهر بالصدقة والذي يسر بالقرآن كالذي يسر بالصدقة . وفي الحديث : صدقة السر تطفئ غضب الرب .

قال ابن العربي : وليس في تفضيل صدقة العلانية على السر ، ولا تفضيل صدقة السر على العلانية حديث صحيح ولكنه الإجماع الثابت ، فأما صدقة النفل فالقرآن ورد مصرحا ، بأنها في السر أفضل منها في الجهر ، بيد أن علماءنا قالوا : إن هذا على الغالب مخرجه ، والتحقيق فيه أن الحال في الصدقة تختلف بحال المعطي لها والمعطى إياها والناس الشاهدين لها . أما المعطي فله فيها فائدة إظهار السنة وثواب القدوة .

قلت : هذا لمن قويت حاله وحسنت نيته وأمن على نفسه الرياء ، وأما من ضعف عن هذه المرتبة فالسر له أفضل . وأما المعطي إياها فإن السر له أسلم من احتقار الناس له ، أو نسبته إلى أنه أخذها مع الغنى عنها وترك التعفف ، وأما حال الناس فالسر عنهم أفضل من العلانية لهم ، من جهة أنهم ربما طعنوا على المعطي لها بالرياء وعلى الآخذ لها بالاستغناء ، ولهم فيها تحريك القلوب إلى الصدقة ، لكن هذا اليوم قليل . ١٨٢

نقل القرطبي أن الإخفاء في التطوع أفضل غالباً لصيانة الإخلاص وحرمة الفقير، وأن إظهار الواجب قد يكون أظهر للشعيرة وأبعد عن التهمة. وقد ترجح العلانية إذا أريد بها تعليم الناس أو تحريكهم، بشرط قوة النية وأمن الرياء وصيانة الآخذ.

ليس السؤال إذن: السر دائماً أم العلن دائماً؟ بل: أيهما أصلح للقلب، وأحفظ لوجه المحتاج، وأنفع للناس في هذه الحال؟ قد يكون نشر رقم المشروع النافع مطلوباً، لكن نشر صورة الأسرة

وأسمائها غير مطلوب. وقد يحتاج العمل المؤسسي إلى شفافية الحساب، ولا يحتاج إلى كشف من ستر الله حاجته. نفرق بين إظهار الأثر للحكمة وإظهار الضعيف للدعاية.

ثم ختم السياق بمدح الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية. ليس المقصود برنامجاً عددياً يطالب الإنسان بدفعة في كل ساعة، بل قلب حاضر يرى أبواب الخير في اختلاف الأوقات والأحوال. يعطي حيث يكون العطاء طاعة، ويخفي حيث يكون الستر خيراً، ويظهر حيث تقوم مصلحة راجحة، ثم يمضي ولا يسوق خلف صدقته أذى.

لا تجعل الحاجة إذناً للإهانة

جمع الله في ختام سورة الضحى ضعفين ظاهرين: يتيماً قد لا يملك من يدفع عنه، وسائلاً أظهر حاجته. فقال: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [الضحى: ٩-١٠].

قال الطبري في تفسير الآية:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ) يا محمد (فَلَا تَقْهَرْ) يقول: فلا تظلمه، فتذهب بحقه، استضعافاً منك له. ١٨٣

قال الطبري في تفسير الآية:

وقوله: (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) يقول: وأما من سألك من ذي حاجة فلا تنهره، ولكن أطعمه واقض له حاجته. ١٨٤

١٨٣. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة الضحى، الآية ٩.

١٨٤. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة الضحى، الآية ١٠.

قال السعدي في تفسير الآية:

{ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ } أي: لا تسيء معاملته اليتيم، ولا يضيق صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه ما تيسر، واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك. ١٨٥

قال السعدي في تفسير الآية:

{ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ } أي: لا يصدر منك إلى السائل كلام يقتضي رده عن مطلوبه، بنهر وشراسة خلق، بل أعطه ما تيسر عندك أو رده بمعروف [واحسان].

وهذا يدخل فيه السائل للمال، والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأموراً بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده، وإكراماً لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد.^{١٨٦}

فسر الطبري القهر بالظلم والذهاب بالحق استضعافاً، والنهر بزجر صاحب الحاجة. ووسع السعدي المعنى إلى حسن المعاملة والرد بالمعروف إذا لم يتيسر العطاء.

ربما لا تستطيع أن تعطي كل سائل، وربما وجب أن تتحقق من الطلب أو توجه صاحبه إلى جهة أقدر. لكن العجز عن المال لا يبيح القسوة. تستطيع أن تصون نبرة صوتك، وأن تختصر الاعتذار من غير تعيير، وألا تجعل المحتاج يعيد قصته على مسامع مجلس كامل. وتستطيع المؤسسة أن تسأل عن القدر اللازم فقط، وأن تحفظ البيانات، وألا تحول المساعدة إلى عرض علني لضعف الناس.

وكذلك اليتيم لا يخدمه عطف موسمي يعقبه تحكم في ماله أو احتقار لرأيه. أول النفع ألا يضيع حقه، ثم تأتي الرعاية والتعليم والإكرام. فالحسن لا يشتري بالعطاء سلطة على كرامة الضعيف؛ إنما يؤدي أمانة، ويرجو أن يلقي الله وقد حفظ الحق والقلب معاً.

١٨٦. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة الضحى، الآية 10.

العفو الذي يداوي ولا يطلق الأذى

قال الله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

قال السعدي في تفسير الآية:

ذكر الله في هذه الآية، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم.

فمرتبة العدل، جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: { فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } يجزيه أجرا عظيما، وثوابا كثيرا، وشرط الله في العفو والإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورا به.

وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فليَعْفُ عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: { إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم. ١٨٧

في الآية مساحة للحق ومساحة للفضل، وبينهما حد يمنع الظلم. للمعتدى عليه أن يأخذ مثل حقه من غير زيادة، وله أن يعفو إذا كان العفو يصلح. نلخص السعدي المراتب في ثلاث: عدل بالمماثلة، وفضل بالعفو والإصلاح، وظلم بالتجاوز. ليست الخيارات متساوية من جهة الفضل، لكنها ليست منفصلة عن أثرها.

قد يكون العفو دواء حين يوقظ الندم، ويقطع دورة الخصومة، ويحفظ علاقة يمكن إصلاحها. وقد يكون إسقاطاً للحماية حين يفهمه المعتدي ضعفاً فيكرر أذاه. ولهذا لم تقل الآية: فمن عفا

فقط؛ قالت: ﴿عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [الشورى: ٤٠]. قيد الإصلاح بمنعنا من مطالبة كل مجروح بأن يعود إلى الموضع الذي جرح فيه باسم السماح.

ولا يجوز أن يتحول الثناء على العفو إلى ضغط على الضحية. من حقها أن تطلب حقها بالطريق المشروع، ولا يلام صاحب الحق لأنه لم يبلغ مرتبة التنازل، ولا يحق للمجتمع أن يحمي سمعته بإخفاء المعتدي. وقد نتعلق بالفعل حقوق عامة أو حماية لأناس آخرين، فلا يملك الفرد أن يسقط كل آثاره.

وفي الجهة الأخرى، أخذ الحق ليس إذناً للتشفي. المماثلة سقف، والظلم لا يصير عدلاً لأن المظلوم السابق ارتكبه. يحتاج الإنسان عند القدرة إلى قلب لا تزيده المرارة على قدر حقه، وإلى نظام أو حكم يمنع التقدير الغاضب من أن يصنع اعتداءً جديداً.

ومن فقه النفع أن تعرف متى تدعو إلى العفو، ومتى تصمت احتراماً لصاحب الألم، ومتى تعينه على استرداد حقه، ومتى تحيله إلى جهة تحميه. الجميل في العفو لا يلغى، والعدل في المطالبة لا يشوه، والميزان هو الإصلاح الذي لا يحب الله معه الظالمين.

إحسان لا تلغيه الإساءة

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

عن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، قالت:

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتَهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةِ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ مَا نَزَلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أَحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأَنْزَلُ فِيهِ فَسَرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلْ، وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ أَذِنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ أَذْنُوا بِالرَّحِيلِ، فَشِيتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَإِذَا عَقْدٌ لِي مِنْ جَزَعِ ظَفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ فَالْتَمَسْتُ عَقْدِي وَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَرِحُونَ لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ رَكِبْتُ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النَّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خَفَافًا لَمْ يَثْقُلْنِ اللَّحْمُ، إِنَّمَا تَأْكُلُ الْعَلَقَةَ مِنَ الطَّعَامِ فَلَمْ يَسْتَنَكِرِ الْقَوْمُ خِيفَةَ الْهُودَجِ حِينَ رَفَعُوهُ،

وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ
عَقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَقَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ، وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا
مُجِيبٌ، فَأَمِيتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ وَظَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي
فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ فِينَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ
صَفْوَانُ بْنُ الْمَعْطَلِ السَّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَدْلَجَ
فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ
رَأَانِي، وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحَجَابِ، فَاسْتَيْقِظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ
عَرَفَنِي فَخَمَرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَاللَّهُ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً وَلَا سَمِعْتُ
مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئْتُ عَلَى يَدَيْهَا
فَرَكِبْتُهَا فَانْطَلَقَ يَقُودُنِي الرَّاحِلَةُ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ، بَعْدَ مَا نَزَلُوا
مَوْغَرِينَ فِي نَحْرِ الظُّهَيْرَةِ، فَهَلَكَ مِنْ هَلَكٍ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى
الْإِفْكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سُلُوفٍ فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ
قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يَفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكَ، لَا أَشْعُرُ
بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِينِي فِي وَجْعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ
أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ
يَقُولُ "كَيْفَ تَكُومُ". ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَلِكَ الَّذِي يَرِينِي، وَلَا
أَشْعُرُ حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَ مَا نَقَعْتُ، فَخَرَجْتُ مَعِيَ أَمْ مَسْطُحٌ قَبْلَ
الْمَنَاصِعِ، وَهُوَ مُتَبَرِّزُنَا، وَكَمَا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ
قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكَنْفَ قَرِيبًا مِنْ بَيْوتِنَا، وَأَمَرْنَا أُمَّ الْعَرَبِ الْأُولَى

فِي التَّبَرُّزِ قَبْلَ الْغَائِطِ، فَكُنَّا تَتَأَذَى بِالْكُنْفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بَيُوتِنَا
 فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مُسَطَّحٍ، وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رَهْمٍ بْنِ عَبْدِ مَنْفٍ،
 وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مُسَطَّحُ بْنُ
 أَثَاثَةَ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مُسَطَّحٍ قَبْلَ بَيْتِي، قَدْ فَرَعْنَا مِنْ شَأْنِنَا،
 فَعَثَرْتُ أُمُّ مُسَطَّحٍ فِي مَرْطِهَا فَقَالَتْ تَعَسَ مُسَطَّحٌ. فَقُلْتُ لَهَا
 بَشْ مَا قُلْتَ أَتَسِينِ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا قَالَتْ أَيْ هُنْتَاهُ، أَوَلَمْ
 تَسْمَعْ مَا قَالَ قَالَتْ قُلْتُ وَمَا قَالَ فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ
 فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي وَدَخَلْتُ عَلَى
 رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعْنِي سَلَّمَ ثُمَّ قَالَ "كَيْفَ تَيْكُمُ
 ". فَقُلْتُ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَتِيَ أَبُوبَ قَالَتْ وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ
 أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قَبْلِهِمَا، قَالَتْ فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجِئْتُ أَبُوبَ فَقُلْتُ لِأُمِّي يَا أُمَّتَاهُ، مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ
 قَالَتْ يَا بَنِيَّةُ، هُوَنِي عَلَيْكَ فَوَاللَّهِ، لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةً قَطُّ وَضِيئَةً
 عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثُرْنَ عَلَيْهَا. قَالَتْ فَقُلْتُ سُبْحَانَ
 اللَّهِ وَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا قَالَتْ فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى
 أَصْبَحْتُ لَا يَرِقَا لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ يَوْمٍ حَتَّى أَصْبَحْتُ أَبْكِي
 فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأَسَامَةَ
 بْنَ زَيْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيَ، يَسْتَأْمِرُهُمَا فِي
 فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ فَأَمَّا أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي

نَفْسِهِ مِنَ الْوُدِّ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَهْلَكَ، وَمَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا،
وَأَمَّا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ
وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَإِنْ تَسْأَلُ الْجَارِيَةَ تَصَدُّقَكَ، قَالَتْ فَدَعَا
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيرَةَ فَقَالَ "أَيُّ بَرِيرَةٍ، هَلْ رَأَيْتَ
عَلَيْهَا مِنْ شَيْءٍ يَرِيْبُكَ". قَالَتْ بَرِيرَةُ لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ
رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا أَغْمَصُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنْهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ،
تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَعَذَرَ يَوْمَئِذٍ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَرْزَةَ سَلُولَ،
قَالَتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ "يَا
مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ، قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ
بَيْتِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا، مَا
عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي". فَقَامَ
سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ،
إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ، ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ
الْخَزْرَجِ، أَمَرْتَنَا، فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، قَالَتْ فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ وَهُوَ
سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ
الْحِمْيَةُ فَقَالَ لِسَعْدٍ كَذَبْتَ، لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ،
فَقَامَ أَسِيدُ بْنُ حَضِيرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ
كَذَبْتَ، لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّكَ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ،
فَتَتَّوَرَّعُ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هُمَا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللَّهِ

صلى الله عليه وسلم قائمٌ على المنبر، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت فأصبح أبواي عندي - وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع - يظنان أن البكاء فالتى كبدي، قالت فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت على امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً، لا يوحى إليه في شأني، قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال "أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه". قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته، قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال. قال والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لأبي أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالت فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن، إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى

اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَصَدَقْتُمْ بِهِ فَلَنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيءَةٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 أَنِّي بَرِيءَةٌ لَا تَصَدَّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 أَنِّي مِنْهُ بَرِيءَةٌ لَتَصَدَّقَنِي، وَاللَّهُ مَا أَجِدُ لَكُمْ مِثْلًا إِلَّا قَوْلَ أَبِي
 يُوسُفَ قَالَ { فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } قَالَتْ ثُمَّ
 تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، قَالَتْ وَأَنَا حِينَئذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيءَةٌ،
 وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِرَّاءَتِي، وَلَكِنَّ اللَّهَ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مَنْزِلُ
 فِي شَأْنِي وَحْيًا يَتَلَى، وَلِشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحَقَرُ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ
 اللَّهُ فِي بَأْمَرٍ يَتَلَى، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يَبْرِئُنِي اللَّهُ بِهَا، قَالَتْ فَوَاللَّهِ مَا رَأَى
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ
 حَتَّى أَنْزَلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبَرَحَاءِ حَتَّى إِنَّهُ
 لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجَمَانِ مِنَ الْعَرَقِ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ
 الْقَوْلِ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَيْهِ، قَالَتْ فَلَمَّا سَرَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرَى عَنْهُ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا “
 يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ بَرَّأَكَ”. فَقَالَتْ أُمِّي قُومِي إِلَيْهِ.
 قَالَتْ فَقُلْتُ وَاللَّهِ، لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.
 وَأَنْزَلَ اللَّهُ { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ }
 الْعَشْرَ الْآيَاتِ كُلَّهَا، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بِرَّاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ
 الصِّدِّيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُنَاسَةَ لِقَرَابَتِهِ
 مِنْهُ، وَفَقَرَهُ وَاللَّهُ لَا أَنْفَقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ

لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ {وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} قَالَ أَبُو بَكْرٍ بَلَى، وَاللَّهُ إِنِّي أَحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مَسْطُوحِ النِّفَقَةِ الَّتِي كَانَ يَنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا. قَالَتْ عَائِشَةُ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُ زَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ " يَا زَيْنَبُ مَاذَا عَلِمْتَ أَوْ رَأَيْتِ ". فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصْرِي، مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا. قَالَتْ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِنِي مِنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ، وَطَفَقَتْ أَخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْإِفْكِ. ١٨٨

هنا يبلغ الإحسان منزلة شاقة: ألا تجعل إساءة المنتفع مالكة لعمل قصدت به الله. الألم حقيقي، والخطأ لم يسمه القرآن صواباً، والعفو لم يمح قبح المشاركة في الإفك؛ لكن صاحب الفضل دعي إلى ألا يجعل غضبه يغلق باباً كان يفتحه للقرابة والفقر والهجرة.

لا تعني الآية أن كل علاقة مؤذية تعود كما كانت، ولا أن الإنسان يعرض نفسه ومن يحميم للخطر، ولا أن المسيء يعفى من الحقوق العامة. إنما تكشف للقلب سؤالاً خفياً: لمن كنت تحسن؟ إذا كان إحسانك لا يعيش إلا ما دام الناس يحسنون إليك، فقد كان فيه من المعاوضة أكثر مما ظننت.

قد تحتاج بعد الإساءة إلى حدود جديدة، وطريقة أأمن للعطاء، ووسيط يحمل النفقة، ومسافة تحمي النفس؛ لكن لا تجعل الألم وحده فتوى تقطع بها كل خير. بين الاستسلام للأذى والانتقام بحرمان الضعيف طريق ثالث: إحسان وإع، يحفظ الحق ولا يجعل الغضب رباً للعمل.

أقوى الردود ليس أشدها

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۚ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۚ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

قال الطبري في تفسير الآية:

وقوله: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى الله عليه وسلم: ادفع يا محمد بحلمك جهل من جهل عليك، وبغفوك عن أساء إليك إساءة المسيء، وبصبرك عليهم مكروه ما تجدد منهم، ويلقاك من قبلهم. ١٨٩

قال السعدي في تفسير الآية:

يقول تعالى: { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ } أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق، ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ }

ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك، فقال: { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصاً من له حق كبير عليك، كالأقارب، والأصحاب، ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فصله، وإن ظلمك، فاعف عنه، وإن تكلم فيك، غائباً أو حاضراً، فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين. وإن هجرك، وترك خطابك، فطيب له الكلام، وابذل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة.

{ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } أي: كأنه قريب شفيق. ١٩٠

لهذا جاءت الآية التالية بالصبر؛ فالرد الأول سهل لأنه ابن اللحظة، أما الرد الأحسن فيحتاج أن تمسك نفسك حتى ترى العاقبة.

لا تطلب الآية من الإنسان أن يسمي الخوف حلماً، أو العجز عفواً، أو السكوت عن الجريمة إحساناً. وقد تقدم أن القرآن يأمر برد البغي، ويبيح للمظلوم أن يأخذ حقه بالعدل. «التي هي أحسن» أوسع من صورة واحدة: قد تكون كلمة لينة تطفئ

خصومة، وقد تكون انسحاباً هادئاً يمنع شراً، وقد تكون منعاً واضحاً لا يجرح، وقد تكون بلاغاً يحمي من سيقع عليه الأذى بعدك.

المعيار ليس ما يجعلك تبدو أطيّب الناس في أعينهم، بل ما هو أحسن عند الله وأصلح في أثره. أحياناً يكون العفو باب تحول حتى يصير العدو قريباً، وأحياناً لا يتغير المعتدي. لا تعد الآية بأن كل مسيء سيصبح ولياً، لكنها تعلمك ألا تسلمه قيادة روحك. حين تختار الرد الأحسن، تكون قد منعت سيئته من أن تنسخ نفسها فيك.

حين يضيق المال ويتسع القلب

وصف الله المتقين بأنهم ﴿الَّذِينَ لَا يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. جمع في آية واحدة حركة اليد حين تعطي، وحركة النفس حين تقدر على الرد فلا تنقاد لغضبها. كأن الإحسان ليس ما يخرج من المال فقط؛ بل ما تمنعه عن الناس من أذى كان في وسعك أن تطلقه.

قال السعدي في تفسير الآية:

ثم وصف المتقين وأعمالهم، فقال: { الذين ينفقون في السراء والضراء } أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً ولو قل. { والكاظمين الغيظ } أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم -وهو امتلاء قلوبهم من الحق، الموجب للانتقام بالقول والفعل-، هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم. { والعافين عن الناس } يدخل في العفو عن الناس، العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتخلّى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحساناً إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: { فمن عفا وأصلح فأجره على الله } ثم ذكر حالة أعم من غيرها، وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان، فقال [تعالى]: { والله يحب المحسنين } والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق. [والإحسان إلى المخلوق، فالإحسان في عبادة الخالق]. فسرّها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: “أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم

تكن تراه فإنه يراك” وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندي وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبده. ١٩١

قد يكون نفع صاحب السعة مالا واسعا، ونفع صاحب الضيق ساعة تعليم، أو حملا عن متعب، أو اتصالا يفتح بابا، أو وجبة صغيرة لا تضع نفقة واجبة. دوام الصلة بالخير أهم من تمثيل قدرة ليست لك.

قال القرطبي في تفسير الآية:

الثانية : وكظم الغيظ رده في الجوف ; يقال : كظم غيظه أي سكت عليه ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بعدوه ، وكظمت السقاء أي ملأته وسددت عليه ، والكظامة ما يسد به مجرى الماء ; ومنه الكظام للسير الذي يسد به فم الزق والقربة . وكظم

البعير جرتة إذا ردها في جوفه ؛ وقد يقال لحبسه الجرة قبل أن يرسلها إلى فيه : كظم ؛ حكاه الزجاج . يقال : كظم البعير والناقة إذا لم يجترا ؛ ومنه قول الراعي :

فأفرض بعد كظومهن بجرة من ذي الأبارق إذا رعين حقيلا

الحقيل : موضع . والحقيل : نبت . وقد قيل : إنها تفعل ذلك عند الفزع والجهد فلا تجتر ؛ قال أعشى باهلة يصف رجلا نحارا للإبل فهي تفزع منه :

قد تكظم البزل منه حين تبصره حتى تقطع في أجوافها الجرر

ومنه : رجل كظيم ومكظوم إذا كان ممتثا غما وحرنا . وفي التنزيل : وابتضت عيناه من الحزن فهو كظيم . ظل وجهه مسودا وهو كظيم . إذ نادى وهو مكظوم . والغيط أصل الغضب ، وكثيرا ما يتلازمان لكن فرقان ما بينهما ، أن الغيط لا يظهر على الجوارح ، بخلاف الغضب فإنه يظهر في الجوارح مع فعل ما ولا بد ؛ ولهذا جاء إسناد الغضب إلى الله تعالى إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم . وقد فسر بعض الناس الغيط بالغضب ؛ وليس بجيد ، والله أعلم . ١٩٢

١٩٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تفسير سورة آل عمران، الآية 134.

قال القرطبي في تفسير الآية:

الثالثة : قوله تعالى : والعافين عن الناس العفو عن الناس أجل ضروب فعل الخير ; حيث يجوز للإنسان أن يعفو وحيث يتجه حقه . وكل من استحق عقوبة فترك له فقد عفي عنه . واختلف في معنى عن الناس ; فقال أبو العالية والكلبي والزجاج : والعافين عن الناس يريد عن الممالك . قال ابن عطية : وهذا حسن على جهة المثال ; إذ هم الخدمة فهم يذنبون كثيرا والقدرة عليهم متيسرة ، وإنفاذ العقوبة سهل ; فذلك مثل هذا المفسر به . وروي عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم بصحفة فيها مرقة حارة ، وعنده أضياف فعثرت فصبت المرققة عليه ، فأراد ميمون أن يضربها ، فقالت الجارية : يا مولاي ، استعمل قوله تعالى : والكاظمين الغيظ قال لها : قد فعلت . فقالت : اعمل بما بعده والعافين عن الناس . فقال : قد عفوت عنك . فقالت الجارية : والله يحب المحسنين . قال ميمون : قد أحسنت إليك ، فأنت حرة لوجه الله تعالى . وروي عن الأحنف بن قيس مثله . وقال زيد بن أسلم : والعافين عن الناس عن ظلمهم وإساءتهم . وهذا عام ، وهو ظاهر الآية . وقال مقاتل بن حيان في هذه الآية : بلغنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال عند ذلك : إن هؤلاء من أمتي قليل إلا من عصمه الله وقد كانوا كثيرا في الأمم التي مضت . فمدح الله

تعالى الذين يغفرون عند الغضب وأثنى عليهم فقال : وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، وأثنى على الكاظمين الغيظ بقوله : والعافين عن الناس ، وأخبر أنه يحبهم بإحسانهم في ذلك . ووردت في كظم الغيظ والعفو عن الناس وملك النفس عند الغضب أحاديث ؛ وذلك من أعظم العبادة وجهاد النفس ؛ فقال - صلى الله عليه وسلم - : ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب . وقال عليه السلام ما من جرعة يتجرعها العبد خير له وأعظم أجرا من جرعة غيظ في الله . وروى أنس أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما أشد من كل شيء ؟ قال : (غضب الله) . قال فما ينجي من غضب الله ؟ قال : (لا تغضب) . قال العرجي :

وإذا غضبت فكن وقورا كاظما للغيظ تبصر ما تقول وتسمع فكفى به شرفا تبصر ساعة يرضى بها عنك الإله وترفع وقال عروة بن الزبير في العفو :

لن يبلغ المجد أقوام وإن شرفوا حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام ويشتموا فترى الألوان مشرقة لا عفو ذل ولكن عفو إكرام وروى أبو داود وأبو عيسى الترمذي عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على

رءوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء قال : هذا حديث حسن غريب . وروى أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان أجره على الله فليدخل الجنة . فيقال من ذا الذي أجره على الله فيقوم العافون عن الناس يدخلون الجنة بغير حساب . ذكره الماوردي . وقال ابن المبارك : كنت عند المنصور جالسا فأمر بقتل رجل ; فقلت : يا أمير المؤمنين ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إذا كان يوم القيامة نادى مناد بين يدي الله - عز وجل - من كانت له يد عند الله فليتقدم فلا يتقدم إلا من عفا عن ذنب فأمر بإطلاقه . ١٩٣

وكظم الغيظ ليس إنكاراً لوجوده . فسرہ القرطبي بحبسه مع القدرة على إنفاذه، ثم جعل العفو ترك المؤاخذة حيث يجوز للإنسان أن يعفو ويتجه حقه . ولهذا لا نطالب مظلوماً أن يسقط

١٩٣ . الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تفسير سورة آل عمران، الآية 134 .

حق طفل أو شريك أو مجتمع، ولا نسمي ترك المعتدي يكرر أذاه عفوًا. قد يكون الإصلاح في الصفح، وقد يكون في حد واضح أو شهادة أو قضاء يمنع ضرراً جديداً.

المسافة بين الغضب والقرار باب من أبواب نفع الناس. فيها يتوقف اللسان قبل الإهانة، وتؤجل الرسالة حتى يهدأ القلب، ويميز الإنسان بين حق يريد استرداده وكبرياء يريد إشباعه. فإذا اختار العفو اختاره من موضع وعي وقدرة، وإذا طلب العدل طلبه بلا تشف. كلاهما قد يكون إحساناً إذا وضع في موضعه.

رفق لا يلغي القرار

بعد ما وقع في أحد خطب الله نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. لم تجعل الآية الخطأ سبباً لطرد الناس من دائرة المشاركة، ولم تجعل الرحمة امتناعاً عن القرار.

قال الطبري في تفسير الآية:

فتأويل الكلام: فبرحمة الله، يا محمد، ورأفته بك وبمن آمن بك من أصحابك = "لنت لهم"، لتبأعك وأصحابك، فسهلت لهم خلائتك، وحسنت لهم أخلاقك، حتى احتملت أذى من نالك منهم أذاه، وعفوت عن ذي الجرم منهم جرمه، وأغضيت عن كثير ممن لو جفوت به وأغلظت عليه لتركك ففارقك ولم يتبعك ولا ما بعثت به من الرحمة، ولكن الله رحمهم ورحمك معهم، فبرحمة من الله لنت لهم. كما:-

8120- حدثنا بشر قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة: "ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك"، أي والله، لطهره الله من الفظاظة والغلظة، وجعله قريباً رحيماً

بالمؤمنين رءوفاً = وذكر لنا أن نعت محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة: "ليس بفظ ولا غليظ ولا صخوب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلهما، ولكن يعفو ويصفح". ١٩٤

قال الطبري في تفسير الآية:

فقال بعضهم: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: "وشاورهم في الأمر"، بمشاورة أصحابه في مكاييد الحرب وعند لقاء العدو، تطيباً منه بذلك أنفسهم، وتألّفاً لهم على دينهم، وليروا أنه يسمع منهم ويستعين بهم، وإن كان الله عز وجل قد أغناه = بتدبيره له أموره، وسياسته إياه وتقويمه أسبابه = عنهم. ١٩٥

١٩٤. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة آل عمران، الآية 159.

١٩٥. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة آل عمران، الآية 159.

قال الطبري في تفسير الآية:

وقال آخرون: بل أمره بذلك في ذلك. ليبين له الرأي وأصوب الأمور في التدبير، لما علم في المشورة تعالى ذكره من الفضل. ١٩٦

قال الطبري في تفسير الآية:

وقال آخرون: إنما أمره الله بمشاورة أصحابه فيما أمره بمشاورتهم فيه، مع إغناؤه بتقويمه إياه وتدييره أسبابه عن آرائهم، ليتبعه المؤمنون من بعده فيما حزبهم من أمر دينهم، ويستنوا بسنته في ذلك، ويحتذوا المثل الذي رأوه يفعله في حياته من مشاورته في أموره = مع المنزلة التي هو بها من الله = أصحابه وتباعه في الأمر ينزل بهم من أمر دينهم ودنياهم، فيتشاوروا بينهم ثم يصدروا عما اجتمع عليه ملؤهم. لأن المؤمنين إذا تشاوروا في أمور دينهم متبعين الحق في ذلك، لم يخلهم الله عز وجل من لطفه وتوفيقه للصواب من الرأي والقول فيه. قالوا: وذلك نظير قوله عز وجل الذي مدح به أهل الإيمان: وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ [سورة الشورى: 38]. ١٩٧

١٩٦. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة آل عمران، الآية 159.

١٩٧. جامع البيان، الطبري، تفسير سورة آل عمران، الآية 159.

قال الطبري في تفسير الآية:

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال: إن الله عز وجل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه فيما حزه من أمر عدوه ومكايد حربه، تألفاً منه بذلك من لم تكن بصيرته بالإسلام البصيرة التي يؤمن عليه معها فتنة الشيطان = وتعريفاً منه أمته مأتى الأمور التي تحزبهم من بعده ومطلبها، ليققدوا به في ذلك عند النوازل التي تنزل بهم، فيتشاوروا فيما بينهم، كما كانوا يرونه في حياته صلى الله عليه وسلم يفعله. فأما النبي صلى الله عليه وسلم، فإن الله كان يعرفه مطالب وجوه ما حزه من الأمور بوحيه أو إلهامه إياه صواب ذلك. وأما أمته، فإنهم إذا تشاوروا مستتين بفعله في ذلك، على تصادق وتأخج للحق، وإرادة جمعهم للصواب، من غير ميل إلى هوى، ولا حيد عن هدى، فالله مسددهم وموفقهم. ١٩٨

قال السعدي في تفسير الآية:

أي: برحمة الله لك ولأصحابك، من الله عليك أن أنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك. { ولو كنت فظا { أي: سيئ الخلق { غليظ القلب { أي: قاسيه، { لانفضوا من حولك { لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيئ. فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟! أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به صلى الله عليه وسلم، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله، وجذباً لعباد الله لدين الله. ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه صلى الله عليه وسلم، ويستغفر لهم في التقصير في حق الله، فيجمع بين العفو والإحسان. { وشاورهم في الأمر { أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره: منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

ومنها: أن فيها تسميحاً لخواطرتهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس -إذا جمع أهل الرأي: والفضل وشاورهم في حادثة من الحوادث- اطمأنت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس بمستبد عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبدلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة، ولا يطيعونه وإن أطاعوه فطاعة غير تامة. ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول. ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي: المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب، فليس بملوم، فإذا كان الله يقول لرسوله -صلى الله عليه وسلم- وهو أكمل الناس عقلاً، وأغزرهم علماً، وأفضلهم رأياً: { وشاورهم في الأمر } فكيف بغيره؟! ثم قال تعالى: { فإذا عزمتم } أي: على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلى استشارة { فتوكل على الله } أي: اعتمد على حول الله وقوته، متبرئاً من حولك وقوتك، { إن الله يحب المتوكلين } عليه، اللاجئين إليه. ١٩٩

وبعد الشورى يأتي العزم؛ فلا تبقى المشاورة مجلساً يعيد السؤال نفسه فراراً من المسؤولية. ينظر صاحب القرار فيما سمع، ويتحرى الصواب، ثم يعتمد على الله ويمضي فيما ترحح له، مع استعداده لتصحيح الخطأ إن تبين.

هذا ميزان لكل من بيده أثر في حياة غيره: أب، ومعلم، ومدير، وقائد فريق، ومسؤول عن مبادرة خيرية. القسوة قد تجعل الناس يخفون المعلومة التي تحتاج إليها، والمشاورة الشككية تعلمهم أن كلامهم لا يغير شيئاً، والتردد الطويل يضيع حاجات من ينتظرون. أما الرفق الصادق فيسمع بلا إذلال، ويعفو عما يملك العفو عنه، ويطلب الرأي من أهله، ثم يعلن القرار وأسبابه ويتحمل تبعته.

ليست كل مخالفة خيانة، وليس كل لين ضعفاً، وليس كل حسم استبداداً. الرحمة القيادية قلب لا يقسو على المخطئ، وعقل لا يستغني عن أهل الرأي، وإرادة لا تحتج خلفهم إذا جاء وقت العمل. بهذه الثلاثة يصبح حسن الخلق وسيلة لحفظ المصلحة، لا مجرد صورة لطيفة حول سلطة لم تتغير.

لين أمام أعنى قوة

أرسل الله موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون، ثم قال:
﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

قال القرطبي في تفسير الآية:

قلت : القول اللين هو القول الذي لا خشونة فيه ؛ يقال : لان الشيء يلين لينا ؛ وشيء لين ولين مخفف منه ؛ والجمع ألياء . فإذا كان موسى أمر بأن يقول لفرعون قولاً لينا ، فمن دونه أخرى بأن يقتدي بذلك في خطابه ، وأمره بالمعروف في كلامه . وقد قال تعالى وقولوا للناس حسناً . على ما تقدم في (البقرة) بيانه والحمد لله ٢٠٠

قال السعدي في تفسير الآية:

{ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا } أي: سهلاً لطيفاً، برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف، ولا غلظة في المقال، أو فظاظة في الأفعال، { لَعَلَّهُ } بسبب القول اللين { يَتَذَكَّرُ } ما ينفعه فيأتيه، { أَوْ يَخْشَى } ما يضره فيتركه، فإن القول اللين داع لذلك، والقول الغليظ منفر عن صاحبه، وقد فسر القول اللين في قوله: { فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى } فإن في هذا الكلام، من لطف القول وسهولته، وعدم بشاعته ما لا يخفى على المتأمل، فإنه أتى بـ ” هل ” الدالة على العرض والمشاورة، التي لا يشمئز منها أحد، ودعاه إلى التزكي والتطهر من الأدناس، التي أصلها، التطهر من الشرك، الذي يقبله كل عقل سليم، ولم يقل ” أزكيك ” بل قال: ” تزكى ” أنت بنفسك، ثم دعاه إلى سبيل ربه، الذي رباه، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، التي ينبغي مقابلتها بشكرها، وذكرها فقال: { وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى } فلما لم يقبل هذا الكلام اللين الذي يأخذ حسنه بالقلوب، علم أنه لا ينجع فيه تذكير، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر. ٢٠١

إذا كان اللين مأموراً به في خطاب من بلغ ذلك الطغيان، فهو فيمن دونه أولى من حيث أصل الأدب. عرّفه القرطبي بأنه القول الذي لا خشونة فيه، وشرحه السعدي بالرفق والأدب من غير فحش ولا صلف.

لكن موسى لم يغير حقيقة الرسالة. دعاه إلى التزكي والحشية وعبادة ربه، ولم يسم طغيانه وجهة نظر تستحق أن تبقى بلا بيان. فاللين طريقة حمل الحق، لا حذف الحق من الرسالة. وهو كذلك ليس حيلة مضمونة النتائج؛ فقد بلغ موسى بأحسن طريق ولم يستجب فرعون. نجاح الداعي لا يقاس دائماً بتغير من أمامه، بل بأمانة البلاغ وحسن وسيلته المشروعة.

في حياتنا قد يظن الإنسان أن الصراحة تحتاج إلى إهانة، فيجمع للخصم أخطائه كلها ويقذفها في لحظة غضب. وقد يظن آخر أن الرفق يعني ألا يقول شيئاً، فيترك الضرر يتكرر. الطريق الثالث أصعب وأصدق: تحدد الفعل، وتبين أثره، وتطلب التغيير، وتترك للشخص باب الرجوع من غير إذلال.

ليست كل المقامات سواء؛ للقضاء والعقوبة والحماية أحكامها، وقد يحتاج منع المعتدي إلى قوة مشروعة. لكن القوة نفسها لا تحتاج إلى فحش، والحد لا يحتاج إلى تشف. الرفق الشجاع لسان واضح وقلب لا يتلذذ بكسر من يخاطبه، حتى وهو يمنعه من الظلم.

قبل أن تنطق بالحقيقة

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]. لم يأمر بالقول الحسن فقط، بل بالتي هي أحسن؛ كأن أمام المؤمن أكثر من عبارة صادقة، وعليه أن يختار منها ما يوصل الحق ويغلق باب الفساد.

قال الطبري في تفسير الآية:

وقوله (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم:

وقل يا محمد لعبادي يقل بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاورة والمخاطبة.

كما حدثنا خلاد بن أسلم، قال: ثنا النضر، قال: أخبرنا المبارك، عن الحسن في هذه الآية (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) قال: التي هي أحسن، لا يقول له مثل قوله يقول له: يرحمك الله يغفر الله لك.

وقوله (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ) يقول: إن الشيطان يسوء محاورة بعضهم بعضاً ينزغ بينهم، يقول: يفسد بينهم، يهيج بينهم الشر (إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا) يقول: إن الشيطان كان لآدم وذريته عدواً، قد أبان لهم عداوته بما أظهر لآدم من الحسد، وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة. ٢٠٢

قال السعدي في تفسير الآية:

وهذا من لطفه بعباده حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة فقال:

{ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما.

والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره.

وقوله: { إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ } أي: يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم.

فدواء هذا أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوهم إليها، وأن يلينوا فيما بينهم لينقمع الشيطان الذي ينزغ بينهم فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يحاربوه فإنه يدعوهم { ليكونوا من أصحاب السعير }

وأما إخوانهم فإنهم وإن نزع الشيطان فيما بينهم وسعى في العداوة فإن الحزم كل الحزم السعي في ضد عدوهم وأن يقمعوا أنفسهم الأمانة بالسوء التي يدخل الشيطان من قبلها فبذلك يطيعون ربهم ويستقيم أمرهم ويهدون لرشدتهم.^{٢٠٣}

ليست جودة العبارة زينة بعد اكتمال المعنى؛ إنها جزء من مسؤوليته.

كم من خصومة لم تبدأ باختلاف كبير، بل برسالة قصيرة قرئت على أسوأ وجه، أو تعليق صيغ ليخرج لا يصلح. والشيطان لا يحتاج دائماً أن يختلق قضية جديدة؛ يكفي أن يدفع كل طرف إلى أقصى لفظ يستطيع قوله، ثم يجعل الكرامة أسيرة الرد. لذلك قد يكون النفع أن تمهل، أو تسأل قبل أن تتهم، أو تنقل الملاحظة سراً، أو تبدل حكماً على الشخص بوصف دقيق للفعل.

ومع ذلك ليست «الأحسن» دائماً العبارة الألين وقعاً على السامع. قد تكون كلمة حازمة توقف تعدياً، أو شهادة تكشف حقاً، أو رفضاً واضحاً لطلب محرم. معيارها ليس الراحة الآنية وحدها، بل صدقها وعدلها ومآلها. قبل أن تنطق بالحقيقة، اسأل: هل هذه

٢٠٣. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة الإسراء، الآية 53.

أدق صيغة؟ هل يحتاجها هذا الشخص الآن؟ وهل أريد بها الإصلاح أم الانتصار لنفسي؟ عندها يصبح ضبط اللسان قضاءً لحاجة المجتمع إلى الأمان، لا مجرد تهذيب فردي.

الرحمة ليست ضعفاً تربوياً

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال:

قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ
بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا. فَقَالَ الْأَقْرَعُ إِنَّ لِي عَشْرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا
قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا. فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ
قَالَ "مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ" ٢٠٤

الرحمة تظهر في الفعل القريب، فلا يكون الحنان للصغير نقصاً
يستحي منه الكبير.

لا تكفي دعوى المحبة إذا غاب أثرها عن المعاملة. من صور الرحمة في حياتنا: قرب يطمئن الطفل، وقبلة في موضعها، وكلمة أمان، وإصغاء لا يسخر من خوفه.^{٢٠٥}

ليس في الحديث حصر الرحمة في التقبيل، ولا تفصيل كل مسائل التربية. قد تكون الرحمة حناناً، وقد تكون حماية من عادة مؤذية، وقد تكون حداً واضحاً يقام بلا إذلال ولا انتقام. الفرق بين الرحمة والتسيب أن الأولى تطلب مصلحة الطفل بعلم وعدل، أما الثاني

٢٠٥. فتح الباري، ابن حجر، شرح حديث 5997، ج 10 ص 443-444.

فيريح الكبير لحظته ولو أفسد مستقبل الصغير. والفرق بين الحزم والقسوة أن الحزم يضبط الفعل ويحفظ الكرامة، أما القسوة فتستطيب التخويف وتستعمل ضعف الطفل لإظهار السلطة.

وتحتاج المؤسسات التي تخدم الناس هذا الميزان أيضاً. قد تنجز المدرسة الدرس وتخرج الطالب، وقد يعالج المرفق البدن ويهين المريض، وقد تنهي الجهة الطلب وتترك صاحب الحاجة تائهاً في لغة لا يفهمها. الرحمة هنا لا تعني تعطيل النظام أو تفضيل فرد بغير حق؛ تعني أن يصمم النظام وهو يرى الإنسان، وأن يشرح القرار، ويقلل الألم الممكن، ويمنع الإهانة التي لا يحتاج إليها العدل.

يبدأ تدريب النافع، إذن، من أقرب موضع يستطيع فيه أن يختبر صدقه: هل يأمنه الصغير؟ هل يعرف أهل بيته أن اللطف ليس مكافأة نادرة؟ هل يعتذر إذا جار؟ من السهل أن يتحدث المرء عن رحمة المجتمع، وأصعب منه أن يلين صوته في نهاية يوم متعب. لكن الحديث يعيد الفضيلة إلى الفعل القريب؛ فليس الذي لا يضرب وحده رحيماً، ولا الذي يشعر بالحبّة في باطنه وحده، بل من تظهر رحمته في معاملة تحفظ وتصلح.

حين لا يصير المعروف سلطاناً

ليست كل يد ممتدة بالعطاء بعيدة عن آفات النفس. قد يخرج المال من الكف، ثم يبقى لصاحبه خيط يشد به المنتفع إليه: يذكره بما صنع، وينتظر منه ولاءً زائداً، ويغضب إذا لم يسمع الثناء الذي رسمه في خياله. وقد تصل الخدمة كاملة في ظاهرها، لكن صاحب الحاجة يخرج منها أصغر في نظر نفسه؛ لأن كل خطوة ذكّرت به بضعفه، أو لأن قصته صارت صورة يتداولها من لم يأذن لهم بمعرفتها.

ولهذا لا تكفي سلامة النتيجة الظاهرة وحدها. القرآن يضع المن والأذى إلى جوار الصدقة كي نتعلم أن الطريق جزء من العمل، وأن المعروف قد يفسد من الجهة التي ظن صاحبها أنه قد فرغ منها. وفي المقابل يجعل القول المعروف والمغفرة خيراً من عطاء يتبعه جرح. ليس معنى هذا أن الكلمة تغني دائماً عن الحق أو المال، بل أن المال لا يمنح صاحبه رخصة لإهانة من أخذه. ٢٠٦

أول أخلاق اليد النافعة أن تعرف لمن تعمل. لا يستطيع أحد أن يشهد لنفسه بالإخلاص، ولا أن يحول هدوء قلبه لحظة العمل إلى ضمان للقبول. لكنه يستطيع أن يفتش عن العلامات التي بين يديه: هل يضيق إذا نسي الناس اسمه؟ هل يذكر المعروف عند أول خلاف؟ هل يحب أن يبقى الآخر محتاجاً إليه كي تبقى له منزلته؟ وهل ينشر من القصة ما يخدم المحتاج أم ما يصنع للمحسن صورة؟ هذه أسئلة محاسبة، لا أحكام على السرائر.

٢٠٦. القرآن الكريم: البقرة 262-264 و271؛ جامع البيان، الطبري؛ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي؛ تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير هذه الآيات.

قال السعدي في تفسير سورة الإنسان، الآية 9:

ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: { إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا } أي: لا جزاء مالياً ولا ثناء قولياً. ٢٠٧

وقد مدح الله من يطعمون ابتغاء وجهه، وقرر المفسرون أن صدق القصد لا يحتاج أن يتحول إلى شعار يقال عند كل لقمة. ربما كان الصمت أصدق، وربما احتيج إلى الإعلان ليقتيدي الناس أو لتوثق أمانة عامة. الفرق لا يحسمه ظهور العمل أو خفاؤه وحده، بل المقصد والطريقة وما يترتب على كل واحد منهما. لذلك لا نجعل السرية عبادة مستقلة في كل موضع، ولا نجعل نجاح الحملة شهادة للقلوب. ٢٠٨

وإنخلق الثاني أن تحفظ كرامة من تنفعه. السائل لا يفقد حقه في الأدب لأنه سأل، واليتيم لا تصير حاجته إذناً لقهره، والعجز عن تلبية الطلب لا يبيح النهر. قد تحتاج إلى التحقق، وقد لا تملك إعطاء المطلوب، وقد يكون في الطلب ضرر لا يجوز أن تعين

٢٠٧. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة الإنسان، الآية 9.

٢٠٨. جامع البيان، الطبري؛ تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة الإنسان، الآيتان 8-9.

عليه؛ لكن كل ذلك يمكن أن يقال بلا احتقار. أحياناً يكون أول النفع أن يسمع الإنسان جواباً واضحاً لا يضيف إلى حاجته نجلاً جديداً. ٢٠٩

والرفق ليس كلمة رخوة تغطي التردد. حين أمر الله موسى وهارون بالقول للين لم يتغير مضمون الرسالة، وحين ذكر اللين والمشاورة جاء بعدهما العزم والتوكل. الرحمة في الطريق لا تعني ترك القرار؛ إنها أن تحمل الحقيقة بأحسن عبارة قادرة عليها، وأن تسمع قبل أن تعزم، ثم تمضي إذا اتضح وجه العمل. والقسوة لا تصبح شجاعة لمجرد أنها رفعت صوتها، كما أن المجاملة لا تصبح رحمة إذا أخفت عن صاحب الحاجة ما يحتاج إلى معرفته. ٢١٠

ومن الرفق الستر، لكن الستر كلمة تحتاج إلى بصيرة. ستر زلة انقطعت غير كتمان أذى ما زال يتكرر. وحفظ خصوصية أسرة غير منع متضرر من الوصول إلى من يحميها. جاء فضل الستر والعون في الحديث الصحيح، وشرح العلماء اختلاف أحواله؛ فلا يصح أن نحوله إلى غطاء للمعتدي، ولا إلى ذريعة لنشر تفاصيل الناس باسم التحذير. إذا دعت الحاجة إلى إبلاغ جهة مختصة نقل

٢٠٩. جامع البيان، الطبري؛ تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة الضحى، الآيتان 9-10.

٢١٠. آل عمران 159، وطه 44، والإسراء 53، مع التفاسير المذكورة في حواشي الكتاب؛ وشرح النووي على مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، ج 16 ص 112.

من الخبر ما يحقق الغرض، وبقي ما عداه مصوناً. أما تفاصيل البلاغ والواجبات النظامية فتد إلى أهلها، ولا يحسمها واعظ من بعيد. ٢١١

وكذلك العفو: ليس كل ترك للمطالبة إصلاحاً. مدح القرآن العفو حين يقترن بالإصلاح، وأبقى العدل حقاً. قد يكون العفو قوة حين يقطع سلسلة الانتقام، وقد يكون التنازل في حال أخرى باباً يعود منه الأذى إلى صاحبه أو إلى ضعيف لا يملك القرار. لذلك لا نضغط على المظلوم بفضيلة لا نتحمل نحن تبعاتها، ولا نسمي خوفه من الضرر قسوة. يبدأ الطريق بكظم رد الفعل، ثم بفهم الحق: من يملكه؟ وهل توقف الضرر؟ وهل يفتح العفو باب خير أم يعيد باب الاستغلال؟ ٢١٢

٢١١. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2699؛ جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ج2، ص284-295؛ فتح الباري، ابن حجر، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلبه.

٢١٢. الشورى40، والنور22، وفصلت34-35، وآل عمران134؛ وخبر أبي بكر ومسطح في صحيح البخاري4750.

ومن أخلاق اليد النافعة أن تقبل العمل الذي لا يراك الناس فيه. وشاهد خدمة الأهل الذي تقدم يذكرنا بقرب أبواب البذل. وفي حياتنا، قد يكون نصيبك تقاسم حمل، أو ترتيب ما خلفه العمل، أو تسليم مهمة لمن بعدك بوضوح. هذه صور عملية نتعلم بها ألا نطلب الظهور في كل مشاركة، وأن نعرف فضل من أعاننا. ٢١٣

قال ابن الجوزي:

وأنا أعرفك غلط ما وقع لك بالعلم: اعلمي أن البدن مطية، والمطية إذا لم يرفق بها، لم تصل براكبها إلى المنزل، وليس مرادي بالرفق الإكثار من الشهوات، وإنما أعني أخذ البلغة الصالحة للبدن، فحينئذ يصفو الفكر، ويصح العقل، ويقوى الذهن.

ألا ترين إلى تأثير المعوقات عن صفاء الذهن في قوله عليه الصلاة والسلام: “لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان”، وقاس العلماء على ذلك الجوع، وما يجري مجراه من كونه حاقناً أو حاقباً؟! وهل الطبع إلا ككلب يشغل الآكل، فإذا رمى له ما يتشاغل به، طاب له الأكل؟! ٢١٤

لكن التواضع لا يعني قبول الاستغلال، كما أن البذل لا يعني إتلاف القدرة. ذكر ابن الجوزي أن البدن مطية، وقيد الرفق به بأخذ البلغة التي تعين على صفاء الفكر وصحة العقل، لا بالتوسع في الشهوات. وميز ابن القيم وظيفة الوقت: قد تحضر حاجة لا يقوم بها غيرك فتتقدم، وقد يكون عليك فرض أو حق لا يجوز إسقاطه باسم خدمة أخرى. لذلك لا توجد وصفة واحدة لعدد الساعات أو مقدار الراحة؛ توجد أسئلة أصدق: هل هذا حق متعين؟ ما الجزء الذي أقدر عليه؟ من يمكن أن يشاركني؟ ومتى صار ضعفي يورث الناس خطأ أو وعداً لا أستطيع الوفاء به؟ ٢١٥

٢١٤. صيد الخاطر، ابن الجوزي، الفصل ٤٨: إصلاح البدن سبب لإصلاح الدين، الفقرة ٢٤٨، بعناية حسن السماحي سويدان، دار القلم ١٤٢٥هـ؛ نقل متن المؤلف دون هوامش الناشر.

٢١٥. مدارج السالكين، ابن القيم، منزلة العبودية، فصل اختلاف الناس في أفضل العبادة؛ وصيد الخاطر، ابن الجوزي، طبعة مدار الوطن، ص 133-134.

قال الغزالي كما أورده الزبيدي:

والذي . يتقرب إلى الله بالسعي في حوائج الناس وإفادة العلم ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ، ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط ، دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه ؛ فإن ذلك يحبط الأجر .

فهما توقع من المتعلم مساعدة في شغل ، وخدمة ، أو مرافقة في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه أو تردداً منه في حاجة فقد أخذ أجره بلا ، ثواب له غيره .

نعم ، إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه ؛ ليكون له مثل أجره ، ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته فخرجوا أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا ينتظره ولا يريده منه ولا يستبعده منه لو قطعه .^{٢١٦}

ومن أخطر ما يقع بعد العطاء الاستتباع: أن يتصرف المحسن كأنه اشترى بماله طاعة دائمة، أو أن يطلب من المنتفع خدمة وثناءً لأن باباً فتح له يوماً. نقل الزبيدي في شرح الإحياء معنى تربوياً دقيقاً:

٢١٦. الغزالي كما أورده الزبيدي، إتحاف السادة المتقين، كتاب ذم الجاه والرياء، النص المنقول في صدر الشرح.

من تقرب بالسعي في حوائج الناس يطلب ثواب الله في النفع والسرور، لا في خدمة المنتفع وشكره وثنائه. لا يمنع هذا الشكر المشروع، لكنه يمنع تحويله إلى دين خفي لا تنتهي أقساطه. ^{٢١٧}

والتصوير مثال معاصر تكشفه القاعدة نفسها. الرضا بالمساعدة لا يعني الرضا بنشر الوجه والاسم والتشخيص وتفاصيل الأسرة. وقد يحتاج العمل المؤسسي إلى إثبات التسليم أو متابعة الأثر، لكن الحاجة إلى التوثيق لا تساوي الحاجة إلى النشر. نسأل: من سيشاهد؟ ولماذا؟ وما أقل قدر يحقق الغرض؟ وهل يستطيع صاحب الحاجة أن يرفض الصورة من غير أن يخسر حقه؟ ^{٢١٨}

ويبقى المعروف محفوظ المعنى حين يخرج من يدك وتبقى لصاحبه حريته وكرامته. لا تستدع ما مضى من عطاء لتحسم به خلافاً حاضراً، ولا تطلب من المنتفع أن يطمئنك إلى صلاحك. راجع ما يصل إلى الناس، وارج القبول من الله.

^{٢١٧}. الزبيدي، إتحاف السادة المتقين، شرح كتاب ذم الجاه والرياء، موضع السعي في حوائج الناس وإفادة العلم.

^{٢١٨}. الهيئة السعودية للبيانات والذكاء الاصطناعي، اللائحة التنفيذية لنظام حماية البيانات الشخصية، المواد 18-20، والدليل الاسترشادي لتحديد الحد الأدنى من البيانات الشخصية.

إذا أخطأت وأنت تحاول أن تنفع

قد تبدأ المساعدة بقصد حسن، ثم يقع منك خطأ: تنقل معلومة على غير وجهها، أو تعد بما لا تستطيع، أو تتحدث عن حاجة إنسان أمام من لم يرد إطلاعه عليها. في هذه اللحظة يظهر امتحان جديد. تستطيع أن تدافع عن صورتك وتذكر ما بذلت، وتستطيع أن تنظر أولاً إلى ما أصاب الآخر من أثر فعلك. القصد الحسن يعينك على الرجوع إذا صدقت في طلب الخير، لكنه لا يعيد الموعد الذي فات ولا يحو الكلمة التي جرحت.

قال السعدي في تفسير سورة البقرة، الآية 263:

{ قول معروف { أي: تعرفه القلوب ولا تنكره، ويدخل في ذلك كل قول كريم فيه إدخال السرور على قلب المسلم، ويدخل فيه رد السائل بالقول الجميل والدعاء له { ومغفرة { لمن أساء إليك بترك مؤاخذته والعفو عنه، ويدخل فيه العفو عما يصدر من السائل مما لا ينبغي، فالقول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي يتبعها أذى، لأن القول المعروف إحسان قولي، والمغفرة إحسان أيضا بترك المؤاخذة، وكلاهما إحسان ما فيه مفسد، فهما أفضل من الإحسان بالصدقة التي يتبعها أذى بمن أو غيره، ومفهوم الآية أن الصدقة التي لا يتبعها أذى أفضل من القول المعروف والمغفرة، وإنما كان المن بالصدقة مفسدا لها محرما، لأن المنّة لله تعالى وحده، والإحسان كله لله، فالعبد لا يمين بنعمة الله وإحسانه وفضله وهو ليس منه، وأيضا فإن المان مستعبد لمن يمين عليه، والذل والاستعباد لا ينبغي إلا لله، والله غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وكلها مفتقرة إليه بالذات في جميع الحالات والأوقات، فصدقتكم وإنفاقكم وطاعاتكم يعود مصلحتها إليكم ونفعها إليكم، { والله غني { عنها، ومع هذا فهو { حلیم { على من عصاه لا يعاجله بعقوبة مع قدرته عليه، ولكن رحمته وإحسانه وحلمه يمنعه من معاجلته للعاصين، بل يمهّلهم ويصرف لهم

الآيات لعلمهم يرجعون إليه وينيبون إليه، فإذا علم تعالى أنه لا خير فيهم ولا تغني عنهم الآيات ولا تفيد بهم المثالات أنزل بهم عقابه وحرّمهم جزيل ثوابه. ٢١٩

والمعروف الذي يتبعه أذى ليس صفحة أغلقت بمجرد وصول المال أو الخدمة. في تفسير البقرة 263 يقدم السعدي معنى الكلام الطيب والمغفرة على الصدقة المتبوعة بالأذى. ومن هذا نتعلم أن نسأل عن الطريقة التي وصل بها العطاء، لا عن الشيء الذي خرج من أيدينا وحده. أما تقدير المسؤولية والتعويض في واقعة معينة فله أحكامه وجهاته؛ لا يحسمه اعتذار أدبي ولا حسن ظننا بأنفسنا. ٢٢٠

إذا ظهر الخطأ، ابدأ بإيقاف الجزء الذي ما زال يكرره. إن كنت ترسل معلومة تبين عدم دقتها، فلا تواصل نشرها ريثما تجد عبارة لطيفة للاعتذار. وإن كان تنظيم العمل يعيد كشف تفاصيل لا حاجة إليها، فراجع طريقة التداول. هذا توجيه عملي عام؛ وحين

٢١٩. تفسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير سورة البقرة، الآية 263.

٢٢٠. تفسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير البقرة 263، شرح القول المعروف والمغفرة والمقارنة بالصدقة المتبوعة بالأذى.

يتعلق الأمر بسلامة أو حق أو التزام نظامي، يكون التصحيح بالتعاون مع الجهة المختصة، لا بقرار مرتجل يحو ما يلزم حفظه أو يضاعف الضرر.

ثم سم الفعل الذي تعرف أنك فعلته. الاعتذار عن «كل ما قد يكون حدث» يترك صاحب الحاجة وحده أمام تفاصيل يعرفها وأنت تتجنبها. أما العبارة المحددة فتمكنكما من الكلام عن شيء يمكن إصلاحه: تأخر جواب، أو وعد لم ينجز، أو وصف لم يكن دقيقاً. ولا تضيف إلى الاعتذار مطالبة فورية بأن يطمئنك الآخر أو يعفيك من تبعة ما حصل. قد يحتاج إلى وقت، وقد يبقى له حق لا ينتهي برضاه عن نبرة كلامك.

اسمع وصفه للأثر من غير أن تقاطعه بقائمة نياتك. ربما لم تكن تعرف أن التأخير أوقف عملاً آخر، أو أن الكلمة قيلت أمام شخص لا يريد أن يعرف حاجته. لا يعني الإصغاء التسليم بكل اتهام، ولا يمنعك من بيان واقعة مهمة؛ لكنه يؤخر الدفاع عن الصورة حتى تفهم موضع النزاع. وقد يختلف الطرفان في بعض التفاصيل، فيحتاجان إلى من يعينهما على التثبت والعدل، لا إلى مزيد من تداول القصة بين المعارف.

بعد ذلك يطلب الإصلاح فعلاً يناسب الحلل. المعلومة الخاطئة تحتاج تصحيحاً يصل إلى من تأثر بها، والوعد المتعذر يحتاج بياناً يتيح لصاحبه ترتيب بديل. وقد يستطيع الإنسان تدارك جزء

ويعجز عن جزء؛ فليبين ذلك بصدق. لا يعوض كثرة الكلام غياب العمل الممكن، كما لا ينبغي أن يتعهد بتعويض أو حل لا يملك تقريره. ومن حق من أصابه الخطأ أن يعرف ما تم فعلاً وما بقي وعداً.

في العمل الجماعي، قد يقع الخطأ لأن الجميع ظن أن المراجعة مسؤولية شخص آخر. هنا لا يكفي أن تبحث المجموعة عن فرد يحمل اللوم ثم تستأنف بالطريقة نفسها. راجعوا موضع التسليم: من استلم الطلب؟ من صحح البيانات؟ من أخبر صاحب الحاجة؟ ومن كان يملك إيقاف الإجراء؟ هذه أسئلة لتحسين العمل، وليست وسيلة لنشر أسماء المخطئين أو تحويل المراجعة إلى إهانة جديدة.

ويبقى أثر دقيق في القلب بعد الاعتذار: أن تقبل أن يتولى غيرك إتمام الإصلاح إذا كان ذلك أصح. قد تكون أنت سبب التعثر، فلا يلزم أن تكون أنت صاحب المشهد الذي ينهيه. نجاح التصحيح لا ينقصه أن ينجز على يد أخرى. وما يرجى أن يتعلمه المرء من هذه التجربة أن الأمانة تشمل الرجوع، وأن باب المعروف لا يغلق على من أخطأ ثم أصح، وأن محبة الناس لا تعني مطالبتهم بنسيان ما لم نعالجه بعد.

القسم السادس — شواهد النفع في السيرة والتاريخ

حين يصير صدق الخبر جزءاً من الرحمة

تمنح القصة المعنى وجهاً وحركة؛ فنرى خدمة في بيت، وإصغاء في طريق، وإيثاراً حين يقل الطعام. وفي هذه الشواهد نتأمل كيف يفتح العمل الصغير باباً من الرحمة، وكيف تصير القدرة التي في أيدينا عوناً لغيرنا.

قال الأسود:

سَأَلْتُ عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ
قَالَتْ كَانَ يَكُونُ فِي مَهْنَةِ أَهْلِهِ - تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ - فَإِذَا حَضَرَتِ
الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ. ٢٢١

خدمة قريبة في البيت، وقيام بحق الصلاة عند حضورها. يفتح هذا الفعل عيننا على حمل يتكرر أماننا حتى نغفل عنه، وعلى خير لا يحتاج إلى رحلة بعيدة كي يبدأ. ٢٢٢

٢٢١. صحيح البخاري، البخاري، حديث 676.

٢٢٢. صحيح البخاري، البخاري، حديث 676.

عن أنس رضي الله عنه:

أَنَّ امْرَأَةً، كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً فَقَالَ " يَا أُمَّ فَلَانِ انْظُرِي أَيَّ السَّكِّ شِئْتِ حَتَّى أَقْضِيَ لَكَ حَاجَتَكَ " . نَحْلًا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا. ٢٢٣

قد يكون صاحب الحاجة إنساناً لا يحسن أن يعرضها في مجلس مزدحم. لم تكن صعوبة عرض الحاجة سبباً لإهمال صاحبته؛ وجدت وقتاً وإصغاءً حتى فرغت منها. ٢٢٤

بين البيت والطريق يتكون ميزان صغير شديد الصدق: من يطلبك ليس دائماً صاحب الصوت الأعلى، وما ينفعه ليس دائماً مشروعاً يراه الجمهور. قد يكون أن تحمل جزءاً من عبء تكرر حتى صار غير

٢٢٣. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2326.

٢٢٤. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2326؛ المنهاج شرح صحيح مسلم،

النووي، شرح الحديث 2326.

مرئي، أو أن تمنح إنساناً وقتاً كافياً ليعين ما لا يستطيع اختصاره. وتبقى الحقوق المتعينة وترتيب الطوارئ والاختصاصات في مواضعها، فالرحمة لا تنمو بإسقاط حق لتجميل حق آخر. عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أَنَّ رَجُلًا، أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاءُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " مَنْ يَضْمُ، أَوْ يَضِيفُ هَذَا ". فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَنَا. فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ أَكْرَمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتٌ صَبِيَانِي. فَقَالَ هَيَّيْ طَعَامَكَ، وَأَصْبِحِي سَرَاجَكَ، وَنَوْمِي صَبِيَانِكَ إِذَا أَرَادُوا عِشَاءً. فَهَيَّأتْ طَعَامَهَا وَأَصْبَحَتْ سَرَاجَهَا، وَنَوِمَتْ صَبِيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَُا تُصَلِّحُ سَرَاجَهَا فَأُطْفِئَتْ، فَجَعَلَ يَرِيَانَهُ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ، غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ " ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ - أَوْ عَجِبَ - مِنْ فَعَالِكُمَا " فَانْزَلَ اللَّهُ { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } ٢٢٥

في هذا البيت لم يبق الإيثار كلمة معلقة في الهواء. حضرت حاجة، ففتح لها الزوجان ما استطاعا. وما نستفيده أن يخرج الاهتمام من الشعور إلى البذل؛ مع رعاية حقوق من نعول، والنظر فيما تحتمله الحال. ٢٢٦

وقد تكرر الحاجة بعد أن تنقضي ساعة الضيافة. عندئذ يفتح شاهد المشاركة في المؤونة والثمره سؤالاً آخر: ماذا يستطيع كل طرف أن يبذل، وكيف تتلاقى القدرات على نفع مستمر؟ وفي الفصل التالي نقترّب من هذا الشاهد وحدوده. يبقى للعون العاجل مكانه، ولا يلزم من التفكير في قدرة الغد تأخير حاجة اليوم. ٢٢٧

٢٢٦. صحيح البخاري، البخاري، حديث 3798؛ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2054.
 ٢٢٧. صحيح البخاري، البخاري، حديث 2325.

عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه، قال:

جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَلْفِ دِينَارٍ - قَالَ
الْحَسَنُ بْنُ وَقِيعٍ وَكَانَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِي فِي كَمِّهِ حِينَ
جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَنَثَرَهَا فِي جِرِّهِ . قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَرَأَيْتُ
النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْلِبُهَا فِي جِرِّهِ وَيَقُولُ " مَا ضَرَّ عُثْمَانَ
مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ " . مَرَّتَيْنِ ٢٢٨

حين تتسع الحاجة العامة يظهر وجه آخر للنفع: مال يبذل في وقته،
فيعين على ما يحتاج إليه الناس. وفضل الإنفاق لا يسقط ما على
المسلم من فرائض وحقوق. ٢٢٩

والمال هنا ليس سيد أبواب النفع. سبقه في الشواهد وقت يبذل،
واصغاء، وخدمة أهل، وإطعام ضيف، وعمل مشترك. تختلف
الأدوات ويجمعها سؤال الأمانة: ماذا صار ممكناً في يدي الآن؟
ربما كانت الألف عند إنسان هي الباب، وربما كان الباب عند

٢٢٨. الجامع، الترمذي، حديث 3701.

٢٢٩. الجامع، الترمذي، حديث 3701.

آخر علماً يبينه، أو طريقاً يدل عليه، أو جزءاً من حمل يرفعه عن أهله. لا يطالب المعسر بصورة الموسر، ولا يجعل الموسر قلة مال غيره حجة على أن يحبس قدرته.

في هذه الشواهد متسع للتأمل: خدمة الأهل، والصبر مع صاحب الحاجة، وإكرام الضيف، والبذل في المصالح العامة. تتنوع الأبواب ليجد القارئ ما يلائم قدرته.

لا تحتاج إلى انتظار قدرة تشبه قدرة غيرك. انظر إلى باب مفتوح في يومك، وابدأ بما تستطيع إيصاله إلى صاحبه بصدق وإتقان. اختر من هذه الشواهد باباً يلائم قدرتك: خدمة قريبة، أو وقتاً لصاحب حاجة، أو ضيافة، أو تعاوناً، أو بذلاً عاماً. لا يلزم أن تتشابه أحوالك وأحوال أصحابها حتى ترى في هديهم ما تعمل به.

عمل يحفظ الأصل ويفتح الثمرة

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال:

قَالَتِ الْأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا
النَّخِيلِ. قَالَ “ لَا ”. فَقَالُوا تَكْفُونَا الْمُنَّةَ وَنَشْرِكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ.
قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا. ٢٣٠

٢٣٠. صحيح البخاري، البخاري، حديث 2325.

للمواساة أكثر من طريق؛ فقد تجتمع قدرة على العمل مع أصل ينتفع به، فتفتح المشاركة باباً لا تفتحه الهبة وحدها.^{٢٣١}

حين ننظر إلى واقعنا، نسأل: هل توجد قدرة يمكن أن تلتقي بقدرة أخرى، فينتفع الطرفان مع حفظ ما يملكه كل واحد وما يستطيع أداءه؟ يحتاج التعاون إلى اتفاق واضح، وتبقى شروط المعاملة وحقوق أطرافها مرجعاً لا يغني عنه حسن القصد.

قد يملك إنسان أداة لا يحسن استعمالها، ويملك آخر مهارة ولا يملك أدواتها. وقد توجد جهة لديها مكان وتجهيز، وأشخاص يستطيعون تقديم عمل يحتاج إليه الناس. اجتماع هذه الأشياء لا يكفي وحده لإنشاء تعاون صحيح؛ ينبغي أن يعرف أصحابها الغرض وما يتوقع من كل طرف، وأن تعرض المعاملة على أهلها إذا تعلق بمال أو حقوق تحتاج إلى ضبط. لا يحول الاسم الجميل خلافاً غير محسوم إلى شراكة عادلة.

وتبدأ بعض المشكلات حين تسمى المعاملة تبرعاً في أولها، ثم تظهر مطالبة بمقابل لم يوضح. ويقع العكس حين يظن صاحب المال أنه أسدى معروفاً خالصاً، بينما كان الآخر يفهم أنه أدى عملاً له

٢٣١. صحيح البخاري، البخاري، حديث 2325.

عوض. حسن العلاقة لا يغني عن البيان، بل يحتاجه كي يبقى. من الرفق أن تخرج التوقعات إلى الكلام قبل أن يتحول اختلافها إلى اتهام للنية أو طعن في الوفاء.

وفي مثال افتراضي، يعرض شخص على آخر استعمال أداة لتعلم حرفة. قبل البدء، يحتاج الطرفان إلى معرفة ما إذا كان الاستعمال عارية أو جزءاً من معاملة، وما الذي يسمح به مالك الأداة، ومن يعلم استعمالها الآمن. أما المسؤولية عند تلف أو نزاع فلا يحسمها هذا المثال. قيمته أن يكشف الأسئلة التي ينبغي عرضها على من يعرف، بدل أن نخفيها تحت كلمة «ساعدتك» ثم نعود إليها بعد وقوع المشكلة.

ولا يصلح التعاون بالعمل لكل محتاج في كل وقت. ربما احتاج المرء إلى طعام عاجل، أو كان عاجزاً عن أداء المهمة المعروضة، أو كانت ظروفه تحول دون استمرارها. إذا تجاهلنا ذلك، صار شعار استعادة القدرة عبئاً إضافياً عليه. العون المناسب يبدأ من حاله، ثم ينظر فيما يمكنه اختياره وأدائه؛ لا يفرض عليه قصة نجاح نريد أن نحكيها عنه بعد حين.

وكذلك لا يلزم أن يتشابه نفع الطرفين في صورته حتى يكون واضحاً. قد يكون عند أحدهما مال، وعند الآخر وقت أو معرفة، وقد يتبرع أحدهما بجزء دون أن يطالب بمقابل. المطلوب أن يبقى

هذا معلوماً، وأن يستطيع كل طرف أن يبين ما لم يفهمه. وتبقى أحكام المعاملات والحقوق مرجعاً مستقلاً؛ فالاستفادة التربوية من خبر ثابت لا تغني عن معرفة حكم الصورة التي ننشئها.

هذا ما يمكن أن تقر به الشواهد إلى حياتنا: أن توسع أسئلتنا دون أن تحتلق أجوبتها. فحاجة الساعة تستدعي ما يخففها الآن، والحاجة المتكررة تدعونا إلى التفكير فيما يحفظ القدرة ويعين على الاستمرار. وقد يجتمع العون العاجل مع تعليم أو تعاون لاحق. لا نزهد في الأول لأنه صغير، ولا نعد بالثاني قبل أن يقوم على أساس يمكن للناس أن يثقوا به.

حين يفتح عمل واحد باباً لغيره

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، قال:

كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ فَجَاءَهُ قَوْمٌ حِفَاةُ عِرَاةٍ مُجْتَابِي النَّمَارِ أَوْ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَتُهُمْ مِنْ مَضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مَضَرَ فْتَمَعَرُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا رَأَى مِنْهُمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِإِلَاءٍ فَأَذَنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكَمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ { إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } وَالْآيَةُ الَّتِي فِي الْحَشْرِ { اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ } تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دَرَاهِمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعٍ بِهِ مِنْ صَاعٍ تَمْرِهِ - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ . قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بَصْرَةَ كَادَتْ كَفَّهُ تَعَجُّزَ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ - قَالَ - ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمِينَ مِنْ طَعَامِ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَهْتَلُ كَأَنَّهُ مَذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " مَنْ سَبَّنِي فِي الْإِسْلَامِ سَنَةٌ حَسَنَةٌ فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرٌ مِنْ عَمَلٍ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ

أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَبَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً سَيِّئَةً
كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوَزَرَ مِنْ عَمَلٍ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ
مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ ” ٢٣٢

تبدأ المبادرة هنا بحاجات ظاهرة، ثم دعوة تبين أبواب البذل، ثم
عمل يراه الناس فيتتابعون. لا يملك الداعي قلوبهم، لكنه يستطيع
أن يجعل طريق المشاركة أوضح، وأن يبدأ بما يقدر عليه. ٢٣٣

اجعل باب المشاركة مفهوماً

قد تدعو من حولك إلى «فعل الخير»، فيوافقون على المعنى ولا
يعرفون أين يبدؤون. في عمل معاصر مأذون، يساعدك أن تبين
الحاجة والفعل الممكن: هذه مواد تحتاج إلى ترتيب، وهذه ساعة
يمكن تقديمها في تعليم مهارة، وهذا طريق رسمي لمن يريد المساهمة.

٢٣٢. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 1017.

٢٣٣. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 1017.

لا تكفي حرارة الدعوة إن ظل الفعل غامضاً. ومن عرف المهمة قد يختار عملاً آخر أنسب له؛ وضوح دعوتك يعينه على القرار ولا يملك قراره.

اقترض أن مجموعة تجهز كتباً صالحة للانتفاع عبر جهة مسؤولة. بدل عبارة «نحتاج إلى تعاون الجميع»، تحدد المجموعة ثلاث مهام: التحقق من صلاحية النسخ، وتصنيفها بقائمة معلومة، وتنسيق تسليمها. هذا مثال اقتراضي، لا وصف لتجربة ناجحة. قبل تجربته يلزم معرفة أن الجهة تحتاج الكتب فعلاً وأن حقوق أصحابها تسمح بهذا التصرف. وقد يتبين أن شراء عنوان محدد أو توفير وسيلة قراءة أخرى أنفع من جمع الموجود كيفما اتفق.

ابداً بما يستطيع غيرك فهمه

إذا توليت مهمة أولى، فاجعل طريقة أدائها واضحة لمن سيتولاها بعدك. اعرض عينة مما اتفق عليه الفريق، وبين معيار قبولها وموضع تسليمها. لا تجعل حاجتهم إليك في كل خطوة علامة على نجاحك. ربما كان أنفع ما تتركه عملاً يستطيع غيرك إتمامه حين تغيب، مع حفظ الأمانة والاختصاص.

ولا تحتاج إلى إظهار صاحب الحاجة كي تظهر طريقة العمل. تستطيع تدريب الفريق على نموذج خال من الأسماء والصور والبيانات الخاصة. وإذا لم يصلح عرض تفاصيل المهمة، فاكتف بوصفها لمن يملك حق معرفتها. الاقتداء لا يستلزم كشف المستفيد، والدعوة إلى المشاركة لا تستلزم إعلان كل ما بذلته.

احفظ حرية من لم يشارك

قد يبادر شخص، ثم يسارع المنظم إلى سؤال البقية أمامه: لماذا لم تفعلوا مثله؟ تتحول الدعوة حينئذ إلى إحراج، وقد يعد بعضهم بما لا يستطيع. افتح باباً معلوماً للاعتذار، ولا تطلب تفسيراً شخصياً لكل امتناع. ليس لك أن ترتب نيات الناس بحسب سرعة استجابتهم؛ فقد تكون لهم حقوق أو أعمال لا تراها.

وإذا كثرت المشاركات، فراجع القدرة على استقبالتها. المزيد من المواد أو المتطوعين قد يحتاج إلى مكان ومسؤولية ووقت لم يتوفر. عندها يكون تقليل الدعوة أو تأجيلها أو إحالتها إلى جهة قادرة قراراً يحفظ النفع. لا يستلزم الفرح باستجابة الناس قبول كل عرض قبل معرفة ما ستصنع به.

راجع ما انتقل فعلاً

في مثال الكتب، قد تعرف أن شخصين شاهدا العينة، وأن أحدهما تولى مهمة مماثلة وأتمها. هذا انتقال معلوم في حدود السجل. أما قولك إن المبادرة غيرت الحي أو صنعت جيلاً من المتطوعين فيحتاج إلى ما لا تمنحه هذه الواقعة. افصل عدد المشاركات عن جودة ما أنجز وعن وصوله إلى من يحتاجه.

اسأل بعد التجربة: أي خطوة استطاع غيري إتمامها دون اعتماد دائم عليّ؟ وهل حافظ على معيارها؟ وما الذي احتاج إلى شرح أو تصحيح؟ قد يكون التعديل في القائمة أو التدريب أو توزيع الوقت. وحين ينسب الناس العمل إلى غيرك، لا تجعل حفظ الفضل الشخصي غاية تنازع وصول الخير. احتفظ بما يلزم للمساءلة والحقوق، وافرح بأن الباب المشروع اتسع لمن يحسن الدخول منه.

بهذه الأسئلة ينتقل القارئ من الإعجاب بالمبادرة إلى تحسين طريق المشاركة. يبقى الوعد بالأجر على وجهه في الحديث، ويبقى نجاح التنظيم أمراً ظاهراً نراجعه بأدلتنا؛ لا يغني أحدهما عن أمانة الآخر.

القسم السابع — آثار النفع في الإنسان والمجتمع

حين لا يكون الأثر وعداً

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً
 مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسِّرْ عَلَى مَعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي
 عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ
 فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ
 مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ
 السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ
 عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يَسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ ٢٣٤

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 قال:

الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ
 أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَجَ اللَّهُ
 عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ ٢٣٥

٢٣٤. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2699.

٢٣٥. صحيح البخاري، البخاري، حديث 2442.

في الخير أثر نرجوه، لكن الرجاء شيء والوعد شيء آخر. نؤمن بهذه الأخبار كما جاءت؛ ولا نحولها إلى جداول زمنية نحدد بها متى تزول الشدة، أو معادلات نعد بها المحسن أنه لن يمرض أو يخسر أو يحزن. ٢٣٦

من هنا يبدأ الكلام عن «أثر النفع» من مكان آمن: الجزء عند الله يثبت بالوحي، أما تغير المزاج والصحة والعلاقات فيدرس بوسائل بشرية تقبل الخطأ والمراجعة. قد يجتمع للمحسن ثواب يرجوه، وطمأنينة يشعر بها، وثقة يراها في أسرته؛ وقد يعمل العمل الصحيح وهو متعب لا يجد لذته الآن، أو لا يرى نتيجته في الدنيا. لا يجعل فقد الشعور علامة رد، كما لا يجعل حضوره شهادة قبول.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ
كَأَنَّهُ تُوْذِي النَّاسَ ٢٣٧

٢٣٦. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2699 و2580؛ صحيح البخاري، البخاري، حديث 2442؛ جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ج2، ص284-295.
٢٣٧. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 1914.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

“بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي فَلَأُخَفِّهُ ثُمَّ أَمْسَكُهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِي، فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ”. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا قَالَ “فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ” ٢٣٨.

في رفع الأذى وسقي العطشان يقظة للحاجة التي لا تعود على صاحبها بمصلحة ظاهرة. قد يتحرك الإنسان إلى الخير وهو متعب، وقد لا يجد لذته في الساعة نفسها. ويبقى السؤال العملي: هل أبصر الضرر وفعل ما يقدر عليه بأمان؟ ٢٣٩

٢٣٨. صحيح البخاري، البخاري، حديث 2363.

٢٣٩. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 1914؛ صحيح البخاري، البخاري، حديث 2363.

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، قال:

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِنِّي أَبْذَعُ بِي فَأَحْلِنِي فَقَالَ " مَا عِنْدِي " . فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَدْلُهُ عَلَى مَنْ يَحْمِلُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ " ٢٤٠.

الدلالة لا تتجمل من أنها ليست العطاء نفسه؛ قيمتها أنها صادقة وتصل الحاجة بمن يستطيع. وإذا احتاج الأمر إلى متخصص، كان الوصول إليه نفعاً. وكذلك الشفاعة الحسنة سعي يؤجر عليه صاحبه، لكنها لا تملك النتيجة ولا تبيح تقديم غير مستحق. ٢٤١

وهنا تظهر كرامة صاحب الحاجة. ليس كل نفع شيئاً يسلم من يد عليا إلى يد سفلى. قد يكون حقاً معلوماً، أو معلومة تفتح الطريق، أو كلمة عند صاحب قرار، أو فرصة يستعيد بها الإنسان قدرته. لكن «التمكين» نفسه قد يصير قاسياً إذا ألزمت به من لا يطيق، أو جعلنا الطعام العاجل مشروطاً بقصة نجاح لاحقة. المرض والعجز

٢٤٠. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 1893.

٢٤١. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 1893؛ صحيح البخاري، البخاري،

حديث 1432.

والسن والطوارئ ليست نقصاً أخلاقياً. الرحمة تسأل عما يحتاجه الشخص فعلاً، ثم تفرق بين بذل بلا مقابل، وإحالة، وشفاعة، وتعليم، وشراكة ممكنة.

والاختبار بسيط في لفظه عميق في أثره: هل وصل الحق؟ وهل بقي لصاحبه صوت واختيار؟ إذا اشترط العطاء صورة منشورة، أو ولاء دائماً، أو شكراً يؤديه المنتفع كلها طلب منه، فقد تحولت المنفعة إلى دين خفي. وإذا قدمنا حلاً لا يستطيع صاحبه استعماله، وجب أن نراجع ملاءمته لحاجته؛ فحسن القصد لا يجعل الوسيلة صالحة وحده. أما إذا فهمنا الحاجة، وشرحنا البدائل، وقبلنا الرفض، وأبقينا الخصوصية، صار احتمال النفع أصدق ولو كان المشهد أقل لمعناً.

ومما يمكن أن يعين على بناء الثقة في الأسرة والجوار: وعود صغيرة تصدق، وحقوق تؤدي، وأخطاء يعترف بها أصحابها. لا تكفي كلمة «التعاون» إذا كان بعض الناس يحمل العبء كله، ولا يحفظ الإصلاح مجتمعاً إذا سكت عن بغي قائم. تأمر آيات الإصلاح بالعدل ورد البغي، وتجعل ولاية المؤمنين والمؤمنات

تعاوناً على المعروف. ومن هذا الأصل يمكن أن نبني سلسلة عملية: وعد واقعي، وتنفيذ في موعده، وإبلاغ عند العجز، وحفظ للسِر، وتصحيح عند الخطأ. ٢٤٢

وقد تحتاج الأزمة إلى أكثر من قلب رحيم منفرد. تحتاج من يعرف أين الخطر، ومن يفرز العاجل، ومن يصل الناس بجهة قادرة، ومن يقسم الموارد بعدل، ومن يعود ليسأل عما بقي. تلك قدرة جماعة على تحمل الصدمة واستعادة ما يلزم لحياة الناس. وتحتاج إجراءات الإخلاء والإسعاف والمخزون والأمن إلى أهل الخبرة والأنظمة المعتبرة. ٢٤٣

إن قياس نجاح النفع في الأزمات بعدد الصور أو ساعات التطوع وحدها قد يخفي الضرر. قد يكثر الحضور وتبقى الحاجة في مكانها، أو تصل صناديق كثيرة ولا يصل الدواء الصحيح. القياس الأنفع يسأل: هل خف الخطر؟ هل وصلت المنفعة إلى من يستحقها؟

٢٤٢. الحجرات 9-10، والأنفال 1، والتوبة 71، والمائدة 32، مع التفاسير المذكورة في حواشي الكتاب.

٢٤٣. تطبيق تنظيمي للمؤلف.

هل استعادت الأسرة أو الجهة قدرة كانت قد تعطلت؟ وهل حفظت الكرامة والخصوصية أثناء ذلك؟ هذه أسئلة بشرية قابلة للمراجعة، لا أحكاماً على الثواب.

وتشير بعض الدراسات الحديثة إلى علاقة إيجابية متواضعة بين مساعدة الآخرين والرفاه، تختلف باختلاف العمل وأصحابه. لكن المتوسط لا يضمن أن يشعر كل متطوع بتحسن، ولا يثبت وحده أن المساعدة هي التي أحدثت ذلك التحسن.^{٢٤٤}

وفي مراجعة لبحوث التطوع، ظهرت في الدراسات الرصدية صلات ببعض مؤشرات الصحة والرفاه، لكن التجارب لم تؤكد النتائج نفسها. فقد يكون المتطوع أصح أو أقدر على الحركة منذ البداية، وتبقى عوامل أخرى مؤثرة؛ لذلك لا تسوغ هذه النتائج وعداً بأن التطوع يطيل العمر.^{٢٤٥}

Hui et al., “Rewards of kindness? A meta-analysis of the link between prosociality and well-being”, Psychological Bulletin (2020).

Jenkinson et al., “Is volunteering a public health intervention? A systematic review and meta-analysis of the health and survival of (volunteers)” (2013).

وربطت دراسة يومية بين المساعدة وضعف الأثر الانفعالي لضغوط اليوم، وبحث دراسة رصدية أخرى علاقة المساعدة بالضغوط والوفاة. تشير هذه النتائج أسئلة تستحق البحث، لكنها لا تقدم وصفة علاج أو حصانة من المرض والموت؛ إذ تحدها طريقة القياس وخصوصية المشاركين وعوامل لا يحيط بها الباحثون. ٢٤٦

وقد يكون النفع مكلفاً. من يرضى مريضاً أو يحمل أزمات الناس أو يعمل طويلاً في خدمة عامة قد يتعرض للإجهاد والاحتراق، خصوصاً إذا غابت المشاركة والتدريب والحدود. لا يناقض هذا فضل العون؛ بل يعيدنا إلى الأمانة. القدرة مورد يجب ألا يهدر، والإحالة عند العجز ليست خيانة، والراحة التي تحفظ أداء الواجب ليست أنانية. لا نعد الناس بأن الإحسان سيجعلهم أسعد دائماً، ثم نلومهم إذا تعبوا.

Raposa et al., prosocial behavior and daily stress, ٢٤٦,
PMC4974016; Poulin et al., helping, stress, and mortality,
.PMC3780662

ليس مطلوباً أن نخاف من كل نتيجة بشرية. يمكن أن نتعلم منها كيف نصمم خدمة أفضل، وكيف نسأل عن أثرها، وكيف ننتبه إلى الفئات التي لم تصلها. لكننا نسمي الشيء باسمه: تحليل تلوي، أو دراسة رصدية، أو يوميات قصيرة؛ ارتباط أو فرق متوسط أو فرضية. ثم نبقي باب المراجعة مفتوحاً. وإذا خالفت النتيجة شعاراً محبوباً، لم ندفنها كي تبقى الموعظة سهلة.

بهذا الفصل بين الطبقات يصبح أثر النفع أكثر صدقاً. الوحي يدلنا على العبادة والحق والجزاء. الخبرة الاجتماعية تساعدنا على رؤية الوصول والكرامة والثقة. والبحث المعاصر يختبر أسئلة محددة بأدوات محددة. لا يغني واحد منها عن الآخر، ولا يسمح لنا واحد منها أن نتكلم باسم البقية.

افعل الخير لأن الله أمر بالبر والعون، ولأن للمحتاج حقاً وحرمة، لا لأنك اشتريت وعداً بمزاج صاف أو عمر أطول. ثم راقب عملك بتواضع: هل نفع فعلاً؟ هل صان الإنسان؟ هل خفف الخطر؟ هل بقي لك ولمن معك قدرة على الاستمرار؟ هذه آثار يجوز أن نفحصها ونصححها. أما القبول فباب رجاء ودعاء، لا شهادة تمنحها دراسة ولا منصة ولا شعور عابر.

من لم يصل إليه المعروف

يسهل أن نحصي ما أنجزناه: عدد الرسائل، وعدد الطرود، وساعات المشاركة. ويصعب أحياناً أن نرى من حاول الوصول ثم عاد، أو من تلقى شيئاً لا يستطيع استعماله، أو من سكت لأنه لا يعرف أين يبين اعتراضه. ما يظهر في سجلنا ليس دائماً كل ما حدث للناس. لذلك يحتاج النظر في الأثر إلى سؤال لا يكتفي بالموجود أمامه: من الذي بقي خارج هذا العدد، ولماذا؟

يوجه معيار الخدمة الحكومي البريطاني، في نقطته العاشرة، إلى اختيار مقاييس تبين مدى حل الخدمة للمشكلة التي أنشئت من أجلها، واستعمال البيانات في تحسينها. نأخذ هذا بوصفه توجيهاً إدارياً في نطاقه، ولا نجعل متطلبات نشر بيانات الحكومة إلزاماً لكل مبادرة خاصة. أما التطبيق الذي نقترحه هنا فهو أن نصل كل رقم بالسؤال الذي يساعد على إجابته، ثم نجتمع من المعلومات ما يحتاج إليه القرار. ^{٢٤٧}

٢٤٧. Service Standard، Government Digital Service، النقطة 10.

لنتصور مثلاً حسابياً اقتراضياً: أرسل فريق عشرة روابط إلى أشخاص طلبوا معلومة. الإرسال عشرة، لكن ثلاثة لم يستطيعوا فتح الرابط، واثنان فتحاه ولم يفهما الخطوة المطلوبة، وخمسة وصلوا إلى المعلومة. لو كتب الفريق أنه «خدم عشرة أشخاص خدمة مكتملة» لخلط بين نشاطه ونتيجته. ولو قال إن جميع محاولاته فشلت لأهدر ما وصل فعلاً. الوصف الأدق يحفظ الأجزاء: عشرة أرسلت إليهم الوسيلة، وخمسة تأكد الوصول عندهم، وخمسة يحتاج مسارهم إلى معالجة مختلفة.

ومن هذا المثال نتعلم أن نحدد ما نعهده قبل العد. الشخص الذي تواصل ثلاث مرات ليس ثلاثة مستفيدين مختلفين، والمهمة التي شارك فيها أربعة أشخاص ليست أربع حاجات قضيت. قد نحتاج إلى عد الاتصالات لنعرف عبء العمل، وإلى عد الحاجات لنفهم النتيجة؛ كلاهما مفيد إذا سميناه باسمه. الخطأ أن نجعهما في رقم واحد كبير ثم نطلب من الرقم أن يشهد على معنى لم يقسه.

ولا تعني النتيجة غير المعروفة أن العمل نجح أو فشل. ربما انقطع التواصل، أو لم يأذن صاحبه بمتابعة أخرى، أو لم تتوفر وسيلة آمنة للتحقق. نكتب حينئذ أن النتيجة غير معروفة، ونراجع طريقة المتابعة في المرات المقبلة. لا نلاحق الإنسان لانتزاع شهادة، ولا

نستعمل صمته شهادة نختار مضمونها. قد يكون اكتمال الإرسال معلوماً، واكتمال الانتفاع مجهولاً، ويجب أن يحتمل سجلنا هذا الفرق.

وحين نطلب رأياً، ينبغي أن نتيح للإنسان وصف ما لم يناسبه. السؤال الذي يبدأ بذكر تعب الفريق ثم يطلب تقييم المساعدة قد يجعل الاعتراض ثقیلاً. يمكن أن نسأل عن خطوة محددة: هل كانت المعلومة واضحة؟ هل استطعت استعمال الوسيلة؟ ما الذي بقي عالماً؟ هذه أسئلة مقترحة لتحسين الخدمة، لا مقياساً علمياً معتمداً ولا اختباراً لنفسية المستفيد. وقد يكون الجواب القصير كافياً إذا عرفنا منه التصحيح اللازم.

بعد ذلك يأتي عمل أهم من جمع الملاحظات: اختيار ما سنغيره. إذا عجز الناس عن فهم خطوة، يمكن تبسيطها. وإذا لم تناسبهم قناة التواصل، ينظر في قناة متاحة أكثر. وإذا كان العائق خارج قدرة المبادرة، يبين لهم بدل أن تكرر المحاولات التي لا تضيف شيئاً. نختار تغييراً محدداً، ثم نرى في الاستخدام اللاحق هل زال العائق الذي عرفناه. ولا نستنتج من تحسن بعد التغيير أن كل التحسن سببه وحده؛ فقد تشارك عوامل لا نعرفها.

وقد تكشف المراجعة أن العمل أقل نفعاً مما أحببنا أن يكون. هذه معرفة نافعة إذا قادت إلى إصلاح، مؤلمة إذا عاملناها نخم. ينبغي إسكاته. ليس مطلوباً أن ينجح كل اقتراح، بل أن نكون

أمناء فيما عرفنا من نتيجته. والأثر الذي يرجى بقاءه يبدأ بصدق صغير: ألا ندعي وصولاً لم نتأكد منه، وألا نخفي إنساناً تعثر خلف رقم جميل.

القسم الثامن — من المعرفة إلى عادة نافعة

من الرغبة إلى عادة نافعة

قد يخرج القارئ من باب الخير وفي قلبه رغبة صادقة، ثم يقف أمام يومه فلا يعرف من أين يبدأ. يرى أبواباً كثيرة: أهلاً لهم حقوق، وقريباً مريضاً، وجاراً يحتاج، وديناً أثقل صاحبه، وطريقاً فيه أذى، وعملاً يستطيع أن يصلحه. وإذا حاول أن يحمل كل ذلك مرة واحدة انطفأت الرغبة أو تحولت إلى وعود لا يقدر عليها. ليست المشكلة دائماً في قلة المحبة؛ قد تكون في غياب ترتيب يحفظ الحق والقدرة.

البداية ليست قائمة أعمال طويلة، بل سؤالان: من له الحق الآن؟ وما الذي أملكه فعلاً؟ قد يكون أول المعروف نفقة واجبة، أو ساعة مع أهل البيت، أو رد أمانة، أو كف ضرر يستطيع صاحبه منعه. وقد تكون القدرة مالاً، أو وقتاً، أو علماً، أو كلمة عند من يملك الحل، أو مجرد معرفة الجهة الصحيحة. لا يحتقر الإنسان القدرة الصغيرة، ولا يزين لنفسه قدرة لا يملكها. ^{٢٤٨}

٢٤٨. البقرة 177؛ والمعارج 24-25؛ وصحيح البخاري 2442 وصحيح مسلم 2580؛ وصحيح البخاري 676؛ ومدارج السالكين، ابن القيم، فصل اختلاف الناس في أفضل العبادة ووظيفة الوقت.

يمكن أن يرسم في ورقة أربع دوائر. في الأولى واجب متعين لا يؤخره التطوع. وفي الثانية قريب له حق حاضر. وفي الثالثة حاجة عامة يستطيع أن يحمل جزءاً منها. وفي الرابعة فرصة بعيدة لا تراحم ما قبلها. هذه الدوائر ليست تقسيماً شرعياً مستوفياً ولا فتوى في تعارض الحقوق؛ إنها أداة تذكير. إذا التبس الواجب أو حق الغير، لم تحل الورقة مكان العالم أو المختص.

ثم يكتب إلى جوارها ما يملك: وقتاً محدداً، أو مبلغاً لا يضيع نفقة، أو مهارة يعرف حدودها، أو شخصاً موثقاً يستطيع الإحالة إليه. ويفيد أن يكتب ما لا يملك أيضاً. لست طبيباً، فلا أصف علاجاً. لست قاضياً، فلا أحسم نزاع حقوق. لا أستطيع وعد طالب الحاجة بوظيفة، لكنني أستطيع أن أراجع سيرته أو أدله على باب صحيح. معرفة الحد ليست انسحاباً من الخير؛ هي التي تمنع حسن القصد من أن يصير ضرراً.

وقد يساعد برنامج تدريبي قصير على تجربة أبواب مختلفة. يمكن أن يمتد اثني عشر أسبوعاً، ويمكن أن يقصر أو يطول. العدد هنا تنظيمي، ليس سنة ولا قدراً تعبدياً. يبدأ الإنسان بمراجعة قصده وحقوقه، ثم يتعلم رؤية الحاجة، ويجرب خدمة في البيت، وعوناً

للجار، وتفريج كربة، ومشاركة فضل، وتعليم مهارة، وإصلاحاً مأموناً، ورفقاً في الخطاب، وعملاً مع فريق، ثم يراجع ما يمكن أن يستمر. ٢٤٩

ليس مطلوباً أن ينتظر الأسبوع المخصص ليؤدي واجباً حضر اليوم. إن ظهر محتاج مضطرب، أو وقع خطر، أو تعلق بذمته حق، قدم ما يجب تقديمه. البرنامج خادماً للبصيرة، لا حاكماً عليها. ويجوز أن يكرر الإنسان أسبوعاً واحداً لأنه موضع حاجته، أو أن يوقف الخطة حين نتعب أسرته أو يضطرب عمله أو يظهر أن تدخله لا ينفع.

وفي كل مرة تظهر فيها حاجة، لا يبدأ بالحل الذي يحبه هو. يبدأ بالفهم. ما الذي يطلبه صاحب الحاجة؟ ما العاجل؟ ما الضرر إن تأخر الأمر؟ ما الذي جُرب؟ هل يحتاج إلى مال، أم معلومة، أم نقل، أم شخص يسمعه، أم جهة لها صلاحية؟ قد يأتي إنسان يسأل عن شيء، وتكون حاجته الأعمق غيره؛ لكن لا يجوز أن نخترع عنه باطناً أو نتعامل معه ككلف لا كإنسان. نسأله بقدر، ونقبل تصحيحه لوصفنا.

٢٤٩. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2699؛ صحيح البخاري، البخاري، حديث 2442 و 676؛ القرآن الكريم: المائدة 2، الحجرات 9-10، الأنفال 1، النحل 90، التوبة 71.

يمكن أن تسمى هذه «بطاقة الحاجة»، لكنها ليست استثماراً تجمع أسرار الناس. خاناتها قليلة: وصف الحاجة بكلمات صاحبها، ودرجة العجلة، والحق أو الخطر المتعلق بها، وما يملكه من بدائل، وما يحتاج إلى مختص، وأقل معلومة لازمة لاتخاذ القرار. الاسم الكامل ورقم الهوية والتشخيص والدخل التفصيلي ليست خانات تلقائية. كل معلومة لها غرض، ومن لا يستطيع بيان الغرض لا ينبغي أن يجمعها. ٢٥٠

والرضا بطلب المساعدة ليس رضا بكل استعمال للمعلومات. قد يحتاج فريق موثوق إلى رقم تواصل لإنجاز المهمة، لكنه لا يحتاج إلى نشر الاسم والصورة والقصة. وقد يلزم حفظ مستند مدة محددة، لكن ذلك لا يبيح إبقاء نسخة في هواتف العاملين إلى غير نهاية. حماية الخصوصية ليست زينة إدارية؛ إنها جزء من صيانة الإنسان الذي فتحت حاجته باباً إلى حياته.

بعد فهم الحاجة تأتي «بطاقة القرار». قبل أن يفعل الإنسان يسأل: ما الحق المتعين؟ هل المقصد مشروع؟ هل الوسيلة مباحة؟ هل أنا أهل لها؟ ما الضرر المتوقع؟ من قد يتحمل هذا الضرر بدلاً مني؟

٢٥٠. اللائحة التنفيذية السعودية لنظام حماية البيانات الشخصية، المواد 18-20؛ والدليل الاسترشادي لتحديد الحد الأدنى من البيانات الشخصية.

هل توجد جهة أقدر أو وسيلة أقل خطراً؟ وكيف أعرف بعد ذلك أن الحل وصل؟ هذه بطاقة مقترحة لترتيب القرار، وتعديل أسئلتها بحسب الحاجة.

قد تقود البطاقة إلى الفعل، وقد تقود إلى التوقف. إذا كانت المسألة علاجاً أو حماية طفل أو عنفاً قائماً أو حقاً قضائياً أو خطراً تقنياً، لا تمنح النية صاحبها اختصاصاً. الإحالة هنا فعل نافع. ومن دل على خير فله مثل أجر فاعله، لكن الدلالة يجب أن تكون أمينة: جهة صحيحة، ومعلومة صحيحة، وتوقع لا يعد بما لا يملك.

٢٥١

وإذا كشف فحص الحاجة خطراً مستمراً، نتوقف البطاقة عند حدها: تحفظ أقل قدر من البيانات، وتحيل الحاجة إلى الجهة المختصة وفق الشرع والنظام والمهنة. لا تجمع الأدلة الواقعة، ولا تمنح القارئ سلطة التحقيق أو تقرير واجب البلاغ؛ وظيفتها أن تمنع استمرار التدخل غير المؤهل.

وبعد العمل تبدأ مراجعة لا تقل أهمية. لا نسأل: كم صورة نشرنا؟ بل: هل وصلت المنفعة؟ هل وافقت الحاجة؟ هل وقع أذى غير مقصود؟ هل حُفظت الكرامة والسر؟ هل ضاع واجب

٢٥١. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 1893؛ صحيح البخاري، البخاري، حديث 1432؛ صحيح البخاري، البخاري، حديث 59.

آخر؟ هل استنزف العمل شخصاً واحداً؟ وما التصحيح الذي يلزم؟
قد يظهر أن العمل النافع يحتاج إلى تعديل بسيط، وقد يظهر أن
أفضل قرار إيقافه.

هذه المتابعة لا تدخل السرائر في جدول. لا نضع للإخلاص درجة من عشرة، ولا نزعم أن النجاح الظاهر دليل قبول عند الله. يحاسب العبد قلبه ويرجو ربه، لكن الفريق لا يملك أن يفتش نيات الناس أو أن يكافئهم على دعوى الطهارة. الذي يمكن قياسه هو ما يظهر من وصول وضرر ووقت ومال وقدرة على الاستمرار. ٢٥٢

وقد تكون حالة واحدة أعظم نفعاً من عشر مبادرات شكلية. مدين ثبت إعساره يحتاج إلى إنظار لا إلى تصوير، ثم قد يحتاج إلى من يشرح له خياراته أو يوصله بجهة مختصة. مريض يحتاج علاجاً عند أهل الاختصاص، وقد يحتاج معه إلى نقل أو طعام أو من يرعى أبناءه. جار يحتاج باباً مفتوحاً للسؤال لا مراقبة لحياته. وطريق فيه خطر قد يحتاج بلاغاً سريعاً بدل اندفاع غير مدرب.

وفي العمل، قد تكون المنفعة في أن يقول الإنسان: لا أعرف. إسناد الأمر إلى غير أهله يضيع الأمانة. المهندس والطبيب والمعلم والمستشار وصاحب القرار لكل منهم حد مهني وقانوني لا يصنعه الحماس. وإذا دخلت الأنظمة الرقمية في القرار، ازداد واجب

٢٥٢. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2699؛ جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ج2، ص284-295؛ القرآن الكريم: المائدة 32.

التثبت: من يتأثر؟ ما الخطأ الممكن؟ هل يستطيع الإنسان الاعتراض؟ ومن يتحمل المسؤولية؟ تبقى التفاصيل لأهلها وفي بلدها، ولا تتحول الموعدة إلى ترخيص عام.

ولتجرب قرارك في أمثلة افتراضية: جار يحتاج طعاماً ويرفض التصوير؛ وصاحب نفوذ يطلب تقديم غير مستحق؛ وخطر في الطريق يتجاوز قدرتك. ما الذي تستطيع فعله في كل حالة، وأين تتوقف؟ لا تحفظ جواباً واحداً؛ عين الحق والقدرة والجهة المختصة.

ثم يأتي سؤال الاستمرار. المعروف الذي يتعلق بشخص واحد قد يتوقف إذا مرض أو سافر. والعمل الذي يحتاج إلى تضيحية لا تنتهي قد يستنزف صاحبه وأهله. الاستدامة ليست بقاء المشروع بأي ثمن؛ هي أن يبقى النفع ما دام نافعاً، بموارد مشروعة، وحقوق محفوظة، وقدرة موزعة، وطريق واضح للتوقف أو التسليم. على المستوى الفردي، يختار الإنسان عملاً صغيراً يناسب حاله، ويحدد حداً للوقت والمال، ويعرف من يحيل إليه حين يعجز. لا يلزم أن يكون العمل أسبوعياً أو شهرياً؛ الموعد وسيلة تنظيم. وعلى المستوى الأسري، توزع المهام بالتراضي والعدل، ولا يحمل أضعف فرد الأعمال الخفية لأن الآخرين انشغلوا بخدمة الخارج. خدمة البيت ليست أقل شأنًا لأنها لا تظهر في تقرير.

وعلى المستوى المؤسسي، يحتاج المعروف إلى غرض واضح، ومسؤول، وصلاحيات، وميزانية، وقناة شكوى، ومدة لحفظ البيانات، وخطة تعمل إذا غاب المؤسس. إذا لم يعرف أحد ما الذي يحدث بعد توقف الشخص المحوري، فالمبادرة أضعف مما تبدو. وإذا كانت الخدمة تقوم على متطوعين محترقين أو مستفيدين لا يستطيعون الاعتراض، فاستمرار الاسم لا يعني استمرار الخير.

يمكن في نهاية كل شهر – أو في الموعد المناسب – عقد مراجعة قصيرة: ما الذي وصل؟ ما الذي لم يصل؟ ما الضرر الذي لم نتوقعه؟ ما الذي ينبغي أن نحيله؟ ما البيانات التي انتهى غرضها، وما الإجراء المناسب لها بحسب متطلبات الاحتفاظ والحماية؟ ومن يحتاج إلى راحة أو تدريب؟ الموعد المقترح تنظيمي، لا عبادة موقته. وقد تكون نتيجة المراجعة تقليل النشاط، أو دمج مهمتين، أو إغلاق باب لم يعد يحقق غرضه.

هكذا تنتقل الرغبة من اندفاع عابر إلى عادة بصيرة. ترى الحق قبل الفرصة، وتفهم الحاجة قبل الحل، وتفحص الوسيلة قبل الفعل، وتراجع الأثر بعده، وتحفظ للناس أسرارهم، وللمتخصصين اختصاصهم، وللأسرة حقوقها، وللقب رجاءه من غير دعوى.

لا يحتاج الإنسان إلى أن يحمل العالم كله. يحتاج أن يعرف موضعه من الخير اليوم، وأن يصدق في قدرته، وأن يصل ما يستطيع بمن يستطيع، وأن يتراجع إذا كان تراجعُه يمنع ضرراً. وحين يفعل ذلك مراراً، لا تصير الخطة غاية؛ يصير الانتباه للحق عادة، ويصير السؤال عن الأثر أمانة، ويبقى الثواب عند الله باباً يرجوه العبد ولا يدعيه لنفسه.

اثنا عشر أسبوعاً لتعلم أين تضع يدك

يمكن أن تتخذ الأسابيع المقبلة فرصة لتجربة عمل صغير، ثم مراجعته وتعديله. المدة الآتية تنظيم مقترح، وليست عبادة ذات عدد ولا وعداً بأن العادة ستثبت بانقضائها. يجوز أن تختصرها، أو تكرر خطوة، أو تبدأ من حاجة حاضرة نتقدم على ترتيبها. وتؤدي الحقوق الواجبة في وقتها؛ فلا ينتظر الإنسان أسبوعاً مخصصاً ليقوم بما لزمه الآن.

اختر دفترًا خاصاً أو صفحة بسيطة لا تحمل أسرار الناس. ليس المطلوب أن تحول حياتك إلى تقارير. يكفي في كل خطوة وصف العمل، وما أمكن معرفته من وصوله، وما ستصححه. ولا تسجل درجات للإخلاص أو القبول؛ محاسبة القلب باب بينك وبين الله، وما نكتبه هنا يخص أفعالاً ظاهرة يمكن مراجعتها. أصول العون والوفاء وحفظ الحقوق تقدمت بأدلتها؛ أما توزيع التجربة وخاناتها فمن اقتراح المؤلف. ٢٥٣

٢٥٣. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، حديث 2699؛ تيسير الكريم الرحمن، السعدي، تفسير البقرة 177 و263.

الأسبوع الأول: ما الذي ينتظرك بالفعل؟

ابدأ بالوعود والحقوق القائمة قبل البحث عن نشاط جديد. اكتب مهمة واحدة تأخرت منك، وحدد سبب التأخر وما تستطيع فعله اليوم بشأنها. قد يكون المطلوب إنجازها، وقد يكون بياناً صادقاً لمن ينتظرها. لا تسمها مكتملة لمجرد نقلها إلى قائمة مرتبة. في نهاية الأسبوع اسأل: هل عرف صاحب الأمر أين وصلت، وهل تغير شيء في الواقع؟

الأسبوع الثاني: أن تسمع الحاجة قبل عرض الحل

في موقف مناسب، اسأل صاحب حاجة عن الأمر المحدد الذي يعوقه، دون التوسع في خصوصياته. أعد وصف ما فهمته ليتاح له تصحيحه، ثم قارن بينه وبين الحل الذي كنت تنوي عرضه. إن اختلفا، سجل ما تعلمته عن طريقتك في الاستماع دون تدوين قصة الشخص. النجاح هنا أن يصبح وصفك أدق، ولو تبين أنك لست القادر على تقديم العون.

الأسبوع الثالث: عمل في البيت يمكن الاعتماد عليه

اتفق مع أهل بيتك على مهمة واضحة تناسب قدرتك وتحتاج إلى مشاركة. اختر وقتها وحدودها معهم، ثم تولها دون أن يتطلب إنجازها تذكيراً متكرراً. لا تجعل هذه التجربة وسيلة لتحديد حقوق

الآخرين أو تحميلهم ما لم يوافقوا عليه. راجع الأثر بسؤال عملي: هل خف عبء معلوم، أم انتقل إلى شخص آخر في صورة جديدة؟

الأسبوع الرابع: قرب يحفظ الخصوصية

انظر في معروف مناسب لقريب أو جار، على قدر العلاقة والحاجة المعلومة. قد يكون سؤالاً رقيقاً، أو مساعدة طلبها، أو مشاركة في أمر يتسع لها. لا تبحث عن سر كي تجد مادة للأسبوع. إذا لم تظهر حاجة أو اعتذر عن العرض، احترم ذلك؛ لا تعني الخطئة أن عليك صناعة موقف تفرض فيه حضورك.

الأسبوع الخامس: عطاء يصل صالحاً للانتفاع

إذا رغبت في بذل مال أو متاع، تحقق من ملاءمته للغرض ومن إمكان وصوله. لا تجعل التخلص مما لا تحتاجه غاية تختفي تحت اسم الإحسان. وفي الأموال المقيدة أو الزكاة أو حقوق الغير، ارجع إلى أحكامها وأهلها قبل التصرف. سؤال المراجعة: هل وصل ما قصدته إلى من قصدته، وهل كان يستطيع الانتفاع به؟

الأسبوع السادس: دلالة أمانة

اختر طلباً تستطيع أن تدل صاحبه فيه على جهة أو مصدر مناسب. تحقق من صحة المعلومة وحدود ما تعرفه، ولا تعدّه بقبول لا تملكه. بين له الخطوة التالية، واسأله إن كان يحتاج إلى توضيحها. لا تنقل بياناته إلى جهة أخرى لمجرد أنك تعرفها؛ قد تكفيه المعلومة ليختار طريقه بنفسه.

الأسبوع السابع: مهارة صغيرة تنتقل

اعرض تعليم أمر مباح نتقنه لمن يرغب فيه، وليكن في حدود واضحة. اتفقا على نتيجة بسيطة، ثم اشرح ودعه يجرب بما يناسبه. إذا احتاج إلى معلم مؤهل غيرك فساعدته على الوصول إليه. لا تجعل إنجاز درس طويل معيار النجاح؛ راقب هل استطاع فهم جزء أو أدائه، وما السؤال الذي بقي محتاجاً إلى جواب.

الأسبوع الثامن: كلمة تصلح علاقة آمنة

راجع موقفاً يومياً غير معقد يحتاج إلى توضيح أو اعتذار أو إزالة سوء فهم. ابدأ بالجزء الذي يخلصك، وتجنب الكلام نيابة عن غائب أو الضغط على صاحب حق ليتنازل. إذا ظهر عنف أو

خطر أو نزاع متخصص، فلا تحوله إلى تمرين للوساطة؛ نتوقف
الخطوة عند حدها ويقصد أهل الاختصاص. الغرض ممارسة
الوضوح والرفق في موضع مأمون.

الأسبوع التاسع: أن تراجع طريقة العطاء

انظر في عمل سبق أن قدمته، واسأل عن أسلوبك أنت: هل
ذكرت المعروف في خصومة؟ هل وعدت أكثر مما تقدر؟ هل
طلبت تفاصيل لم تحتج إليها؟ اختر تصحيحاً واحداً معلوماً، دون
التفتيش في نيات غيرك. وقد يكون التصحيح في عادة كلام، أو
في طريقة السؤال، أو في تقليل ما تحتفظ به من معلومات وفق ما
يلزمك من ضوابط.

الأسبوع العاشر: تعاون يعرف كل طرف فيه دوره

شارك شخصاً أو فريقاً في مهمة صغيرة، وحددوا من يبدأها ومن
يتسلمها وكيف يعرف الآخرون أنها أنجزت. اجعلوا الغياب
المحتمل ظاهراً منذ البداية: من يُخبر، ومن يستطيع التعويض،
ومتى يلزم الاعتذار؟ ثم اختبروا الترتيب في عمل حقيقي مناسب،
لا في وعود عامة عن التعاون. نجاح المهمة لا يقتضي أن يكون
لك فيها الدور الأكثر ظهوراً.

الأسبوع الحادي عشر: أن ترى ما لم يصل

اختر عملاً من الأسابيع السابقة، وافصل بين ما فعلته وما عرفت نتيجته. سجل ما وصل، وما تعثر، وما لم تتوفر عنه معلومة. ابحث عن تعديل محدود تستطيع تجربته دون جمع بيانات جديدة لا حاجة إليها. إذا لم تكن المتابعة مناسبة لصاحب الحاجة، اكتف بما تعلمته من طريقة أدائك، ولا تجعل إتمام الصفحة سبباً لإزعاجه.

الأسبوع الثاني عشر: ما الذي يستحق الاستمرار؟

اختر مما تجربته عملاً يناسب قدرتك ويظهر نفعه، وحدد كيف يمكن أن يستمر دون الإخلال بحقوق أخرى. وقد تختار إيقاف عمل لم يلائم الحال أو تسليمه إلى من هو أقدر. احتفظ بالدرس الذي تحتاجه، وأنه ما لا يلزم الاحتفاظ به من تفاصيل وفق ضوابطه. لا تتعهد بخطة أكبر لمجرد أن التجربة انتهت؛ ليكن قرارك مبنياً على ما عرفت فعلاً.

صفحة المراجعة التي تكفيك

يمكن أن تستعمل النموذج الآتي لنفسك، وتختصر منه ما لا تحتاج إليه. لا توضع فيه أسماء المستفيدين أو تفاصيلهم الحساسة. الغرض أن يساعدك على قرار، لا أن يصنع أرشيفاً عن الناس.

السؤال	ما تكتبه باختصار
ما العمل الذي التزمته؟	مهمة محددة في حدود القدرة.
ماذا أنجز فعلاً؟	الفعل الذي وقع، مع تمييز ما بقي وعداً.
ما الذي عُرف من النتيجة؟	وصل؛ تعثر؛ أو لم تتوفر معلومة كافية، مع وصف السبب المعلوم.
هل ظهر ضرر أو تراحم حق؟	الأمر الظاهر الذي يحتاج إصلاحاً أو سؤال مختص.
ما الخطوة التالية ومن يقوم بها؟	تصحيح أو إحالة أو استمرار أو توقف، دون موعد لا يمكن الوفاء به.

لا تجمع الإجابات في درجة نهائية تحكم بها على صلاحك. قد يكون عملك قليلاً في أسبوع لأن حقاً آخر شغلك، وقد يكون أهم ما فعلته أنك توقفت قبل تدخل لا تحسنه. وفي كلتا الحالتين تستطيع أن تتعلم وأن تعود إلى العمل المناسب. ثمرة هذه المراجعة أن يقل الفرق بين ما تقول إنك ستفعله وما تؤديه، وأن تصبح أقدر على رؤية الإنسان الذي تريد نفعه.

ثلاث حالات لتجربة القرار

الحالة الأولى: متاع يصل ولا ينفع. في مثال اقتراضي، جمع فريق أدوات دراسة وأرسلها إلى أسرة، ثم تبين أن أبناءها لا يحتاجون هذا النوع. البداية المفيدة سؤال الأسرة عما يناسبها، وفحص إمكان التبديل أو توجيه المتاع إلى جهة مناسبة برضا من له التصرف فيه. لا يطلب منها الاحتفاظ بما لا ينفع كي تبقى صورة الحملة ناجحة. اكتب: أين افترض الفريق الحاجة؟ وكيف يمكنه منع تكرار هذا الاقتراض؟

الحالة الثانية: مساعد واحد تحمل الجميع. نتعاون مجموعة في مهمة، لكن المتابعة اليومية تقع كل مرة على الشخص الذي لا يعتذر. قد يكون الحل إعادة توزيع الأجزاء وتوضيح حدود كل مشارك، أو تقليل المهمة إذا لم تتوفر القدرة. لا يكفي مدح ذلك الشخص ثم إبقاء العبء كما هو. اسأل: هل وافق على هذا النصيب بوضوح؟ وما الذي يتوقف إذا غاب؟ ومن يستلم الجزء التالي؟

الحالة الثالثة: نجاح غير معلوم. قدمت إرشاداً لشخص ثم لم يصلك منه خبر. لا تكتب أن حاجته قضيت، ولا تفترض أن تجاهله لك دليل على الجحود. بحسب العلاقة والغرض يمكن متابعة واحدة

مناسبة، أو إبقاء النتيجة غير معروفة. التدريب هنا أن تتحمل نقص المعلومة بصدق، وأن تميز بين الدلالة التي قدمتها والنتيجة التي لا تملكها.

بعد هذه التجارب، عد إلى البداية واسأل: هل صرت أسمع قبل أن أعرض؟ هل صارت وعودي أوضح؟ هل أعرف حدود قدرتي؟ وهل أصلح خطئي أسرع حين يظهر؟ لا تحتاج الإجابات إلى مشهد كبير. يكفي أن يرى من حولك عملاً أصدق وأرفق وأكثر قابلية للاعتماد عليه، وأن يبقى في قلبك رجاء القبول ودعاء الله أن يعينك على ما يجب.

ورشة الخير: من النية إلى منفعة تصل

قد تغلق كتاباً وفي قلبك رغبة صادقة، ثم يجيء صباح مزدحم فيأخذك إلى ما اعتدت. لا يعني هذا أن ما قرأت لم ينفع؛ لكنه يبين المسافة بين فهم المعنى وبناء عمل يحتمل أيامك. هذا الفصل جسر إلى تلك المسافة. لن يطلب منك أن تصير مسؤولاً عن أحوال الناس جميعاً، بل أن نتعلم كيف تؤدي حقاً، وتفهم حاجة، وتختار فعلاً مناسباً، وتتابع ما وعدت به حتى تعرف أين وصل.

رجاؤنا أن يكون هذا العمل مما يحبه الله. لا تمنحنا كثرة المهمات حق الحكم على قبولنا، ولا تمنحنا الجداول ترتيباً بين عباد الله. وقد تقدم في الكتاب أصل تقديم الفرائض في حديث البخاري 6502، وفضل العون في مسلم 2699، وحدود الحديث الذي استلهم منه العنوان. لا يتحول التدريب الآتي إلى شهادة بأن من أكمله صار أحب الناس إلى الله. نعمل ونتعلم ونصلح ونرجو، ونفصل ما نستطيع قياسه من أداء عن الإخلاص والقبول اللذين لا تحيط بهما بطاقة متابعة.

اختر تدريبك بحسب حاجتك

ابدأ بالموقف الأقرب إلى حياتك. رقم التدريب وسيلة للعثور عليه، وليس ترتيباً لفضل الأعمال. يكفي تدريب واحد نتعلم منه وتراجعه، ثم تنتقل إلى غيره عند الحاجة. هذه الخريطة تجمع مواضع العمل؛ أما الحالات المفصلة وحدود الاختصاص فتقرأ في التدريب نفسه.

التدريب	الباب الذي تريد العمل فيه
1	معروف يبدأ من حق متأخر
2	تقاسم عبء البيت دون إدارة الآخرين
3	خدمة الوالدين مع حفظ اختيارهما
4	مساعدة من يحمل مسؤولية الرعاية
5	جوار يبدأ بكف الأذى
6	زيارة مريض تخفف ولا تثقل
7	طعام يصل صالحاً ومناسباً
8	عطاء مالي لا يشتري القرار
9	إعانة المعسر دون إذلاله
10	منفعة الباحث عن عمل

التدريب	الباب الذي تريد العمل فيه
11	مساعدة الأجير في وصول حقه
12	تعليم مهارة دون صناعة تبعية
13	مساعدة رقمية تحمي صاحبها
14	إتاحة المشاركة لمن تعوقه الطريقة
15	مساعدة طالب دون أداء عمله عنه
16	قراءة نافعة لشخص لا يصل إلى المادة
17	إرشاد غريب في مكان جديد
18	وقت تطوعي لا يستهلك وقت الآخرين
19	إصلاح غرض قبل استبداله
20	إعارة الأدوات وتنظيم الانتفاع المشترك
21	إزالة أذى دون صنع خطر جديد
22	عناية بالمكان لا تتوقف عند الصورة
23	رعاية حاجة من لا يتكلم بلغتك
24	استقبال طالب المساعدة بكرامة
25	كلمة تصلح خلافاً آمناً
26	سر المستفيد ليس مادة للتأثير

التدريب	الباب الذي تريد العمل فيه
27	جمع التبرعات داخل اختصاص واضح
28	إحالة لا تترك الإنسان بين الأبواب
29	فريق يعرف من يفعل ماذا
30	شكوى تعلمك أين لم يصل الخير
31	طلب العون دون ضياع القرار
32	استمرار لا يستنزف صاحبه

كيف تختار موضع البداية؟

لا تبدأ بقراءة كل تدريب على أنه واجب جديد عليك. انظر أولاً إلى وعد قائم أو حق متأخر. من ينتظر منك جواباً؟ ما العمل الذي حمّله قريب عنك لأنك لم تنتبه؟ أين تستطيع أن تصلح خلافاً في خدمتك قبل إنشاء خدمة أخرى؟ قد تكون البداية اعتذاراً عن وعد لم تف به، أو أداء مستحق، أو توضيحاً يرفع انتظاراتاً. هذا أشد صدقاً أحياناً من نشاط جديد يراه الجميع.

اقرأ الحالة التي اخترتها، وعين ما يشبه ظرفك وما يختلف عنه، ثم جرب خطوة محدودة. مدة التجربة وحجمها بحسب القدرة، ولا فضيلة خاصة لعدد أيام أو ساعات. استعن ببرنامج الأسابيع السابق إذا احتجت إلى ترتيب الوقت؛ يكفيك سجل واحد للعمل نفسه.

الحالات في هذا الفصل افتراضية للتدريب. أسماؤها وأرقامها لا تمثل أشخاصاً حقيقيين أو نتائج دراسة، وأجوبتها المقترحة أمثلة على التفكير وليست فتاوى لكل واقعة. إذا تغيرت الحقوق أو الأخطار أو القوانين تغير القرار، وبقي الرجوع إلى أهله لازماً. لا تختبر مهارتك على إنسان محتاج بتجربة لم يرض بها، ولا تحول طلبه إلى تمرين يعرض أمام الآخرين.

بطاقة صغيرة للعمل الحقيقي

يمكن أن تحتفظ ببطاقة مختصرة لا تحمل اسم المستفيد إلا إذا احتجت إليه لحاجة مشروعة. الغرض أن تذكّر مسؤوليتك، لا أن تجمع أرشيفاً عن ضعف الناس. تكفي ورقة عندك أو وسيلة تحفظها جيداً. اختر صياغة عملية: «أرسل له الرابط الرسمي وأتأكد أنه فتحه»، بدل «أساعده في حياته». كلما وضح الفعل قل خطر أن تعد بما لا تملك.

خانة البطاقة	ما يكتب فيها	مثال افتراضي
الحاجة المتفق عليها	ما يريده صاحبها فعلاً	فهم خطوات طلب موعد
الفعل الذي أملكه	جزء محدد تحت قدرتي	شرح الخطوات دون إدخال بياناته
حد دوري	ما لن أتولاه بلا أهلية أو إذن	لا أقرر العلاج ولا أحتفظ برمز الدخول

خانة البطاقة	ما يكتب فيها	مثال اقتراضي
الوعد	فعل وموعد يمكن الوفاء بهما	اتصال قصير مساء الخميس
دليل الوصول	علامة مناسبة قليلة الكلفة	استطاع إعادة الخطوة بنفسه
النهاية	متى ينتهي دوري أو ينتقل؟	عند الفهم، أو بإحالة واضحة إذا تعذر

استعمل البطاقة حين توجد مهمة أو متابعة أو مال يحتمل الالتباس. أما الكلمة الطيبة أو إزالة الأذى المأمون فلا تحتاج إلى ملف واستبيان. اجعل التوثيق بقدر ما يحفظ المسؤولية، كي لا يستهلك وقت المساعدة.

أربع حالات لا تخلط بينها

قولك «عرضت المساعدة» لا يعني أن صاحبها قبلها. وقوله «شكراً» لا يعني أن المشكلة حلت. وإرسال الشيء لا يعني أنه وصل صالحاً للانتفاع. تدرب على كتابة الحالة كما تعرفها: عرض، اتفاق، تنفيذ، نتيجة معلومة. وإذا انتهت معرفتك عند مرحلة، اكتب ذلك بوضوح. الصدق في نقص المعلومة أفضل من ملء الفراغ بعبارات نجاح.

العبارة الشائعة	السؤال الذي يكشف حدها	صياغة أصدق
خدمنا عشرين شخصاً	هل قبلوا الخدمة أم أرسلنا إليهم عرضاً؟	أرسلنا عشرين عرضاً، وقبل ثمانية
المشكلة انتهت	هل تحقق الحل أم انتهى دورنا؟	انتهى دورنا في الإحالة، والنتيجة لم تصلنا
الجميع راضون	من سألنا، ومن لم يستطع الاعتراض؟	أجاب ثلاثة، ولم نسأل الآخرين بعد
لا أحد يحتاج	هل لا توجد حاجة أم يصعب طلبها؟	لم يصل طلب بالطريقة التي أتنهاها

متابعة تحفظ الكرامة

اتفق على المتابعة قبل أن تتحول إلى ملاحقة. اسأل: هل يناسبك أن أعود إليك برسالة واحدة؟ وفي أي وقت؟ وما الذي نحتاج إلى معرفته لإتمام العمل؟ إذا لم يرغب في المتابعة، فاحترم ذلك ما لم توجد مسؤولية لازمة لها طريقها المختص. لا تربط بقاء المساعدة باستجابة المستفيد لأسئلة تقييم لا تلزمه.

عندما تنتهي المهمة، اسأل نفسك ثلاثة أسئلة منفصلة: هل أدت ما وعدت به؟ هل وصل النفع الذي أمكن التحقق منه؟ هل ظهر ضرر يحتاج إصلاحاً؟ قد تكون الأولى نعم والثانية غير معلومة

والثالثة لا. وقد تؤدي ما وعدت به ثم تكتشف أن الحاجة تغيرت؛ النجاح حينئذ أن تعدل العمل، لا أن تدافع عن خطتك لأنها كلفتك جهداً.

متى يكون التوقف خيراً؟

توقف عن الجزء الذي يتجاوز أهليتك أو إذن صاحبه أو يعرضه لخطر. لا يلزم أن تهجر الإنسان كي تتوقف عن وسيلة غير مناسبة. تستطيع أن تقول: «لا أحسن هذه الخطوة، لكنني أساعدك في الوصول إلى من يحسنها». وفي الخطر العاجل تكون الأولوية للجهة المحلية المختصة، لا لإكمال نموذج أو انتظار اجتماع المجموعة. لا يحدد هذا الفصل أرقام طوارئ عالمية أو إجراءً طيباً واحداً لكل بلد.

وتوقف أيضاً حين يطلب منك صاحب الحاجة الانسحاب، أو حين يصبح وجودك وسيلة ضغط، أو حين يتكرر وعد لا تقدر عليه. اشرح النهاية بصدق، وسلم ما لديك من التزامات إلى من يقبله بإذن مناسب. ليس كل استمرار وفاء، كما ليس كل انسحاب خذلاً. ننظر إلى الحق والقدرة والنتيجة، لا إلى صورة النافع في عيون الناس.

خريطة الورشة

تبدأ التدريبات من البيت والحقوق القريبة، ثم تنتقل إلى الطعام والمال والتعلم والعمل والخدمات المشتركة، وتصل إلى التعاون والتقييم. لكل تدريب زاوية مخصوصة؛ يمكنك اختيار ما يلائمك دون الادعاء أنك اجتزت بقية المجالات. والهدف الأخير أن يصبح قرارك أوضح، ووعدك أصدق، وضرك أقل، وأن يرى الناس أثراً نافعاً يمكن الاعتماد عليه.

لا تكتب في نهاية الشهر عدد «حسناتك» أو منزلة قلبك. اكتب ما تعلمته عن عملك: وعد قصّرتَه حتى استطعت الوفاء، أو سؤالاً حسن فهمك للحاجة، أو خطأ أصلحته، أو خدمة لم تكن مناسبة فأحلتها. ثم استغفر من تقصيرك، واشكر الله على التيسير، وابدأ من جديد بما تملك.

التدريب الأول: معروف يبدأ من حق متأخر

قد يسهل أن نتطوع لعمل جديد، ويثقل أن تعود إلى التزام يعرف الناس أنك أخلفته. يبدأ هذا التدريب من تلك النقطة. اختر التزاماً واحداً: مبلغاً مستحقاً، أو شيئاً استعرتَه، أو عملاً وعدت به. لا تستعمل الحماسة للخير ستاراً على التأخير، ولا تقدم اعتذاراً جميلاً مكان الحق الممكن أدائه. أصل التدريب تقديم الواجب وحفظ العهد؛ أما صورة الورقة وطريقة المراجعة فمن التنظيم المقترح.

في حالة افتراضية، استعار شخص جهازاً من أخيه لإنجاز عمل قصير. مضى شهر، وصار الجهاز لازماً للأخ. عرض المستعير أن يتطوع في فعالية عائلية، لكنه لم يعد الجهاز. ليس السؤال: هل الفعالية نافعة؟ بل: هل يملك أن يتجاوز الحق القائم باسم منفعة أخرى؟ ابدأ بإعادة الجهاز أو باتفاق صريح جديد من غير ضغط. ولا تجعل موافقة الأخ السابقة إذناً مفتوحاً لكل تأخير.

جرب القرار. اكتب ما تستطيع فعله اليوم، وما يحتاج موافقة صاحبه، وما لا تملك وعداً به. إن كان الحق محل نزاع فلا تحسمه بمشاعرك؛ اجمع المعلومة اللازمة واسلك طريق التسوية المختص. التدريب ليس حكماً بتعويض محدد أو بإسقاط حق بمجرد اعتذار.

ما حدث	التصرف الأقرب إلى الإصلاح	ما ينبغي تجنبه
الشيء موجود وسليم	تحديد وقت قريب لتسليمه والوفاء به	انتظار أن يكرر صاحبه الطلب
طراً عطل	إخبار صاحبه بالحقيقة وطلب معالجة عادلة	إخفاء العطل داخل عبارات امتنان
يلزم تمديد المدة	طلب إذن جديد يقبل الرفض	اعتبار صلة القرابة موافقة
اختلف الطرفان	ثبيت موضع الاختلاف والرجوع لما يحسمه	نشر النزاع طلباً للتأييد

في التنفيذ. قل جملة محددة: «تأخرت عن الموعد، وسأعيده غداً إن كان هذا يناسبك». إذا لم تستطع، فلا تنشئ موعداً آخر لإيقاف الإحراج. اشرح حد قدرتك واسأل عن بديل مشروع. لا يلزم صاحب الحق أن يواسيك قبل أن تؤدي ما له.

في المتابعة. لا تسجل المهمة منجزة عند كتابة الاعتذار؛ سجلها عندما عاد الشيء أو استقر اتفاق واضح. راجع بعد ذلك سبب التأخير: هل نسيت؟ هل كانت مواعيدك أوسع من قدرتك؟ هل لا تحفظ الأشياء المستعارة منفصلة؟ أصلح السبب بخطوة واحدة، مثل تسجيل موعد الرد فور الاستعارة.

سؤال الانتقال. أي حق آخر صار أسهل أداءً بعدما تعلمت هذا؟ لا تضيف عشرة التزامات جديدة إلى الورقة. اختر التالي بحسب استحقاقه وقدرتك. ثمرة التدريب أن يقل ما يطالبك به الناس مراراً، لا أن يكثر حديثك عن الوفاء.

التدريب الثاني: تقاسم عبء البيت دون إدارة الآخرين

العمل المنزلي قد يبقى غير مرئي لأن من يؤديه لا يعلن عنه. اسأل أهل بيتك عن مهمة تكرر وتستهلك وقتاً، ثم اختر جزءاً تملكه كاملاً بدل مساعدة تحتاج إلى من يشرح لك كل مرة. لا تفترض أن أكثر شخص صامت هو أقلهم تعباً، ولا تحول السؤال إلى محاكمة لمن فعل أكثر خلال السنوات الماضية.

في المثال التدريبي، تقول أسرة إن ترتيب موعد أسبوعي ونقل أحد أفرادها يتكرر فيه الارتباك. يعرض أحدهم القيادة، لكنه ينتظر في كل مرة من يذكره بالموعد ويجهز التفاصيل. نقل الجهد الجسدي وحده لم يرفع عبء المتابعة. يمكنه، إذا رضي المعنيون، أن يتولى التأكد من الوقت وترتيب الخروج والعودة، من غير أن يطلع على معلومات لا يحتاج إليها.

حوار البداية. «أي جزء لو التزمت به يخفف عنكم فعلاً؟ وما الطريقة التي تناسبكم؟» استمع إلى الإجابة قبل عرض طريقتك. قد لا يريدون تغيير النظام كله، وقد تكون الحاجة أبسط: إنجاز مهمة واحدة في وقت موثوق. لا تعد الأسرة بنسخة مثالية منك تبدأ غداً؛ قدم عملاً تستطيع تكراره.

عنصر الاتفاق	مثال صالح للتجربة	علامة تحتاج تعديلاً
ملكية المهمة	أتولى شراء القائمة المتفق عليها	أسأل عن كل عنصر بعد وصولي للمتجر
وقت الإنجاز	قبل الموعد الذي يحتاجه البيت	أنجز حين أفرغ ولو فات الغرض
حد التغيير	أستأذن قبل تغيير ما يخص غيري	أسي فرض ذوقي تحسیناً
البديل عند الغياب	أخبر مبكراً وأرتب بديلاً مقبولا	أختفي ثم أعذر بعد تعطل العمل

تمرين التنفيذ. جرب المهمة مرتين أو ثلاثاً بحسب تكرارها الطبيعي. لا تطلب بعد كل مرة ثناءً أو تقييماً مطولاً. في الوقت المناسب اسأل: هل خف العبء أم نقلت إليكم عبئاً آخر؟ يقصد السؤال معرفة العمل، لا إجبار الأسرة على إعلان رضاها عنك.

المتابعة. سجل لنفسك ما نسيته، وما تعلمت فعله دون تذكير، وما يحتاج إذناً. لا تجمع أسماء المقصرين. إذا وقع خلاف في عدالة توزيع المسؤوليات فلا تجعل هذه التجربة حكماً نهائياً في الحقوق الأسرية؛ افتح حواراً منصفاً أو اطلب مساعدة مناسبة.

معيار التوقف. إذا بدأت المهمة تراحم حقاً لازماً آخر، عدل حجمها قبل أن تتحول إلى سلسلة اعتذارات. والمقصود أن يصبح البيت أقدر على الاعتماد عليك، لا أن يصبح معتمداً على شخص واحد لا يستطيع الراحة.

التدريب الثالث: خدمة الوالدين مع حفظ اختيارهما

قد يخلط الابن بين العناية بوالديه وبين تولي كل قرار عنهما. في هذا التدريب، افصل الحاجة إلى المساعدة عن القدرة على الاختيار. تقدم العمر لا يلغي الذوق والخبرة والرغبة في الاستقلال. ابدأ بسؤال يحفظ مكانتهما: ما الذي تحبان أن أتولاه؟ وما الذي تفضلان إبقاءه عنديكما؟

في حالة اقتراضية، يريد والد ترتيب زيارة لأصدقائه، فيبدل الابن الموعد والمكان بحجة أن ترتيبه أريح. صار الوالد ضيقاً على قرار اتخذ باسمه. البديل أن يعرض الابن خيارات واضحة للنقل أو التوقيت، ويترك له الاختيار في حدود الممكن. وإذا ظهرت مسألة صحية مؤثرة، تؤخذ المعلومة من المختص وبالقدر اللازم، لا من تخمين الابن وحده.

تمرين الإصغاء. استمع إلى طلب واحد دون مقاطعة أو تصحيح سريع. أعد المعنى: «تريد أن تذهب في هذا الوقت وأن تعود قبل كذا، هل فهمت؟» قد يوفر هذا السؤال ساعة من خدمة لا يريدتها أحد. ولا تستعمل ألفاظ الطفولة أو المزاح الجارح في الحديث عن كبر السن.

الموقف	استجابة تحفظ القرب	حد لا يتجاوزه
يحتاج إلى قراءة ورقة	أقرأها بوضوح وأشرح لفظاً غامضاً	لا أوقع عنه أو أقرر دون صلاحية
يرفض اقتراحاً مريحاً لي	أسأل عن سبب الرفض وأعرض بديلاً	لا أصفه بالعناد فوراً
يكرر سؤالاً	أجيب برفق وأبحث عن طريقة مساعدة	لا أحول التكرار إلى مادة ضحك
يتعذر علي الحضور	أصرح مبكراً وأرتب ما يمكن	لا أعد بزيارة أعرف أنني لن أصل إليها

العمل المقترح. اتفق على خدمة صغيرة تكرر بحسب الحاجة: اتصال في وقت مناسب، ترتيب نقل، قراءة رسالة، أو إنجاز شراء. اجعلها قابلة للاعتذار المبكر والتبديل. لا تنشئ زيارة طويلة مرهقة لتثبت المحبة، بينما كانت الحاجة اتصالاً هادئاً.

المتابعة. راجع راحتهما بعد الخدمة، لا عدد الدقائق التي حضرتهما فقط. هل بقي لهما مجال للاختيار؟ هل انكشف من شأنهما ما لم يرضيا بكشفه؟ هل سهلت المهمة التالية أم صنعت اعتماداً غير لازم؟ لا تسجل أسرارهما ضمن دفتر التدريب.

قد يقع تعارض حقيقي بين مطالب أفراد الأسرة أو بين الحاجة والقدرة. لا يحسمه هذا التدريب بقاعدة واحدة؛ لكنه يعلمك ألا تجعل ضيقك سبباً للجفاء، وألا تجعل عاطفتك وعداً يتكرر إخلافه. البر يحتاج قلباً رقيقاً وعملاً صادقاً معاً.

التدريب الرابع: مساندة من يحمل مسؤولية الرعاية

أحياناً يكون أقرب طريق لنفع المريض أو الكبير أن تخفف عن الشخص الذي يريعه. قد يحتاج هذا الشخص إلى وجبة أو نقل أو وقت يقضي فيه شأنه، لا إلى موعظة عن الصبر يسمعها كل مرة. اسأل عن عمل محدد يمكن رفعه، واحترم أن بعض أعمال الرعاية لا يؤديها إلا من لديه تدريب أو إذن مناسب.

في المثال، يعتني قريب بمرضى في البيت، ويعتذر دائماً عن الخروج. يقول له صديق: «إذا احتجت شيئاً فأنا موجود»، ثم لا يتضح شيء. العرض الأكثر قابلية للاستعمال: «أستطيع شراء الاحتياجات المكتوبة مساء الثلاثاء أو توصيلك إلى موعدك، أيهما أنفع؟» لا تعرض البقاء مع المريض بدل القائم عليه إذا كنت لا تفهم المسؤولية أو لا تتوفر موافقة لازمة.

فرز المهمة. ضع المطلوب في واحد من ثلاثة مواضع: عمل يومي أستطيعه، عمل أتعلمه تحت إشراف مناسب، أو عمل مختص لا أتولاه. لا تنقل دواءً أو طعاماً أو حركة بدنية إلى اجتهاد شخصي، ولا تستنتج من هدوء المريض أنه لا يحتاج مراقبة.

الحاجة الظاهرة	مساعدة ممكنة	سؤال قبل الاتفاق
شراء مستلزمات	إحضار قائمة محددة	هل النوع والعدد واضحان؟
ازدحام المواعيد	نقل أو ترتيب وقت بموافقة صاحبه	من يؤكد الموعد؟
تعب من المقاطعات	تجميع الاتصالات في وقت مناسب	هل يريد هذا التنظيم أصلاً؟
حاجة إلى راحة	ترتيب بديل مؤهل ومقبول	من يملك تولي الرعاية بأمان؟

تمرين المتابعة. لا تسأل بعد الخدمة عن تفاصيل المرض لتطمئن على قيمة عملك. يكفي ما يرتبط بما التزمت به: هل وصلت الاحتياجات؟ هل كان الموعد مناسباً؟ هل نحتاج تعديلاً في المرة التالية؟ قد تكون المحافظة على الهدوء وعدم الزيارة أنفع من حضور جديد.

ما الذي لا نقيسه؟ لا نقيس صبر القائم بالرعاية من نبرة صوته، ولا نحكم على محبته إذا قال إنه تعب. نستطيع أن نعرف أن مهمة أنجزت أو ساعة خفت، ولا نستطيع اختزال تجربته في استبيان رضا.

إذا ظهر احتياج يتجاوز الدعم اليومي، فالمتابعة المناسبة وصوله إلى خدمة مؤهلة، لا أن يصير المتطوع بديلاً عن فريق رعاية. ثمرة التدريب أن يجد الإنسان حوله عوناً يمكن استعماله فعلاً، دون أن يدفع ثمنه شرح حياته لكل زائر.

التدريب الخامس: جوار يبدأ بكف الأذى

اسأل قبل التفكير في هدية: هل يصل من بيتي أو عملي أذى إلى الجيران؟ قد تكون الحاجة إغلاق مصدر ضوضاء، أو ترك الممر، أو ضبط موعد تحميل، أو عدم إشغال موقف مخصص. لا تجعل

ما تقدمه من طعام تعويضاً تتخيله عن أذى مستمر. كف الأذى وبذل المعروف عملاً متكاملاً، ويبدأ التدريب بما تملك إصلاحه في سلوكك.

في الحالة الافتراضية، يرسل أحد السكان هدايا في المناسبات، لكن أغراضه تبقى في الممر المشترك. يتردد جيرانه في الاعتراض حتى لا يظهروا جاحدين. هذه علامة أن المعروف قد صار حاجزاً أمام قول الحاجة. يمكنه أن يزيل أغراضه ويسأل إدارة المكان عن التنظيم، ثم يبقى لطفه مستقلاً عن قبول الناس لمخالفته.

جولة ملاحظة. انظر إلى ما تضعه في المساحة المشتركة وما تسمعه من شكاوى متكررة. لا تدخل أملاك الناس أو تصورهم. اختر خلاً واحداً تستطيع علاجه فوراً، ثم أخبر من يتأثر إذا احتاج الأمر إلى تنسيق. لا تبدأ بحملة لتصحيح الجميع قبل إزالة ما يخصك.

فرصة النفع	تنفيذ بسيط	متابعة مناسبة
ممر مزدحم بأغراض	نقلها إلى موضع مأذون	التأكد أن الممر بقي مفتوحاً
ضوضاء يمكن تجنبها	تعديل الوقت أو الوسيلة	سؤال المتأثر في وقت مناسب

فرصة النفع	تنفيذ بسيط	متابعة متناسبة
جار جديد	عرض معلومة عن خدمة عامة	تركه يختار ما يحتاج السؤال عنه
غياب يحتاج انتباهاً	اتفاق واضح على مهمة محدودة	تنفيذ المتفق عليه دون تفقد خاص

تدريب الرد على الملاحظة. إذا قال جارك إن صوتاً أزعجه، لا ترد بقائمة إحسانك السابق. اسأل عن الوقت والمصدر بالقدر الذي يساعد على الإصلاح. قد تكون شكواه غير دقيقة؛ التثبت لا يحتاج إهانة، والاعتذار عن أذى تحقق لا يسقط حَقك في بيان ما لم يقع.

علامة التقدم. لا تجعلها زيادة العلاقات الاجتماعية قسراً. بعض الجيران يفضلون مساحة هادئة وقرباً محدوداً. قد تكون الثمرة أن يستطيع أحدهم إبلاغك بمشكلة دون خوف من غضبك، وأن تصلحها دون تحويله إلى خصم.

وإذا تحول الأمر إلى نزاع على ملك أو حق مشترك، فلا تنشئ نظاماً خاصاً باسم الجيرة. استعمل القنوات المسؤولة والمعلومة، واحتفظ من التوثيق بما يلزم فقط. هذا التدريب يحسن طريقة التعاون ولا يمنحك سلطة إدارة حي أو فرض مساهمة على ساكنيه.

التدريب السادس: زيارة مريض تخفف ولا تثقل

قبل الزيارة اسأل عن مناسبتها. قد يحب المريض حضورك، وقد يكون التعب أو إجراء العلاج أو حاجة الأسرة إلى الهدوء سبباً لتأجيلها. لا تجعل جوابهم اختباراً لمحبتك. أصل عيادة المريض ثابت كما تقدم في الكتاب، أما وقت الزيارة وطولها وطبيعة الدعم فتحدد بحاله وإرشاد الجهة المعالجة حيث يلزم.

في المثال، رتبت مجموعة زيارة مفاجئة، وأحضرت طعاماً لأن الضيف لا يأتي فارغ اليدين. لم تعرف أن المريض لا يستطيع استقبال العدد، وأن الطعام لا يناسب تعليماته. يمكن أن يتحول الحرص على الجمالة إلى مهمة إضافية للأسرة. البديل سؤال قصير مسبق: هل تناسبكم زيارة؟ أم يكون شراء احتياج أو توصيل فرد من الأسرة أنفع؟

قبل أن تخرج. عيّن غرضاً بسيطاً: سلام، مؤانسة يرحب بها، أو تنفيذ طلب معلوم. لا تحمل وصفات وتجارب علاجية لتناقشها في مجلسه، ولا تتعامل مع معلوماته الصحية على أنها حديث مشترك. إذا سأل عن قرار طبي، ساعده في ترتيب سؤاله للفريق المعالج بدل أن تتولى الإجابة.

عبارة قد نثقل	بديل أرفق	سبب الاختيار
لماذا لم تخبرني بكل التفاصيل؟	يسعدني أن أساعد بما يناسبك	لا يجعل المحبة حقاً في كشف المرض
أعرف علاجاً مجرباً	هل تحتاج من يساعدك في سؤال المختص؟	يحفظ حدود الخبرة
يجب أن تستقبلنا جميعاً	نأتي في العدد والوقت المناسبين	يقدم راحة المريض على المناسبة
أخبر المجموعة عن حالتك	ما الذي تسمح لي بإبلاغهم به؟	يعيد قرار المشاركة لصاحبه

بعد الزيارة. أنجز الوعد الصغير الذي خرجت به، ولا تكتف برسالة عامة إن كنت قد التزمت بشراء أو نقل. لا تذكر أمام الآخرين ما رأيته من ضعف أو خوف، ولو رأيته مؤثراً. من حق الإنسان أن يتلقى المواساة دون أن يصير قصة متداولة.

تدريب المراجعة. اسأل نفسك: هل خرجت الأسرة بمهمة أقل أم بمواعين وضيافة وأسئلة أكثر؟ هل كان سكوتي في موضعه؟ هل بقيت أكثر مما يحتمل المريض؟ لا تحول الإجابة إلى جلد للنفس؛ غير ما تقدر عليه في الزيارة التالية.

عند تغير الحال أو ظهور خطر، اتبع توجيه المختص والجهة المحلية المسؤولة. لا يستعمل هذا الفصل لتحديد عرض طارئ أو علاج. وقد تكون الزيارة النافعة في يوم معين هي التي تؤجل برفق، ويصل مكانها فعل تحتاجه الأسرة حقاً.

التدريب السابع: طعام يصل صالحاً ومناسباً

لا يكفي في الإطعام أن يخرج الطعام من يدك. يلزم أن تعرف أن ما تقدمه مناسب ويمكن الانتفاع به. اسأل عن النوع والوقت والكمية وطريقة التسليم، دون أن تحول السؤال إلى تحقيق في فقر الأسرة. وإذا كان في الطعام اعتبار صحي أو ديني أو سلامة نقل لا تعرفه، فاستعن بمن يختص به واتبع الضوابط المحلية المناسبة.

في الحالة التدريبية، وصلت إلى أسرة خمس وجبات في ساعة واحدة من أناس أراد كل منهم الخير. لم تكن لديها سعة لحفظها، بينما احتاجت في اليوم التالي إلى وجبة واحدة. المشكلة ليست في قلة العطاء، بل في غياب التنسيق. يمكن لشخص مأذون أن ينظم الأوقات بأقل معلومات، دون نشر أسماء الأسر أو تفاصيل ظروفها على مجموعات واسعة.

تجربة أولى صغيرة. ابدأ بكمية يتضح الاحتياج إليها قبل توسيع المبادرة. لا تجمع الطعام على أمل أن تجد له مستفيداً بعد ذلك. ليس كل فائض صالحاً للتوزيع، وليس المحتاج ملزماً بقبول ما لا تريده أنت. لا ينوب حسن القصد عن سلامة التجهيز والحفظ والتسليم.

قرار يحتاج وضوحاً	معلومة تكفي غالباً	سؤال متابعة
العدد	العدد المطلوب لهذا الموعد	هل زاد ما لا يمكن استعماله؟
النوع	اختيار مناسب يذكره المستفيد	هل احتاج إلى تبديل؟
الموعد	وقت يستطيع الاستلام فيه	هل وصل قبل أن يفوت غرضه؟
التسليم	نقطة تحفظ الخصوصية والملاءمة	هل تسبب الوصول في إحراج؟

موقف اختبار. رفض المستفيد الوجبة. لا تفسر الرفض فوراً بأنه عدم حاجة أو قلة شكر. قد يكون الطعام غير مناسب، أو وصل دعم آخر، أو لم يرد هذه الطريقة. اسأل فقط إن كان يريد بديلاً، ثم احفظ حقه في الرفض. ولا تكرر العرض بصيغة تضغط عليه أمام أهله.

المتابعة الجماعية. قس ما وصل مناسباً في الوقت المتفق عليه، وما تعذر، وما أعيد توجيهه بإذن صحيح. لا تعرض عدد الأيكاس وحده كأنه عدد حاجات قضيت. وإذا تكرر الفائض نخفف الكمية أو غير الموعد بدل البحث عن صور أكثر للتوزيع.

ثمرة التدريب أن يقل الهدر والخرج معاً. وقد يكون أفضل قرار في يوم معين أن نتوقف عن إرسال طعامٍ وتساعد في حاجة أخرى صرح بها صاحبها. ليس تغيير الوسيلة نقصاً في الكرم، بل استجابة لما تعلمته عن المنفعة.

التدريب الثامن: عطاء مالي لا يشتري القرار

ابداً بتحديد ما تبذله: هبة أم قرض أم مشاركة في نفقة؟ الغموض في البداية قد يحول المساعدة لاحقاً إلى نزاع وعتاب. لا يسمى المبلغ هدية ثم يعامل كدين، ولا يطلب من المستفيد مقابل لم يفهمه عند القبول. وما يحتاج عقداً أو توثيقاً أو حكماً شرعياً ونظامياً يرجع فيه إلى المختص بحسب البلد والواقعة.

في مثال اقتراضي، أعان شخص قريبه بمبلغ، ثم غضب حين اختار القريب عملاً يخالف نصيحته. لم يشترط عليه عند العطاء شيئاً، لكنه شعر أن من حقه إدارة القرار. هنا يلزم أن يفصل النصيحة عن ملك الاختيار. يمكنه ألا يقدم دعماً جديداً خارج قدرته أو اقتناعه، لكن لا يجعل المعروف الماضي ثمناً لطاعة لم يتفق عليها.

تدريب الوضوح. صغ قبل التحويل رسالة قصيرة مناسبة: ما طبيعة المبلغ؟ وهل له غرض محدد اتفق عليه؟ وهل يوجد ما يحتاج سؤالاً قبل قبوله؟ تجنب التفاصيل التي تذل صاحب الحاجة. الوضوح لا يعني أن تجمع مستندات أكثر من اللازم أو أن تنشر سبب الدعم بين المعارف.

موضع الالتباس	ما ينبغي توضيحه	خطأ شائع
المبلغ قرض	شروطه المشروعة وطريقة توثيقه	تسميته مساعدة ثم المطالبة المفاجئة
المبلغ هبة	أنه بلا مقابل خفي	انتظار خدمة دائمة بعده
له غرض معين	اتفاق واضح قبل القبول	تغيير الشرط بعد الصرف
تعدد الداعمين	من المسؤول وما حدود التفويض	تكرار مطالب مختلفة على المستفيد

عند التعثر. إذا لم يصل المال أو أخطأت في وسيلة الإرسال، بادر إلى المعالجة عبر القناة الرسمية. لا تطلب كلمات المرور أو رموز التحقق لإكمال معروف. وإذا ظهرت شبهة احتيال، فتثبت بالوسائل المشروعة ولا تنشر اتهاماً قبل معرفة كافية.

المتابعة. تتناسب مع طبيعة المبلغ والاتفاق، ولا تصبح تفتيشاً في كل اختيار شخصي. في الهبة غير المشروطة قد يكفي التأكد من الوصول. وفي عمل مقيد بأمانة واضحة تكون المتابعة لما اتفق عليه، دون توسيع السلطة كلما أردت معلومة جديدة.

راجع قلبك حين لا يأتي الشكر الذي توقعت. هذه لحظة تعلم: هل كنت تريد نفعه أم امتلاك مكانة عنده؟ لا تحكم على نيتك حكماً قاطعاً من خاطر عابر؛ أصلح ما يظهر في تعاملك، واستعن بالله، ولا تعاقب المحتاج على مجاهدتك أنت لنفسك.

التدريب التاسع: إعانة المعسر دون إذلاله

إذا كنت صاحب دين، فابدأ بمعرفة الحق الذي عليك والحق الذي لك. وإذا كنت وسيط مساعدة، فلا تعد بإسقاط مال غيرك. وقد تقدم في الكتاب الفرق بين إنظار المعسر وفضل إسقاط الدين؛ هنا نتدرب على طريقة السؤال والتنفيذ، ولا نحسم إثبات الإعسار أو النزاع أو إجراءات المطالبة بقاعدة عامة.

في المثال، يمر عامل بضيق مؤقت، فيطلب تأخير التزام. يجمع صديقه تفاصيله في رسالة طويلة ويرسلها إلى عشرات الأشخاص دون إذنه. ربما يأتي المال، لكن الضرر بالخصوصية سبق وصوله.

البديل أن يسأله عما يأذن في مشاركته، ومع من، ولأي غرض. ويمكن أن تكون المساعدة في الوصول إلى جهة مؤهلة لفحص الطلب بدل تداول ملفه بين المعارف.

تمرين فصل الأدوار. اكتب: أنا دائن، أم متبرع، أم ناقل معلومة، أم وسيط؟ لكل دور حد مختلف. لا نتكلم بلسان الدائن وأنت لا تملك قراره، ولا نتكلم باسم المستفيد في تفاصيل لم يأذن لك فيها. وإذا تغير دورك فوضح ذلك قبل التصرف.

الدور	فعل ممكن	ما لا يملكه هذا الدور وحده
صديق	إصغاء ودلالة وإعانة بقدر القدرة	تقرير حكم الدين المتنازع عليه
متبرع	بذل واضح في حدود المال والإذن	اشتراط كشف كل حياة المستفيد
وسيط	نقل طلب محدد بأمانة	ضمان موافقة الطرف الآخر
صاحب حق	بحث الحل المشروع مع صاحبه	التشهير به لتسريع الاستجابة

خطة صغيرة. حدد الخطوة التالية فقط: جمع معلومة لازمة، أو موعد مع جهة موثوقة، أو عرض مساعدة معلومة. لا تضع خطة سداد مكان صاحب الشأن دون فهم دخله والتزاماته وموافقته، ولا تقدم استشارة مالية متخصصة من تجربة شخصية.

المتابعة. اتفق على قناة واحدة، وابتعد عن تعدد الأشخاص الذين يطلبون منه الإجابة عن السؤال نفسه. إذا لم يحدث تقدم، فميز بين نقص المعلومة وعجز الوسيلة وعدم الموافقة. ليست كل نتيجة متأخرة دليلاً على قلة الصدق أو ضعف التعاون.

مراجعة نفسك. هل استطاع الرجل أن يقول «لا أريد نشر هذا» دون أن يخسر احترامك؟ هل وصفته بين الناس بما لا يحب؟ هل وعدته أن الدين سينتهي وأنت لم تملك إلا المحاولة؟ إصلاح هذه الأمور منفعة حقيقية، حتى إذا بقيت المشكلة المالية محتاجة إلى طريق أطول.

التدريب العاشر: منفعة الباحث عن عمل

قد يحتاج الباحث عن عمل إلى فرصة مناسبة، أو معرفة بطريقة تقديم، أو تدريب على عرض خبرته. لا يبدأ كل طلب بوعده التوظيف. اسأله عما يريد مراجعته، ثم حدد ما تحسنه أنت. قد تكون قادراً على تحسين وضوح السيرة، لكنك لا تملك تقييم أهلية لمهنة تخصصية أو ضمان قبول لدى جهة.

في الحالة الافتراضية، يعرف أحدهم مسؤولاً في شركة، فيعد قريبه بالقبول ويطلب منه ترك بحثه عن بدائل. لم تصدر موافقة من الشركة، وصار الوعد عبثاً. الدلالة الأمانة تقول: «أستطيع إيصال طلبك بالطريقة المعتمدة، ولا أملك قرار القبول». هكذا تبقى المحاولة نافعة دون أن تجس صاحبها في انتظار مختلف.

جلسة تدريب. اختر فقرة واحدة من سيرته بموافقته، واسأله عما فعله فعلاً وما يستطيع شرحه في مقابلة. لا تكتب مهارة أو خبرة لم يمارسها كي يبدو أفضل. يساعد الوضوح على تقديمه بعدل، أما التزيين الكاذب فقد يضره ويضر من يعتمد عليه.

خطوة	تنفيذ محدد	معيار متابعة
فهم الغرض	تحديد نوع الدور الذي يبحث عنه	يستطيع شرح ما يناسبه وما لا يناسبه
مراجعة الطلب	إصلاح الغموض والأخطاء الظاهرة	كل عبارة يستطيع تأييدها بصدق
الدلالة	رابط أو قناة توظيف معلومة	تمكن من استعمالها بنفسه
المتابعة	موعد واحد لمراجعة ما تعلمه	لا انتظار لوعده قبول غير موجود

محاكاة مقابلة. اطلب منه مثلاً على مشكلة حلها، ثم اسأله عن دوره تحديداً. إذا قال «فعلنا»، فساعدته على تمييز عمل الفريق من عمله دون تقليل. وإذا لم يملك مثلاً، فلا تختلقه؛ ابحث معه عن خبرة حقيقية أصغر أو مهمة يمكنه تعلمها مستقبلاً.

حدود العون. لا ترسل سيرته إلى الجميع دون إذن، ولا تكشف بطالته بوصفها قصة استعطاف. ولا تضغط على جهة لتجاوز حق متقدم آخر أو متطلبات سلامة مهنية. الشفاعة الحسنة لا تجعل عدم الأهلية مؤهلاً.

عند الرفض، لا تجعله حكماً على قيمته. اسأل عما يمكن تعلمه من معلومة موثوقة، واترك ما لا تعرفه مجهولاً. ثمرة التدريب طلب أصدق وطريق أوضح وقدرة أكبر على المحاولة، لا ضمان الوظيفة في موعد نختاره.

التدريب الحادي عشر: مساعدة الأجير في وصول حقه

قد يبدأ نفع العامل من أداء ما اتفق عليه معه في وقته، لا من صدقة تقدم بعد تأخير أجره. وإذا لم تكن صاحب العمل، فاحذر أن تتولى نزاعاً لا تعرف تفاصيله. يمكنك أن تساعد في ترتيب معلوماته والوصول إلى القناة المختصة، مع حفظ الأصل الذي تقدم في حديث الوعيد على منع أجر الأجير.

في المثال، يريد عامل الاستفسار عن تأخر مستحق، لكنه لا يفهم الرسالة التي وصلته. يعرض متطوع أن يكتب شكوى شديدة الاتهام. قبل ذلك يلزم فهم النص: هل هو طلب معلومة؟ هل توجد مرحلة إجرائية؟ هل يوافق العامل على الصياغة؟ لا ينوب غضبك عنه عن دقة ما يقدمه.

تمرين الترجمة الواضحة. اقرأ العبارة الرسمية ثم اشرح معناها بلغة سهلة، وافصل ما فهمته يقيناً عما يحتاج مختصاً. لا تقل «ستكسب القضية» أو «لا حق لك» من ورقة واحدة. القوانين والإجراءات تختلف، ويجب الرجوع إلى المصدر الرسمي في البلد المعني عند العمل الفعلي.

ما تستطيع مساعدته فيه	طريقة آمنة	ما يبقى لأهله
ترتيب الوقائع	تواريخ وأحداث كما يرويها ويثبتها	الفصل القانوني في المسؤولية
فهم رسالة	شرح الألفاظ والطلبات الظاهرة	تفسير ملزم لعبارة محل نزاع
الوصول إلى قناة	تعريف بالقناة الرسمية المتحققة	ضمان النتيجة أو المدة
صياغة سؤال	طلب واضح بلا اتهام زائد	تمثيل قانوني بلا صفة

في المتابعة. لا تحتفظ بصور الوثائق أكثر مما تقتضيه المهمة، ولا تخطط وثائق عدة أشخاص في جهاز يتاح للجميع. سلّم ما يلزمه بطريقة مأمونة، ووضح ما انتهى من دورك. لا تستخدمه شاهداً على إحسانك أمام الآخرين.

إذا كنت صاحب العمل وظهر خطأ منك، فابدأ بالتصحيح ورد الحق وفق ما يلزم، لا بطلب الثناء على تجاوبك. ولا تحمل العامل تكلفة استخراج ما كان ينبغي أن توضحه له أصلاً. العدل في المعاملة صورة قريبة من الخير لا تحتاج اسم مبادرة.

المراجعة. هل صار صاحب الطلب أفهم لخطوته التالية؟ هل بقي قراره عنده؟ هل سجلت حقيقة أم زدت دعوى؟ النجاح هنا قد يكون سؤالاً صحيحاً في موضعه، وتبقى النتيجة النهائية عند الجهة التي تملكها.

التدريب الثاني عشر: تعليم مهارة دون صناعة تبعية

المساعدة التعليمية النافعة تجعل المتعلم أقدر على العمل بنفسه. اختر مهارة صغيرة تستطيع إتقان شرحها: استعمال أداة مأمونة، ترتيب ملف، قراءة جدول، أو أداء خطوة رقمية بسيطة. لا تبدأ بما تحب عرضه من معلومات؛ ابدأ بما يحتاج أن يفعله بعد اللقاء.

في الحالة التدريبية، يطلب شخص تعلم إعداد رسالة، فيتولى مساعده كتابة كل رسائله بعد ذلك. أنجز العمل الأول سريعاً لكنه لم ينقل القدرة. يمكن أن يكتب معه مثلاً، ويشرح سبب ترتيب جملة، ثم يتركه يكتب رسالة أخرى ويقدم له ملاحظة محددة. ليس البطء في البداية فشلاً إذا كان يبني استقلالاً مناسباً.

مسار التجربة. اعرض خطوة واحدة، ثم دع المتعلم يجربها. أسأله أن يشرح ما فعل بلغته، لا أن يردد شرحك. إذا تعثر، فابحث عن موضع التعثر بدل إعادة المحاضرة كلها. لا تكثر النوافذ والخيارات حتى تختفي الفكرة الأساسية.

مرحلة	دور المساعد	علامة تعلم معقولة
المثال الأول	يوضح الفعل وسببه	يعرف المتعلم ما المطلوب
المحاولة المشتركة	يترك جزءاً ينفذه صاحبه	يصحح خطأ مع تلميح
المحاولة المستقلة	ينتظر قبل التدخل	ينجز الحالة البسيطة دون نقل
نقل المهارة	يقدم مثلاً مختلفاً قليلاً	يشرح كيف عدل الخطوة

تغذية راجعة صادقة. قل: «العنوان واضح، لكن الطلب يحتاج موعداً»، بدل «أنت لا تفهم الكتابة». افصل قيمة الإنسان عن جودة المحاولة. واذكر ما تحسن فعلاً دون مدح آلي لا يساعده على معرفة موضع التقدم.

حدود التدريب. لا تمنح شهادة كفاءة مهنية من تمرين صغير، ولا تختبر شخصاً أمام جمهور إذا لم يرض. وتعليم الأطفال أو الفئات المحتاجة لحماية إضافية يجري في إطار آمن مناسب وبإذن من يلزم، لا بعلاقة فردية مبهمة.

المتابعة. بعد مدة مناسبة اسأل عن استعمال واحد للمهارة، لا عن إكمال كل ما قلت. إذا لم يستخدمها فقد تكون الحاجة مختلفة أو لم تتوفر فرصة. عدل الهدف قبل زيادة الواجبات. ثمرة العون أن يستطيع شيئاً نافعاً بثقة واقعية، لا أن يحفظ اسم من علمه كلها حاول.

التدريب الثالث عشر: مساعدة رقمية تحمي صاحبها

قد يكون فتح نموذج أو حجز موعد عقبة حقيقية أمام من لا يألف الهاتف. المساعدة هنا لا تقتضي أن تستولي على الحساب. اسأل صاحب الجهاز أن يبقى حاضراً وأن يدخل ما يخصه من أسرار بنفسه. وإذا لم يستطع، فاتبع طريقة تفويض آمنة ومسموحاً بها في الخدمة؛ لا ترتجل ملكية حساب أو صفة تمثيل.

في المثال، يريد متطوع تسهيل طلب، فيطلب رمز التحقق في مجموعة عامة ويحتفظ بصورة الهوية. قد تكون نية العون حسنة، لكن هذه المعلومات لا ينبغي أن تتحول إلى مادة يتداولها الجميع. ابدأ بتحديد الجزء الصعب: هل هو فهم السؤال؟ أم حجم الخط؟ أم الوصول إلى القناة؟ قد يحل الشرح المشكلة دون نقل أي بيانات إليك.

تدريب بالمشاهدة. اطلب منه وصف ما يظهر أمامه دون إرسال صورة تكشف معلومات خاصة. اشرح خطوة واحدة، ثم انتظر أن ينفذها. إذا احتجت إلى رؤية الشاشة فليتحكم هو فيما يعرض، ولا تصورهما لمجرد الراحة. لا تجعله يشعر أن بقاء التعلم سبب للتنازل عن خصوصيته.

موقف	مساعدة تحافظ على التحكم	علامة خطر
رمز يصل للهاتف	يدخله صاحبه بنفسه	طلب نسخه في محادثة مشتركة
سؤال غير مفهوم	شرح المقصود دون اختيار إجابة عنه	تعبئة معلومة تخمينية
رابط مشكوك فيه	التحقق من القناة الرسمية	التعجيل بالضغط بدعوى ضيق الوقت

موقف	مساعدة تحافظ على التحكم	علامة خطر
تعذر الإجراء	الرجوع لدعم الخدمة	اختلاق بيانات لتجاوز الخطوة

اختبار الاستقلال. بعد الشرح أسأله أن يصل إلى الخطوة من بدايتها مرة أخرى إن رغب. لا تجربه على محاولات ترهقه، ولا تحول حسابه الحقيقي إلى مساحة تجارب. يمكن أن تكون المحاكاة على ورقة أو شرح شاشة عامة أكثر أماناً.

نهاية المهمة. أغلق ما فتحته على جهازك إن استخدمته بإذن صحيح، وسلم ما يلزم، واحذف النسخ التي لا حاجة مشروعة لبقائها وفق الاتفاق والنظام. لا تحتفظ بملف أشخاص لأنهم قد يحتاجونك مستقبلاً.

المتابعة المناسبة سؤال محدود: هل تمكنت من الخطوة التالية؟ لا تطلب إثباتاً يكشف نتيجة خاصة لا علاقة لها بدورك. وقد يكون أصدق إنجاز أن يعرف الشخص كيف يستعين بالدعم الرسمي دون أن يضطر إلى تسليم حياته الرقمية لمن يساعده.

التدريب الرابع عشر: إتاحة المشاركة لمن تعوقه الطريقة

ربما كانت الدعوة مفتوحة للجميع، لكن طريقة التسجيل أو الدخول أو عرض المعلومات تستبعد بعضهم. لا تستنتج أن عدم الحضور يعني عدم الاهتمام. اسأل عن العائق باحترام، واترك لصاحبه تحديد ما يريد مشاركته. الحاجة إلى تيسير لا تلغي الأهلية ولا تعني أن الآخرين يقررون نيابة عنه.

في الحالة، تنظم مجموعة درساً وتكتب كل المعلومات في صورة صغيرة يصعب قراءتها. يقول أحدهم إن المشاركة متاحة لأن الصورة أرسلت للجميع. لكن إرسالها لا يضمن إمكان استعمالها. يمكن نشر نص واضح معها وقناة تواصل مناسبة، ثم سؤال من طلب التيسير عن مدى نفع البديل.

مراجعة الطريق. جرب خطوات الوصول من بدايتها: معرفة الموعد، التسجيل، الانتقال، الدخول، المشاركة، والحصول على المادة. لا تدّع أنك تحاكي تجربة كل إعاقة بمجرد تجربة قصيرة. هذه مراجعة أولية تكشف عوائق ظاهرة، ويكملها أصحاب الخبرة والمختصون حيث يلزم.

جزء من الخدمة	سؤال عملي	تحسين قابل للفحص
الإعلان	هل توجد المعلومات كنص واضح؟	نسخة نصية كاملة بجوار الصورة

جزء من الخدمة	سؤال عملي	تحسين قابل للفحص
المكان	هل يعرف القادم طريقة الوصول المناسبة؟	وصف دقيق وقناة سؤال مسبق
المشاركة	هل الكلام هو الوسيلة الوحيدة؟	إتاحة سؤال مكتوب إذا ناسب النشاط
المادة	هل يمكن مراجعتها بعد اللقاء؟	ملف منظم قابل للقراءة

تمرين الفريق. اختر عائقًا واحدًا، وحدد من يملك تعديله، ثم اختبر التعديل مع موافقة شخص يستفيد منه. لا تطلب منه تمثيل جميع من يشتركون معه في وصف عام، ولا تنشر تجربته بوصفها قصة ملهمة دون إذنه.

معيار المتابعة. هل أمكن له إنجاز الخطوة التي أرادها؟ قد لا يحضر بعد إزالة العائق لأسباب أخرى، فلا تعتبر ذلك فشلًا للتيسير أو حجة لوقفه. والعدد الكلي للحاضرين وحده لا يكشف من بقي خارج الطريق.

حافظ على كرامة المشاركة. لا تقدم المساعدة الجسدية أو تحرك أداة شخصية دون سؤال مناسب. وقد يكون المطلوب تغيير إجراء عندك، لا زيادة اعتماد الشخص عليك. هذا التدريب تطبيق تنظيمي لمبدأ النفع وصيانة الكرامة، وليس شهادة امتثال فني لجميع معايير الإتاحة.

التدريب الخامس عشر: مساندة طالب دون أداء عمله عنه

قد يطلب الطالب حل واجب، وهو يحتاج في الحقيقة فهم خطوة أو تنظيم وقت أو وصولاً إلى مصدر. تبدأ المساعدة بتحديد العائق، ثم تبقى مهمة التعلم عنده. لا تجعل الإحسان طريقاً إلى تقديم عمل ليس عمله، ولا تسوّغ الغش بحجة أن ظروفه صعبة. يمكن البحث عن دعم مشروع يناسب الظروف دون إفساد الأمانة.

في المثال، استعصى سؤال على طالب، فيكتب صديقه الإجابة كاملة ليخفف عنه. سلم الواجب لكنه لم يعرف كيف يبدأ السؤال التالي. المساعدة الأجدى أن يطلب منه شرح ما فهمه، ثم يقدم مثلاً مختلفاً أو تلميحاً، ويتركه يكمل محاولته. وإذا كان التكليف يمنع التعاون، فيراعى ذلك ويطلب من المعلم ما يسمح به.

خطوات الجلسة. اجعل اللقاء قصيراً بغاية واحدة: فهم مفهوم محدد أو إعداد خطة مراجعة واقعية. ابدأ بما يستطيع الطالب فعله، ثم انتقل إلى موضع التعثر. لا تتقلضعه الدراسي إلى وصف لشخصيته أو توقع لمستقبله.

ما يظهر في المحاولة	سؤال مساعد	ما نتجبه
لا يعرف المطلوب	ماذا يطلب السؤال بكلماتك؟	إعطاء الجواب قبل فهم السؤال
ينسى خطوة	أين توقفت؟ ولماذا اخترت هذا؟	وصفه بالكسل من محاولة واحدة
يعتمد على مثال محفوظ	كيف يتغير الحل إذا تغير هذا الشرط؟	اعتبار التكرار فهماً كاملاً
الوقت ضيق	ما الجزء الأهم الذي تستطيع مراجعته؟	خطة ضخمة تزيد الاضطراب

تدريب المتابعة. في لقاء لاحق، دعه يشرح مثلاً جديداً من اختياره. إذا لم ينجح، قل ما الذي بقي بحاجة إلى تعلم، ولا تصفه بأنه لم يستفد من مساعدتك. قد تكون طريقتك غير مناسبة أو الأساس السابق غير مكتمل.

الحماية والحدود. عندما يكون المتعلم صغيراً، تكون المساعدة ضمن الأطر الآمنة المعروفة وبإذن من يلزم. لا تنشئ تواصلاً سرياً أو اعتماداً شخصياً يجعله يخاف من طلب العون من غيرك. لا تنشر درجاته أو صور أوراقه لتعرض أثر المبادرة.

ثمرة التدريب قدرة على المحاولة وفهم أوضح للمطلوب. ارتفاع الدرجة المحتمل ليس وعداً، ولا يجوز أن يصبح ذريعة لتزييف العمل. حافظ على صدق التعلم؛ فهو منفعة أبقى من علامة حصل عليها الطالب بإجابة لم يفهمها.

التدريب السادس عشر: قراءة نافعة لشخص لا يصل إلى المادة

ربما كان نفعا أن تقرأ لشخص ورقة يحتاج فهمها، أو أن تلخص مادة عامة يصعب عليه الوصول إليها. ابدأ بالسؤال عن الغرض: هل يريد معرفة موعد؟ أم فهم تعليمات؟ أم الاستمتاع بكتاب؟ يختلف العمل بحسب ذلك، ولا يلزم أن تحول كل جلسة إلى درس طويل.

في المثال، يطلب رجل قراءة خطاب رسمي، فيختصر قارئه بعض الجمل لأنه يراها غير مهمة. قد تكون الجملة المحذوفة هي المطلوبة للإجراء. الأفضل قراءة النص كاملاً إن كان قصيراً، أو تمييز الاختصار بوضوح، والتوقف عند ما يحتاج تفسيراً مختصاً. لا تستبدل عبارتك بالنص ثم تنسب إليه ما لم يقله.

تجربة ثلاث طبقات. اقرأ أولاً العبارة كما هي، ثم اشرح معناها الظاهر، ثم اذكر إن كان لديك اقتراح شخصي. هذه الطبقات تمنع اختلاط المعلومة بالرأي. وإذا لم تفهم كلمة، فقل ذلك وتحقق بدل إخفاء التردد بثقة في الصوت.

نوع المادة	أمانة النقل	الحد العملي
خطاب خاص	حفظ النص والسر	لا يُنسخ ولا يُشارك بلا حاجة وإذن
تعليمات عامة	نقل الخطوات كاملة	التحقق من تحديثها قبل العمل
مادة تعليمية	تمييز النص من الملخص	احترام حقوق الاستعمال
نص شرعي	ضبط اللفظ والعزو	لا اجتهاد في حكم لا تحسنه

اختبار الفهم. اسأل: ما الخطوة التي فهمت أنك تحتاج إليها؟ ليس المقصود اختبار قدرته أمامك، بل معرفة إن كان شرحك أوصل المعنى. قد تعيد جملة أو تبطئ القراءة أو تترك له نسخة يملك حق استعمالها.

المتابعة. إذا وعدته بإجابة عن لفظ غامض، فاحفظ السؤال وأعد إليه الجواب من مصدر معلوم. لا تترك كلمة «سأبحث» معلقة أسابيع. وإن لم تصل إلى جواب، فبلغه بذلك ودله على من يسأل. في القراءة الوجدانية أو الأدبية، قد تكون صيغة النص نفسها منفعة، ولا يلزم قياسها بعدد الصفحات المنتهية. اتفقا على ما يلائم الوقت والرغبة. ليس كل من أحب أن يستمع يريد واجباً منزلياً، ولا كل من توقف فقد اهتمامه. تحفظ الخدمة حين تتبع حاجته دون أن تبتلع اختياره.

التدريب السابع عشر: إرشاد غريب في مكان جديد

قد يملك الغريب مالا وقدرة، لكنه لا يعرف الطريق أو النظام أو اللغة. لا تفترض حاجته إلى صدقة قبل أن تسمع سؤاله. ربما يريد محطة صحيحة، أو جهة رسمية، أو تفسير لافتة. والعون هنا أن تقدم معلومة تتحقق منها، وتصرح بما لا تعرفه، وتحفظ له قرار المتابعة.

في الحالة، يسأل زائر عن جهة لإنجاز معاملة، فيعطيه أحد السكان عنواناً يتذكره من سنوات. يقطع الزائر مسافة ثم يجد أن الخدمة انتقلت. كان يمكن للمساعد أن يقول إنه غير متأكد، وأن يتحقق من القناة الرسمية أو يدلّه على نقطة استعلام موثوقة. لا تتحول سرعة الجواب إلى فضل إذا كلفت السائل وقتاً ومشقة.

تدريب الدقيقة الواضحة. اسأل عن الغرض دون جمع تفاصيل لا تحتاج إليها. أعد الاسم أو العنوان للتأكد من أنك فهمته. إذا اختلفت اللغة، استعمل عبارة قصيرة واضحة، ولا تعالج عدم الفهم برفع الصوت. يمكن كتابة معلومة أساسية أو رسم اتجاه بسيط إذا كان ذلك مناسباً.

المطلوب	ما ينبغي التحقق منه	نهاية العون
الوصول إلى مكان	الاسم والموقع الحالي	استطاع معرفة اتجاهه
معرفة موعد خدمة	المصدر الرسمي والتوقيت	صار لديه طريق للتحقق لاحقاً
فهم رسالة	المعنى الظاهر دون زيادة	عرف سؤاله التالي
استشارة تخصصية	الجهة المخولة	وصل إلى من يملك الإجابة

الموقف الأصعب. قد يطلب أن ترافقه، وأنت لا تستطيع أو لا يناسبك. اعتذر بوضوح وقدم ما تقدر عليه دون شعور أنك ملزم بتوسيع الخدمة بلا حد. لا تجعله ينتظر على وعد مرافقة غير واقعي.

حفظ الأمان. لا تحمل وثائقه أو هاتفه بعيداً عنه بحجة السرعة، ولا تلتقط صورة لتذكر الموقف. وإذا كانت المساعدة داخل مؤسسة فلها إجراءاتها ومسؤولياتها. لا تتجاوز تنظيمها باسم المجاملة. المتابعة. في الحاجة العابرة قد لا توجد متابعة أصلاً، وهذا مقبول. لا تطلب رقم هاتفه كي تتأكد من أثر معروفك. يكفي أن تكون المعلومة صحيحة بقدر ما تحققته، وأن يعرف حدودها. ليس كل نفع يحتاج علاقة مستمرة أو قصة ختامية.

التدريب الثامن عشر: وقت تطوعي لا يستهلك وقت الآخرين

قد يصل المتطوع بحماسة، لكنه يحتاج كل ساعة إلى من يشرح له عملاً لم يتدرب عليه. ليس في التعلم عيب، لكن تنظيم البداية يمنع أن يثقل التطوع على الفريق أكثر مما يعينه. اسأل عن المهمة المطلوبة، وشروطها، والوقت اللازم لتعلمها، قبل أن تحضر بما اخترته أنت.

في المثال، تعلن مجموعة حاجتها إلى فرز مواد تعليمية. يحضر شخص بآلة تصوير ليعد تقريراً عن النشاط، بينما بقي الفرز متأخراً. ربما كان التصوير مفيداً في ظرف آخر، لكنه ليس ما طلبه الفريق، وقد يحتاج إذناً لم يؤخذ. ابدأ بالمهمة المتفق عليها أو صرح بأنك لا تستطيعها.

بطاقة الاستلام. عند أول لقاء اطلب تعريفاً بسيطاً: ماذا أنجز؟ كيف أعرف أنه صحيح؟ من أسأل عند الاشتباه؟ وأين أسلم الناتج؟ هذه الأسئلة القليلة تحفظ وقت الطرفين. لا تجعل كل تفصيل مستقلاً مناسبة لاجتماع جديد.

نقطة الاتفاق	مثال عملي	ما يكشف التعثر
الناتج	فرز المواد بحسب قائمة واضحة	اختلاف معنى «جاهز» بين الأفراد
الجودة	مادة سليمة وعنوان ظاهر	التركيز على عدد القطع فقط
الاستفسار	شخص محدد في وقت مناسب	سؤال الجميع عن المسألة نفسها
التسليم	مكان وحالة معلومة	ترك العمل دون إخبار المسؤول

تمرين البداية الصغيرة. أنجز عينة محدودة، واعرضها قبل تكرار العملية كثيراً. قد يوفر تصحيح العينة ساعات من إعادة العمل. إذا أخطأت فلا تخف الخطأ حتى يظهر في نهاية اليوم؛ سرعة الإبلاغ جزء من الأمانة.

المتابعة. احسب الوقت المتاح فعلاً، لا الوقت الذي تتمنى امتلاكه. إذا تغيرت قدرتك، فأخبر الفريق مبكراً ليسند المهمة إلى غيرك. وعد قصير موثوق خير من إعلان استعداد دائم لا يعرف أحد متى يستفيد منه.

في نهاية التجربة اسأل عن شيء واحد نتقنه في المرة المقبلة. لا تطلب شهادة أثر مبالغاً فيها مقابل حضور قصير، ولا تحكم على الفريق من أول ارتباك. ثمرة التدريب تعاون يسهل العمل، وتعلم مسؤول يجعل مساعدتك التالية أخف كلفة وأوضح فائدة.

التدريب التاسع عشر: إصلاح غرض قبل استبداله

يمكن أن يكون النفع في إطالة عمر شيء يحتاجه صاحبه، لكن حسن النية لا يمنح كفاءة فنية. ابدأ بتحديد ما تحسن إصلاحه بأمان وما يجب أن يحال إلى مختص. لا تجرب في جهاز يرتبط بالكهرباء أو السلامة أو بيانات مهمة لمجرد أنك شاهدت شرحاً سريعاً.

في الحالة، يتعطل حاسوب لطالب، فيعرض صديقه «إصلاحه» ثم يحذف ملفات مهمة. المشكلة لم تكن في العطل وحده؛ كان ينبغي السؤال عن النسخ الاحتياطية، والإذن، وحدود التجربة. أحياناً يكون النفع أن تدل على فني موثوق أو تساعد في نقل الجهاز، لا أن تفتحه بيدك.

فحص قبل الوعد. اسأل عن العطل كما لاحظته صاحبه، لا كما تتخيله. اشرح ما ستفعله وما قد يبقى غير معلوم، ودع له اختيار الموافقة. إذا كان الإصلاح مأموناً ضمن خبرتك، اتفق على نتيجة محددة؛ وإذا لم يكن كذلك، فلا تحول التكلفة المحتملة إلى مبرر للمخاطرة.

سؤال	لماذا يسبق العمل؟	قرار محتمل
هل أملك الأهلية؟	الخطأ قد يزيد الضرر	الإحالة بدل التجربة
ما الذي يجب حفظه؟	بعض الأثر لا يعوض بسهولة	التوقف حتى تتوفر حماية مناسبة
هل وافق صاحبه؟	الشيء وقراره ليسا ملكاً لي	عرض الخيار دون ضغط
كيف نختبر النتيجة؟	التشغيل وحده قد لا يكفي	فحص الوظيفة المقصودة بأمان

التسليم. اذكر ما أصلح وما لم يصلح، وما تحتاج معرفته من المختص. لا تسلم الشيء بعبارة «صار ممتازاً» إذا اختبرت جزءاً واحداً. ولا تتخلص من قطعة أو ملف يخص صاحبه دون إذن مناسب.

المتابعة. سؤال واحد عن الوظيفة التي أصلحتها قد يكفي. إذا عاد العطل فلا تتهم صاحبه بسوء الاستعمال قبل التثبت، ولا تعد بمحاولة أخرى خارج قدرتك دفاعاً عن صورتك. الاعتراف بحد المهارة يوفر وقتاً ومالاً ويحفظ الثقة.

ثمرة التدريب ليست عدد الأشياء التي فتحتها، بل عدد الاحتياجات التي ساعدت على حلها بأمان وصدق. وقد يكون القرار الأجود أن يظل الغرض عند صاحبه حتى يجد مختصاً مناسباً، بدل أن يصبح تجربة لا يعرف أحد عاقبتها.

التدريب العشرون: إعاره الأدوات وتنظيم الانتفاع المشترك

قد تملك الأسرة أو المجموعة أدوات لا تستخدم إلا قليلاً، ويحتاجها غيرها مؤقتاً. الإعاره النافعة تبدأ بإذن المالك ووضوح حالة الشيء وموعد رده وطريقة استعماله. لا تحول كرم شخص واحد إلى مخزن مفتوح يقرر الآخرون من يأخذ منه.

في المثال، يعبر أحد الجيران آلة مأمونة الاستخدام، فينقلها المستعير إلى صديق دون سؤاله. تتأخر العودة ويضيع خبرها. كان الاتفاق مع شخص معين، فلا يتوسع في الإعارة تلقائياً. يمكن تنظيم الانتفاع بورقة بسيطة تبين من استلم ومتى يعيد، دون إنشاء سجل اجتماعي يخرج الناس.

تجربة محدودة. ابدأ بأداة واحدة مناسبة، لا بقائمة تجمع كل ممتلكات الحي. اشرح استعمالها إن كنت تحسنه، وتحقق من ملاءمتها لمن يأخذها. الأدوات التي تحتاج تدريباً أو تحمل خطراً لا تعامل ككتاب أو حقيبة.

قبل التسليم	أثناء الانتفاع	عند الرد
التأكد من إذن المالك	استعمال في الغرض المتفق عليه	بيان حال الشيء بصدق
وصف الحالة الظاهرة	عدم إعارتها لثالث بلا إذن	إعادة الملحقات اللازمة
موعد قابل للتنفيذ	الإبلاغ إذا طرأ عطل	عدم إخفاء أثر يحتاج معالجة
طريقة تواصل محددة	طلب تمديد قبل فوات الموعد	إنهاء السجل بعد استيفاء الغرض

موقف الخلاف. إذا عاد الشيء متضرراً، فلا تضع قاعدة تعويض من عندك أو تقطع مالا تملكه أمانة لغرض آخر. ارجع إلى اتفاق صحيح وما يلزم من حكم مختص بحسب الواقعة. يمكن للحوار الواضح أن يمنع نزاعاً، لكنه لا يستبدل الفصل العادل إذا وقع.

المتابعة. راقب هل وفرت الإعارة على الناس حاجة فعلية أم صارت مهمة إدارية لا ينتفع بها أحد. قد يكون تقليل الأدوات أو تغيير طريقة الحجز أنفع من توسيع المشروع. لا يلزم أن تستمر مبادرة لأنها نجحت مرة.

سؤال القلب. هل أفرح بانتفاع الآخرين وإن لم يعرف الجميع أن الأداة لي؟ وهل أستطيع الاعتذار حين أحتاجها دون أن أؤذي طالبها؟ الكرم لا يسقط ملكك، والحدود الواضحة تحفظ باب الإعارة من المن ومن الخصومة معاً.

التدريب الحادي والعشرون: إزالة أذى دون صنع خطر جديد

قد تكون المنفعة في أمر صغير يمر الناس بجواره: عائق مأمون الإزالة، أو معلومة عن خلل ينبغي إبلاغه. لكن ليس كل ما يبدو أذى يجوز أن نتعامل معه بنفسك. الأسلاك والأجسام

المجهولة والأعطال الفنية والطرق النشطة تحتاج تقديرًا وجهة مختصة. لا يجعل فضل إمطة الأذى التجربة الخطرة عبادة مطلوبة.

في المثال، يرى شخص خللاً في مرفق عام، فيفك جزءاً منه ليصلحه. لم يعرف وظيفته، وربما زاد الضرر. كان يمكن أن يبلغ الجهة المسؤولة ويمنع اقتراب من حوله إن استطاع ذلك بأمان. فرق بين رفع عائق بسيط في حدود القدرة وبين التصرف في بنية لا تملكها ولا تحسنها.

بطاقة القرار السريع. اسأل: هل أعرف طبيعة الشيء؟ هل أستطيع التعامل معه بأمان؟ هل أملك حق التصرف؟ هل هناك جهة مسؤولة؟ إذا لم يتضح الجواب، فلا تحمل الحماسة على سد نقص المعرفة. في الخطر العاجل يرجع إلى الجهة المحلية المختصة، لا إلى تصويت المجموعة.

صورة محتملة	اتجاه التصرف	ما لا نستنتجه
عائق بسيط مأمون	إزالته إذا جاز وكان في القدرة	أن كل عائق يشبه آمن
خلل في	إبلاغ مسؤول المرفق	أن مشاهدة شرح تمنح أهلية

صورة محتملة	اتجاه التصرف	ما لا نستنتجه
ازدحام خطر	تجنب زيادة التعرض وطلب المختص	أن بطولة فردية مطلوبة
شك في الملكية أو الإذن	التثبت قبل النقل أو القطع	أن النفع يبيح كل تصرف

تدريب الإبلان. صنع بلاغاً قصيراً يحدد الموضع ونوع الخلل الظاهر دون تشخيص لا تعلمه. إذا احتجت صورة، فتجنب الأشخاص والبيانات الخاصة ما أمكن، والتزم بالقواعد المناسبة. لا تضيف اهتماماً بالتقصير إلى وصف الخلل إلا بما تملك توثيقه ويحتاجه البلاغ.

المتابعة. احتفظ برقم بلاغ إن وجد، وعد إليه بالطريقة الرسمية. لا تكرر البلاغ كل ساعة أو تنشر وصفاً مرعباً لم تتأكد منه. وإذا عولج الخلل فلا تحتاج إلى نسبة كل النتيجة لنفسك؛ ربما عمل فيه غيرك قبل علمك.

ثمرة التدريب طريق أقل أذى وقرار أكثر اتزاناً. وقد تقدم تعيين رواية مسلم 1914d في الكتاب؛ يستفاد منها أصل فضل إزالة الأذى، أما حدود التدخل الفني والمروري فلا تؤخذ من تصور عام عن الشجاعة.

التدريب الثاني والعشرون: عناية بالمكان لا تتوقف عند الصورة

تنظيف مكان أو تحسينه قد يكون بداية حسنة، لكن السؤال الأبعد: من سيحفظه بعد يوم النشاط؟ إذا جمع الفريق المخلفات وترك الأكياس في موضع يعوق الناس، أو زرع ما لا يناسب المكان دون إذن، فقد نقل المشكلة. ابدأ بالتنسيق مع مالك المكان أو الجهة المسؤولة، وبمعرفة ما يمكن عمله بأمان.

في الحالة، اختارت مجموعة تجميل ساحة، واشترت مواد قبل سؤال الجهة التي تديرها. اكتشفت لاحقاً أن جزءاً من التغيير غير مسموح وأن المتابعة لا يملكها أحد. البديل أن تسأل أولاً عن حاجة المكان وخطته القائمة، ثم تختار جزءاً واضحاً يضيف إلى عمله ولا يكرر ما سيفك بعد أيام.

تمرين ما بعد النشاط. قبل الشراء، اكتب ما سيحدث بعد أسبوع: أين تنقل المواد؟ من يتابع ما يحتاج متابعة؟ ما الكلفة التي تركتها على غيرك؟ هذا السؤال يختبر استدامة الفكرة دون أن يحولها إلى مشروع معقد.

قرار	فحص قبل البدء	دليل إنهاء مسؤول
جمع مواد متناثرة	ملاءمة السلامة والنقل	وصولها إلى موضع مناسب

قرار	فحص قبل البدء	دليل إنهاء مسؤول
تحسين موضع مشترك	إذن وحاجة معلومة	قبول الجهة للتسليم
غرس أو عناية نباتية	ملاءمة النوع والماء والمكان	خطة رعاية يملكها طرف قادر
شراء أدوات	الحاجة الفعلية والتخزين	عدم ترك عبء غير متفق عليه

المتابعة. قارن حال المكان قبل العمل وبعده في الجانب الذي استهدفته، دون تصوير أشخاص أو اختلاق أثر شامل. إذا عادت المشكلة فابحث عن السبب: نقص وعاء مناسب، أو استعمال مختلف، أو غياب جهة متابعة. لا تنسب العودة فوراً إلى سوء أخلاق الناس.

حدود النشر. يمكنك توثيق العمل بما يأذن به صاحبه وتقتضيه الحاجة، لكن الصورة ليست غايته. قد تكون أهم نتيجة غير ظاهرة في الصورة: اتفاق على مسؤولية، أو إزالة سبب تكرار الخلل، أو الامتناع عن تغيير غير مناسب.

سؤال التقييم. لو لم يسمح لنا بالتصوير، هل يبقى هذا العمل أولويتنا؟ السؤال لا يحكم على النيات، لكنه يساعد الفريق على فحص اختياراته. وإذا لم يبق نفع معتبر بعد انتهاء يوم النشاط، فليكن التعديل في الفكرة قبل زيادة عدد المشاركين.

التدريب الثالث والعشرون: رعاية حاجة من لا يتكلم بلغتك

قد يضيع معنى السؤال بين لغتين، فيظن المساعد أنه فهم ويظن السائل أنه وافق. ابدأ بعبارات قصيرة، واسأل عن اللغة أو الوسيلة المناسبة. إن استعنت بترجمة آلية، فاجعلها مساعدة محدودة لا بديلاً عن مترجم مؤهل في القرارات الحساسة التي تحتاج دقة ومسؤولية.

في المثال، يريد شخص فهم موعد، فتظهر في الترجمة عبارة تحتمل اليوم أو الساعة. يرسل المساعد جواباً جازماً ثم يفوت الموعد. كان يمكن إعادة عرض التاريخ بصيغته الأصلية والتثبت من الجهة. المعلومة الصغيرة تصبح كبيرة حين يبني عليها إنسان سافراً أو عملاً. تمرين إعادة المعنى. لا تسأل «فهمت؟» وحدها؛ فقد يجيب حياءً أو ظناً. اسأل برفق: ما الخطوة التي ستفعلها الآن؟ أو اطلب منه الإشارة إلى الموعد الذي اتفقتم عليه. لا تحول ذلك إلى اختبار علي لمستواه أو سبب للمزاح على لغته.

نوع الرسالة	طريقة مساعدة	ما يستدعي مختصاً
اتجاه عام	كلمات واضحة وخريطة مناسبة	غموض يرتبط بإسلامة الوصول

نوع الرسالة	طريقة مساعدة	ما يستدعي مختصاً
موعد خدمة	كتابة التاريخ والوقت والتحقق	اختلاف له أثر مهم لا يحسمه السياق
نموذج بسيط	شرح الحقول دون اختلاق إجابة	إقرار قانوني أو قرار طبي
رسالة شخصية	ترجمة ما أذن صاحبه به	سر لا ينبغي نقله إلى طرف آخر

في التنفيذ. اترك المصطلحات والأسماء الرسمية كما هي عند الحاجة، وميز تفسيرك عنها. لا تضيف عبارات تهديد أو ضمان لأنك ترى أن الرسالة ستكون أقوى بها. نقل المعنى أمانة، وليس فرصة لتحسين موقف شخص بتغيير كلامه.

المتابعة. إذا اكتشفت خطأ في ترجمتك، فأخبر من اعتمد عليها بسرعة وبالقدر الذي يمنع أثره. لا تنتظر أن يسألك مرة أخرى حفاظاً على صورتك. وإذا كانت النتيجة قد ترتبت، ساعده في الوصول إلى من يستطيع تصحيحها، دون وعد بما ليس في يدك.

ثمرة التدريب فهم أقل التباساً وكرامة محفوظة. تعلم كلمة ترحيب بلغة إنسان قد يقرب المسافة، لكن المنفعة العملية تحتاج أيضاً صبراً على اختلاف التعبير وصدقاً في حدود المعرفة.

التدريب الرابع والعشرون: استقبال طالب المساعدة بكرامة

طريقة استقبال الطلب قد تفتح باباً أو تغلقه. ربما كان الإنسان قد استجمع شجاعة كبيرة ليسأل، فلا يحتاج إلى تعجب من حاله أو درس طويل عن تصرفاته قبل فهم طلبه. اسمع بقدر ما يلزم، وبين ما تستطيع وما لا تستطيع، ولا تعده أن مجرد الحديث معك يعني بدء خدمة لا تملكها.

في الحالة، يطلب شخص مساعدة محددة من فريق، فيضطر إلى سرد قصته لكل عضو على حدة. نتعدد الأسئلة ولا يعرف من يقرر أو متى يأتيه الجواب. يمكن تعيين قناة واضحة وتقليل تكرار المعلومات، مع الالتزام بما يلزم من تحقق مشروع دون تعميم الشك أو الإهانة.

تدريب الاستقبال. جرب أن تبدأ بثلاث جمل: «ما الذي تحتاجه الآن؟ هذا ما نستطيع مساعدتك فيه. إن لم يناسبك، نوضح لك ما نعرفه من طرق أخرى». لا تستخدم الجملة الثالثة لتصرفه إلى جهة لم تتحقق من صلتها بحاجته.

لحظة في الطلب	تصرف يحفظ الكرامة	أثر نراقبه
أول تواصل	شرح دور الجهة وحدودها	يقل الوعد الذي يتخيله السائل

لحظة في الطلب	تصرف يحفظ الكرامة	أثر نراقبه
جمع المعلومة	سؤال له غرض واضح	لا يعاد السرد دون حاجة
الانتظار	موعد جواب واقعي أو بيان عدم معرفته	لا يبقى الطلب معلماً بلا خبر
الاعتذار	جواب محترم واضح	يعرف صاحب الطلب ما انتهى وما بقي

محاكاة الرفض. اكتب ردّاً على طلب لا تستطيع قبوله دون اتهام صاحبه أو المبالغة في الأعذار. مثال: «لا تتوفر لدينا هذه الخدمة، ولا نريد أن نتركك منتظراً. يمكن التحقق من الجهة التالية لهذا النوع من الطلبات». لا تضع اسم جهة لم تتأكد منها في تطبيق واقعي.

المتابعة. راجع الطلبات التي لم يصلها جواب، لا الطلبات التي أنجزت فقط. قد تظهر مشكلة في القناة نفسها، كرسائل لا يفتحها المسؤول أو لغة لا يفهمها. إصلاح الاستقبال منفعة لكل من يأتي بعد ذلك.

حد التقييم. لا تفترض أن الشكر يثبت حسن التجربة؛ قد يشكر السائل لأنه يخشى فقد الخدمة. افتح طريقة آمنة لقول الملاحظة، واجعل قبول الملاحظة مستقلاً عن قبول الطلب. يستحق الإنسان معاملة كريمة حتى عندما لا تملك له حلاً.

التدريب الخامس والعشرون: كلمة تصلح خلافاً آمناً

لا يبدأ الإصلاح بجمع المختلفين على طاولة واحدة في كل حال. قد يكون الخلاف سوء فهم بسيطاً، وقد يتضمن خوفاً أو تعدياً أو تفاوتاً كبيراً في القوة. لا تضغط على متضرر ليواجه من يخشاه باسم الصلح. هذا التدريب في الخلافات اليومية الآمنة التي يقبل أصحابها الحوار، وتبقى قضايا العنف والحقوق المتنازع عليها لأهل الاختصاص والجهات المسؤولة.

في المثال، اختلف زميلان على موعد تسليم مهمة. قال أحدهما: «أنت لا تحترمني»، ورد الآخر: «أنت تبحث عن خطأ». يستطيع وسيط مقبول أن يعيدهما إلى الوقائع: ما الموعد الذي فهمه كل طرف؟ ماذا تغير؟ وما الاتفاق الممكن للمرة التالية؟ لا يبدأ بالحكم على النيات أو بإلزام الطرفين باعتذار متماثل إذا لم تتماثل أفعالهما.

تمرين فصل الطبقات. اكتب جملة من كل نوع: واقعة يمكن التحقق منها، وأثر شعر به صاحبها، وطلب للمستقبل. مثلاً: تأخر الملف يوماً؛ تعطلت مراجعتي؛ أحتاج إبلاغاً مبكراً عند التعثر. هذه الصياغة تساعد على الفهم ولا تمنع بيان حق أو مخالفة.

عبارة مغلقة	سؤال يفتح الفهم	حد مهم
دائماً تفعل ذلك	ما الواقعة التي نراجعها الآن؟	لا ننفي تكراراً موثقاً

عبرة مغلقة	سؤال يفتح الفهم	حد مهم
اعتذر وانتهى	ما الذي يحتاج إصلاحاً بعد الاعتذار؟	لا نجعل الكلام بديلاً عن الحق
كلاهما مخطئ	ماذا فعل كل طرف تحديداً؟	لا مساواة آلية بين الفعلين
انس الماضي	ما الذي يمنع تكرار الضرر؟	لا إسقاط لحق لم يسقطه صاحبه

في الجلسة. اتفق على الغرض والوقت وحدود نقل الكلام. لا تعد بسرية مطلقة لا تستطيع الوفاء بها في حالات تحتاج تدخلاً مسؤولاً. وإذا ظهرت معلومة تغير طبيعة الموقف، فتوقف عن دور لا تملك أهليته.

المتابعة. راقب الاتفاق المحدد: هل تغير موعد الإبلاغ؟ هل أعيد الحق؟ هل توقف السلوك محل المشكلة؟ لا تطلب من الطرفين إعلان محبة أو نسيان فوري. قد يكون النجاح تعاوناً محترماً بحدود واضحة.

مراجعة الوسيط. هل أحببت صورة المصالح أكثر من حاجة الطرفين؟ هل أسرعت النهاية لتبدو الجلسة ناجحة؟ لا تحكم على باطنك من سؤال، لكن صحح ما ظهر في إدارتك. الإصلاح النافع يحتمل البطء والحدود، ولا يشتري هدوء المجلس بقاء الضرر.

التدريب السادس والعشرون: سر المستفيد ليس مادة للتأثير

قد يغري الفريق أن يحكي قصة مؤثرة ليشجع الداعمين، لكن صاحب الحاجة لا يفقد حقه في الخصوصية لأنه تلقى مساعدة. افصل الخدمة عن طلب النشر، وراجع الحاجة إلى كل معلومة. موافقة مضطرب يخشى فقد الدعم ليست أمرًا يصح التعامل معه بخفة، كما أن قواعد الموافقة والنشر وحماية البيانات تختلف بحسب الحالة والبلد.

في المثال، التقط متطوع صورة أثناء تسليم معونة، ثم ظن أن إخفاء الوجه يكفي. بقي في الصورة بيت معروف ووثيقة تحمل اسمًا. لا يكفي تغيير تفصيل واحد إذا بقي التعرف ممكنًا. قد يكون العرض الآمن هو وصف نوع العمل وعدده دون أي قصة شخصية أصلاً.

تمرين الحد الأدنى. قبل جمع معلومة اسأل: لأي غرض نحتاجها؟ من سيستعملها؟ متى ينتهي الاحتياج؟ وهل يمكن تحقيق الغرض بمعلومة أقل؟ لا تحول هذه الأسئلة إلى ادعاء امتثال قانوني كامل؛ هي بداية تنظيمية تحتاج تطبيق النظام المناسب عند العمل الحقيقي.

الغرض	معلومة قد تكفي	زيادة ينبغي فحص ضرورتها
تنسيق موعد	وسيلة تواصل ووقت مناسب	تفاصيل الأسرة كلها
إثبات تسليم	إثبات مناسب يحفظ الحقوق	صورة شخص في موقف حاجة
تحسين الخدمة	وصف العائق دون اسم	نقل القصة كاملة إلى كل الفريق
تعريف الجمهور بالنشاط	عمل إجمالي موثق	كشف تشخيص أو دين أو نزاع

تجربة الفريق. خذ نموذجاً افتراضياً بلا بيانات حقيقية، وامسح منه كل خانة لا تستطيع شرح حاجتها. ثم راجع من يملك الوصول إلى الباقي. لا تتبادل نسخ النماذج الحقيقية في التدريب لتجعل المثال أكثر واقعية.

عند الخطأ. إذا انكشفت معلومة، فاعمل عبر المسؤولين المختصين على الحد من الضرر والتصحيح والواجبات اللازمة. لا تحذف أثر المشكلة من السجل لتبدو العملية سليمة، ولا تعد صاحبها بأن المحتوى اختفى من كل مكان دون تحقق.

المتابعة. اسأل هل بقيت البيانات بعد انتهاء الغرض بلا مسوغ، وهل يعرف الفريق حدود المشاركة. ثمرة التدريب أن تصل الخدمة دون أن تترك وراءها كلفة خفية على سمعة المستفيد أو أمانه. لا يحتاج المعروف إلى جمهور يعرف كل من انتفع به.

التدريب السابع والعشرون: جمع التبرعات داخل اختصاص واضح

جمع المال من الآخرين مسؤولية تختلف عن التبرع بمالك. لا تبدأ حملة لأن القصة مؤثرة، ولا تجعل ثقة المعارف بديلاً عن الترخيص والإجراءات حيث تلزم. تختلف الأنظمة بحسب البلد ونوع الجمع والجهة؛ الطريق العملي هو العمل عبر جهة مأذونة والتحقق من اختصاصها، دون اختلاق قواعد عامة أو نسب مصروفات تصلح لكل مبادرة.

في الحالة، ينشر شخص طلباً لمساعدة أسرة ويضع حسابه، ثم تصل مبالغ تتجاوز الحاجة، ولا يعرف ماذا يفعل بالباقي. المشكلة بدأت قبل وصول المال: لم يتضح الغرض والجهة والمدة وطريقة التعامل مع الفائض. يمكن بدل ذلك إحالة الحالة إلى جهة مختصة أو المساهمة عبر قناة قائمة تتحمل المسؤولية نظاماً.

تمرين قبل الإعلان. اكتب خمس إجابات: من يملك حق الجمع؟ ما الغرض المحدد؟ كيف يتحقق الاحتياج؟ من يحفظ الأموال ويوثقها؟ وما طريقة معالجة الفائض أو التعذر وفق الإذن والنظام؟ إذا لم تتضح الأجوبة، فليس الإعلان هو الخطوة التالية.

موضع الأمانة	سؤال لازم	خطأ لا نبرره بالحماسة
صفة الجهة	هل هي مخولة بهذا العمل؟	اقتراض أن كل مجموعة خيرية مأذونة
الغرض	ما الذي يفهمه المتبرع أنه يموله؟	تغيير الغرض بصمت
الحساب	من يتولى المال وفق الإجراء الصحيح؟	مزج أموال متعددة بلا ضبط
التقرير	ما الذي يمكن إثباته؟	عد الوعود كأموال وصلت

تدريب بلا أموال. راجع إعلاناً افتراضياً واكشف ما ينقصه من وضوح، ثم صغه بحيث لا يضغط على الناس أو يكشف المستفيد. لا تجرب الحملة في الواقع لمجرد اختبار مهارتك. التدريب هنا في جودة القرار، لا في حشد مبالغ بأسرع وقت.

المتابعة. إذا شاركت مع جهة مخولة، التزم دورك وإجراءاتها. لا تنشئ قناة موازية باسم تسريع العمل، ولا تعلن أرقاماً لم يعتمد عليها من يملك السجل. وعند الاشتباه اسلك قناة الإبلاغ المناسبة بدل اتهام علي بلا بيئة.

أثر التدريب أن تعرف متى يكون النفع في التبرع، ومتى يكون في الدلالة، ومتى يكون في عدم بدء عمل لا تستطيع حمل أمانته. كثرة الأموال المجموعة لا تصحح طريقاً غير منضبط.

التدريب الثامن والعشرون: إحالة لا تترك الإنسان بين الأبواب

قولك «راجع المختص» قد يكون صحيحاً، لكنه يبقى ناقصاً إذا كان السائل لا يعرف أين يبدأ. لا يلزم أن تتولى قضيته كلها؛ يمكنك أن تساعد في تحديد نوع الجهة، وطريقة التواصل الرسمية، والسؤال الذي يحتاج عرضه. لا تنقل ملفه إلى أحد دون إذن مناسب أو سبب مشروع محدد.

في المثال، يسأل شخص عن مشكلة لا يملك المتطوع حلها. يعطيه خمسة أسماء ويقول: «واحد منهم يفيدك». كل اتصال يطلب إعادة القصة ولا يتضح الاختصاص. الإحالة الأفضل أقل وأدق: جهة متحققة ذات صلة، مع بيان أن قبولها للحالة ونتيجتها غير مضمونين.

تمرين السؤال الجيد. ساعده في كتابة وصف قصير لا يزيد على ما يحتاجه الاستفسار: المشكلة، وما جربه، وما يريد معرفته. افصل الوصف عن الاتهامات أو التشخيصات التي لم تثبت. إذا كان الموقف عاجلاً، فلا يؤخر تحرير الوصف الوصول إلى المساعدة المحلية اللازمة.

خطوة الإحالة	ما نتحقق منه	ما لا نعد به
تحديد الجهة	صلة اختصاصها بالحاجة	أنها ستقبل كل حالة
قناة التواصل	أنها رسمية وحديثة	سرعة جواب لا نعرفها
نقل المعلومة	إذن وغرض وحد أدنى	سرية لا نملك ضمانها مطلقاً
تسليم الدور	معرفة السائل بمن يتابع	أن المشكلة حلت بمجرد الإحالة

إحالة منسقة بإذن. إذا وافق صاحب الحاجة وكانت الطريقة مناسبة، يمكن أن تعرف الطرف المختص بالغرض المختصر وتنسق بدء التواصل. لا تفعل ذلك بإضافة الجميع إلى مجموعة تكشف معلوماتهم. وقد يفضل السائل الاتصال بنفسه، فاحفظ اختياره.

المتابعة. اسأل عن نجاح الوصول لا عن كل تفاصيل القرار. إذا تبين أن الجهة غير مناسبة، صحح معلوماتك واعتذر دون لوم السائل. لا تكرر الاسم نفسه للآخرين بعد أن عرفت خطأه.

ثمرة التدريب انتقال مفهوم للمسؤولية: يعرف كل طرف ما عليه وما انتهى. لا تستخدم الإحالة لتجميل التخلي، ولا تستخدم الرفق ذريعة للبقاء في دور لا تحسنه. بينهما مساحة واسعة من دلالة صادقة ومساندة تحفظ الإنسان وحدودك معاً.

التدريب التاسع والعشرون: فريق يعرف من يفعل ماذا

قد يفشل عمل صغير لأن الجميع ظن أن غيره سيتولى الخطوة الأخيرة. لا يحتاج الفريق دائماً إلى هيكل كبير، لكنه يحتاج أسماء أدوار واضحة ومواعيد واقعية وقناة يعرف فيها التعثر. ابدأ بالمهمة، لا بالألقاب. من يستقبل الطلب؟ من ينفذ؟ من يراجع؟ ومن يخبر صاحب الحاجة بالنتيجة؟

في الحالة، نتعاون مجموعة لإيصال مواد تعليمية. يشتري أحدهم، ويغلف آخر، ويتولى ثالث النقل. لم يكلف أحد بتأكيد موعد الاستلام، فتصل المواد إلى مكان مغلق. كل فرد أنجز جزءه، لكن الخدمة لم تصل. يظهر هنا أن جودة الأجزاء لا تكفي إذا بقيت الصلة بينها مفقودة.

تمرين سلسلة التسليم. ارسم بالكلمات أربع محطات للعمل، واكتب في كل محطة ما يستلهمه الشخص وما يسلمه ومن يخبره عند التعثر. لا تضع اسم من لم يوافق على المهمة، ولا تحمل أكثر الناس تعاوناً كل الأجزاء التي لم يرغب فيها الآخرون.

محطة	مسؤوليتها	علامة التسليم
فهم الطلب	تأكيد الحاجة والوقت	وصف مقبول من صاحبها
الإعداد	تجهيز ما اتفق عليه	فحص النوع والعدد والحالة
الوصول	تنسيق النقل والاستلام	وصول معلوم أو تعذر مبلغ
الإغلاق	إخبار المعنيين ومعالجة المتبقي	لا وعد مجهول المسؤول

عند غياب فرد. لا تعتمد على أنه سيجد بديلاً سراً. اتفقوا مسبقاً على وقت الإبلاغ والجهة التي تعيد توزيع العمل. وإذا لم يتوفر بديل، فقللوا المهمة أو أجلوا ما يقبل التأجيل بإخبار صاحبه. لا تعلنوا اكتمال الخدمة لأن الإعلان كان مقررًا.

المتابعة. اجتمعوا بقدر ما يلزم لاتخاذ قرار، لا لإعادة رواية ما عرفه الجميع. يكفي في العمل الصغير: ما أنجز؟ ما تعثر؟ ما القرار التالي ومن يملكه؟ لا تتحول الاجتماعات إلى وقت يقطع من التنفيذ دون فائدة.

معيار الفريق. هل يستطيع عضو جديد فهم طريق المهمة؟ وهل يمكن لشخص أن يستريح دون انهيار العمل؟ إذا كان كل شيء يمر بشخص واحد، فهذه مخاطرة تحتاج توزيعاً أو تقليلاً للحجم. التعاون النافع يحفظ أصحاب الحاجة وأصحاب الجهد معاً، ولا يجعل إخلاص فرد بديلاً عن تنظيم مسؤول.

التدريب الثلاثون: شكوى تملك أين لم يصل الخير

قد يسمع المحسن شكوى فيشعر أنها تحو ما بذله. حاول أن تفصل الجهد عن أثره: ربما عملت كثيراً وبقي جزء غير مناسب. قبول الملاحظة لا يعني تصديق كل دعوى بلا فحص، لكنه يعني إعطاءها طريقاً عادلاً لا يعاقب صاحبها لأنه تكلم.

في المثال، تقول مستفيدة إن موعد التسليم أربك يومها. يجب الفريق بأنه خدم عشرات الأسر وأن عليها تقدير الجهد. لم يناقش أحد المعلومة التي قدمتها. الرد الأنفع أن يسأل عن الوقت المتفق عليه وما حدث، ثم يصحح إن ظهر خلل. كثرة من انتفعوا لا تلغي ضرراً محدداً أصاب شخصاً.

تمرين الاستقبال. جرب أربع خطوات: استمع، أعد فهمك، تحقق من الجزء المؤثر، ثم اشرح الإجراء الممكن. لا تعد بالتغيير كله قبل الفحص، ولا تطلب من الشاكي أن يثبت حسن نيته. إذا كانت الشكوى تتعلق بسلوك خطير أو حق محمي، فاتبع القناة المختصة ولا تعالجها بجمالة فردية.

ما يقوله الفريق	ما ينقصه	صيغة أقرب للإنصاف
لم يشتك أحد غيرك	فحص الواقعة نفسها	نراجع ما حدث في طلبك
قصدنا الخير	النظر في الأثر	القصد لا يمنع تصحيح الخطأ
سنحل كل شيء	وعد تحت القدرة	سنفحص هذا الجزء ونجيبك في موعد معلوم
لا نستطيع فعل شيء	بيان سبب وحدود وبدائل	هذا ما نملكه وهذا ما يحتاج جهة أخرى

سجل الملاحظة. اكتب وصف الخلل والإجراء، لا أوصافاً عن شخصية الشاكي. قد تجمع ملاحظات متشابهة لاكتشاف سبب مشترك، لكن لا تجعل العدد ذريعة لإهمال شكوى واحدة ذات أثر كبير.

المتابعة. أغلق الشكوى بعد بيان ما اتخذ، لا بعد نقلها من صندوق إلى آخر. إذا لم ترض النتيجة صاحبها، فوضح طريق الاعتراض المتاح دون خصومة. لا تطلب منه شكراً مقابل قراءة ملاحظته.

سؤال التعلم. ما الذي تغير في العمل بسبب هذه الشكوى؟ قد تكون الإجابة تعديل رسالة أو موعد أو تعريف مسؤولية. وإذا لم يثبت خلل، فاشرح ذلك بلطف وصدق. ثمرة التدريب أن يصير الفريق أقل دفاعاً عن صورته وأكثر قدرة على إصلاح ما يملكه.

التدريب الحادي والثلاثون: طلب العون دون ضياع القرار

قد تكون أنت صاحب الحاجة. لا ينقص ذلك من كرامتك، ولا يلزمك أن تقبل كل مساعدة أو كل شرط غير واضح. تعلم صياغة طلب محدد، وبيان ما تحتاجه وما لا تريد مشاركته، والسؤال عن طبيعة العرض قبل قبوله. ومن حق المساعد أيضاً أن يعتذر عما لا يستطيع.

في الحالة، يحتاج شخص إلى نقل في يوم معين، فيرسل رسالة عامة عن صعوبة حياته. قد يتعاطف الناس لكنهم لا يعرفون الفعل المطلوب. صياغة أوضح: «أحتاج إلى توصيل في هذا الموعد، وإن لم يناسبك فهل تعرف طريقاً مناسباً؟» لا يعني الوضوح أن عليك سرد تفاصيل خاصة لا يحتاج إليها من يعينك.

تمرين الطلب. اكتب الحاجة في جملتين: ما المطلوب ومتى يلزم؟ ثم اذكر ما تستطيع القيام به بنفسك وما تحتاج فيه العون. اجعل الاعتذار ممكناً دون لوم. لا تختبر محبة الناس بقدرتهم على فهم طلب لم تبينه.

موقف	سؤال يحفظ الوضوح	قرار مشروع
عرض مال غير واضح	هل هوهبة أم قرض؟	التريث حتى تتضح طبيعته
مساعدة مع تصوير	هل الخدمة مستقلة عن النشر؟	رفض نشر لا ترتضيه
وعد غير محدد	ما الخطوة والوقت الممكنان؟	البحث عن بديل إذا لم يتضح
تدخل أكبر من حاجتك	هل يمكن الاختصار على هذا الجزء؟	إبقاء ما تملكه من القرار

عند عدم الاستجابة. لا تفسر الصمت وحده حكماً على قيمتك. قد لا تصل الرسالة أو لا يملك صاحبها الجواب. يمكنك تذكير مناسب ثم طريق آخر، دون ملاحقة تستنزفك. وإذا كانت الحاجة عاجلة، فالقناة المختصة أولى من انتظار تفاعل الأصدقاء.

المتابعة والشكر. أخبر من وعدك إذا زالت الحاجة قبل تنفيذه، واشكره على ما قدم بصدق دون إلزام نفسك بعلاقة تبعية. رد الجميل خلق حسن، لكنه لا يعني قبول كل طلب مستقبلي أو التنازل عن حق.

ثمرة التدريب أن تصل حاجتك بصيغة يمكن فهمها، وأن تبقى قادراً على السؤال والاختيار. من جرب الطلب بتواضع وكرامة قد يصبح أرفق بمن يأتيه لاحقاً، يعرف كم يخفف الوضوح، وكم يؤدي الوعد الذي لا ينتهي إلى شيء.

التدريب الثاني والثلاثون: استمرار لا يستنزف صاحبه

قد تبدأ عملاً نافعاً ثم تكتشف أن حجمه أكبر من وقتك. الاعتراف المبكر فرصة لإصلاح، لا شهادة بفشل القصد. افحص ما يمكن تقليله أو نقله أو إيقافه، مع حفظ الوعود القائمة وإخبار من يعتمد عليك. لا تبني الخير على سهر أو إنفاق أو انشغال يضع حقاً متعينة.

في المثال، يلتزم شخص بمتابعة طلبات كثيرة كل مساء، ثم يتأخر في عمله وواجبات بيته. بدل أن يضاعف لومه لنفسه، يمكنه تقليل عدد الطلبات، وتحديد وقت للاستقبال، وتوزيع ما يقبل التوزيع بإذن مناسب. وقد يتوقف عن استقبال الجديد حتى ينهي ما التزم به.

تمرين القدرة الواقعية. انظر إلى أسبوع عادي لا إلى أسبوع الإجازة. اكتب وقتاً تستطيع تخصيصه دون إهمال لازم، ثم اترك مساحة للتعثّر والمرض والظروف. لا تملأ كل فراغ بالتطوع كي يبدو الجدول جميلاً؛ الحياة تحتاج قدرة على الاستجابة لما لم تتوقعه.

علامة ظهرت	سؤال المراجعة	تعديل ممكن
تأخر الوعود	هل العدد أكبر من القدرة؟	إيقاف الجديد مؤقتاً
اعتماد الجميع على فرد	هل يمكن توزيع الدور؟	تسليم جزء واضح لموافق قادر
نزاع متكرر في البيت	هل تزامم حق قائم؟	مراجعة الوقت والأولوية
خدمة فقدت حاجتها	هل نستمر لأجل الاسم؟	إنهاء مسؤول أو تغيير الغرض بإذن

خطة خروج كريمة. حدد ما ستكمله، وما يحتاج بديلاً، وما ستعذر عنه. لا تسلم بيانات الناس لمتطوع جديد لمجرد أنه وافق؛ يلزم الإذن والحاجة والضوابط. وإذا لم يوجد بديل، فالصراحة المبكرة أرفق من بقاء اسمك على مهمة مهجورة.

المتابعة الذاتية. لا تحول التعب وحده إلى حكم على إيمانك، ولا تجعل الحماسة وحدها دليلاً على صلاح الخطوة. انظر إلى الأداء والحقوق والأثر، واطلب المساعدة المناسبة حين تحتاجها. التدريب ليس برنامجاً علاجياً أو معياراً لتشخيص حالتك النفسية.

ثمرة الاستمرار. قد يكون العمل الصغير المتكرر أنفع من عمل يتسع أسبوعاً ثم ينقطع دون خبر. وقد يكون التوقف الصحيح في وقته هو الذي يحفظ معروفاً سابقاً من أن يتحول إلى منة أو غضب أو ضرر. اسأل الله القبول، ثم اختر ما تستطيع أدائه بصدق اليوم.

مختبر القرار الأول: أسرة تحتاج أكثر من شيء

هذه حالة افتراضية مركبة، وليست وصفاً لأسرة حقيقية. أصيب عائل أسرة بعارض يتلقى علاجه لدى المختصين. في البيت طفلان في الدراسة، وشخص كبير يحتاج إلى ترتيب نقله، وقريب يتحمل أغلب الاتصالات. تتقدم مجموعة أصدقاء بعرض شراء طعام لشهر، لكن الأسرة تقول إن لديها طعاماً كافياً، وإن المشكلة الآن في التنقل وتنظيم المواعيد ووقت المتابعة الدراسية.

توقف قبل الحل. لو بدأت بجمع الطعام لأنك تجيد ذلك، فستنجز ما تعرفه وتترك الحاجة التي سمعتها. ولو أعلنت أنك ستتولى كل شؤون الأسرة، فقد تجاوزت القدرة والإذن. المطلوب خطوة بين الطرفين: تسمية الاحتياجات كما اختارت الأسرة عرضها، وتحديد ما تستطيع المجموعة عمله، ثم اتفاق صغير يمكن مراجعته.

في هذا التمرين، تستطيع المجموعة توفير أربع رحلات نقل خلال أسبوع، وجلسين تعليميتين ضمن إطار آمن، وشخص واحد ينسق المواعيد بإذن أصحابها. لا تملك تقديم رعاية طبية، ولا المال اللازم لكل نفقة، ولا الحق في الاطلاع على التقرير الصحي كاملاً. اكتب اقتراحك قبل قراءة الجدول التالي، ثم قارن بين ما وعدت به وما تملكه فعلاً.

الحاجة التي ذكرتها الأسرة	اقتراح داخل القدرة	شرط قبل التنفيذ
الوصول إلى مواعيد معلومة	تنظيم الرحلات الممكنة فقط	تأكيد الوقت والوسيلة والرضا
نشأت الاتصالات	شخص واحد لقناة محدودة	تحديد ما يجوز أن يعرفه وينقله
متابعة تعلم الطفلين	لقاءات تعليمية مناسبة	موافقة من يلزم وحفظ الأمانة التعليمية
أسئلة علاجية	مساعدة في ترتيب السؤال للمختص	عدم اتخاذ قرار علاجي بدل الأسرة

الجواب المقترح. يعرض المنسق الخيارات دون جعل الأسرة مدينة بقبولها. يحدد لكل رحلة سائقاً موافقاً وبديلاً إن أمكن، ويترك قرار العلاج والمعلومات الخاصة عند أصحابها. ترتب الجلسة التعليمية لفهم المهارة لا لإنجاز الواجب بدل الطفل. يكتب الفريق في سجله ما التزم به فقط، ولا يسجل أن «الأسرة أصبحت مستقرة» لأن خدمته لا تثبت ذلك.

بعد يومين يتعذر على سائق تنفيذ رحلته. ما أول ما ينبغي فعله؟ إخبار الأسرة والمنسق في وقت يسمح بالبدل، لا انتظار آخر لحظة أو مطالبة المريض بتغيير الموعد مراعاة للمتطوع. وإذا لم يوجد بديل، يصارح الفريق الأسرة بحده ويساعد في البحث عن طريق مناسب دون وعد مصطنع.

وفي نهاية الأسبوع يقول القريب إن كثرة الرسائل ما زالت ترهقه. لا يجادل الفريق بأنه عينٌ منسقة؛ فوجود المنسق لا يثبت أن التنظيم نفع. يراجعون من يرسل ومن يحتاج الجواب وما الذي يمكن جمعه في رسالة واحدة. هنا تكون الشكوى معلومة لتحسين العمل، لا اتهاماً لحسن النية.

نتيجة نكتبها بصدق. «نفذت ثلاث رحلات من أربع، وأبلغ عن الرابعة مبكراً. أقيم لقاء تعليمي واحد وأجل الثاني باتفاق. قل عدد جهات التواصل، لكن الأسرة طلبت تقليل الرسائل أكثر». هذه نتيجة محددة تحتوي نجاحاً وتعثراً وتعليماً. لا تحتاج إلى تزيين، ولا تمنح الفريق حكماً على القبول.

مختبر القرار الثاني: مبادرة تعليمية أرسلت كثيراً ووصلت قليلاً

في مثال حسابي افتراضي، أرسل فريق دليلاً تعليمياً إلى أربعين شخصاً. رد اثنا عشر بأنهم فتحو الملف، وقال خمسة إنهم جربوا خطوة منه، ولم يتوفر جواب عن البقية. أراد الفريق إعلان أنه «درب أربعين مستفيداً». أين وقع التوسع في الدعوى؟ الإرسال معلوم، والفتح معلوم لمن أجاب، أما التدريب والاستفادة فلا يثبتان للجميع.

لا نعرف أن ثمانية وعشرين لم يفتحوا الملف؛ نعرف أننا لم نتلق خبرهم. ولا نعرف أن السبعة الذين فتحوه ولم يبلغوا عن تطبيق لم يتعلموا شيئاً. التفريق بين المجهول والسلبي جزء من الأمانة. يمكن للفريق تحسين وصفه دون التقليل من جهده: «أرسل الدليل إلى أربعين، وأبلغ اثنا عشر عن فتحه، وأبلغ خمسة عن تجربة خطوة».

المؤشر	الرقم في المثال	ما يسمح بقوله
الإرسال	أربعون	هذا حجم التوزيع المعلوم
الإبلاغ عن الفتح	اثنا عشر	هذا ما وصلنا من إقرار بالفتح
الإبلاغ عن تجربة	خمسة	خمس تجارب مبلّغ عنها، لا نجاح مضمون
بقية المرسل إليهم	ثمانية وعشرون	نتيجتهم غير معلومة من هذا السجل

تمرين التحسين. اختر سؤالاً واحداً يفسر عائقاً محتملاً دون إزعاج الناس: هل كان الملف سهل الفتح؟ أم هل كان الهدف واضحاً؟ لا تجمع عشرة أسئلة لتعرف كل شيء. قدم طريقاً اختيارياً للرد، ولا تجعل استمرار المادة مرتبطاً بالمشاركة في الاستبيان.

ظهرت لاحقاً ثلاث ملاحظات: الملف كبير على الهاتف، والتعليمات تبدأ بمصطلح غامض، وبعض المرسل إليهم لا يحتاج الموضوع الآن. التعديل الأول تقليل العائق التقني، والثاني شرح المصطلح، والثالث تحسين اختيار الجمهور. ليس الحل إعلاناً أكبر بالضرورة؛ قد يزيد الإعلان عدد من تصلهم مادة لا تناسبهم.

اختبار نسخة محسنة. جهاز مقدمة أقصر ونموذجاً عملياً واضحاً، ثم عرضها على عينة صغيرة وافقت على التجربة. اطلب منهم تنفيذ خطوة وبيان موضع الغموض. لا تدّع أن العدد الصغير يثبت أثراً عاماً؛ لكنه قد يكشف خلافاً واضحاً قبل التوسع.

مراجعة الانتشار. الانتشار عدد من يصلهم المحتوى، والمنفعة تتعلق بما يفهمونه ويستعملونه وما يحدث بعد ذلك. قد يتسع الأول ولا يتسع الثاني. وقد تكون مادة محدودة الجمهور عظيمة النفع في حاجتها. لذلك اجمع بين تعريف أمين بالمادة، وسهولة الوصول، وملاحظة الاستعمال الفعلي، دون وعد بأثر لم تقسه.

مختبر القرار الثالث: عندما يختلف النافعون

نتعاون مجموعة على تجهيز أدوات دراسية. يرى بعضهم شراء نوع موحد لأنه أقل كلفة، ويرى آخرون أن احتياجات الأسر تختلف. يبدأ النقاش بعبارته: «من يعترض لا يريد نجاح الخير». هنا صار الخلاف في الوسيلة اختباراً للنيات. أعدّه إلى السؤال القابل للفحص: ما الحاجة؟ وما الخيارات؟ وما الكلفة والضرر في كل خيار؟

في هذا المثال الافتراضي، يوجد عشرون طلباً. عشرة تطلب النوع الأول، وستة تطلب النوع الثاني، وأربعة لم تتضح حاجتها. يستطيع الفريق شراء النوعين ضمن موارده، لكن الفرز يحتاج ساعة

إضافية. لا تحسم الأرقام وحدها القرار؛ يلزم التثبت من مناسبة النوع، والإذن في استعمال المال لغرضه، والقدرة على الفرز الصحيح. لكنها تكشف أن شراء نوع واحد للجميع ليس الاستجابة الوحيدة الممكنة.

خيار	فائدة ظاهرة	سؤال قبل الاختيار
توحيد الجميع	سهولة الشراء والتجهيز	هل يؤدي الغرض عند أصحاب الطلبات المختلفة؟
توفير نوعين	استجابة لحاجة معلومة	هل يستطيع الفريق ضبط التسليم؟
تأجيل غير الواضح	يقل التخمين	هل يضر التأخير، ومتى يأتي الجواب؟
تحويل بعض الطلبات	ملاءمة جهة أخرى	هل وافق أصحابها وهل الإحالة متحققة؟

تمرين إدارة النقاش. يذكر كل طرف دليلاً على اقتراحه وحداً له. يمنع تحويل التطوع إلى حصانة من السؤال، كما يمنع اتهام الأكثر خبرة بأنه يريد السيطرة لمجرد أنه نبه إلى قيد. يحدد الفريق من يملك القرار وفق اتفاقه المشروع، وما الذي يحتاج الرجوع إلى جهة مسؤولة.

قرار تجريبي محدود. قد يختار الفريق تجهيز الطلبات الستة عشر المعلومة مع فحص عينة، والتواصل مرة مناسبة مع أصحاب الأربعة الباقية. لا يعلن أن العشرين اكتملت، ولا يشتري لهم شيئاً تخمينياً كي يوافق العدد عنوان الحملة.

بعد التنفيذ أخطأ الفريق في طلبين. التصحيح أن يخبر أصحابهما ويعالج الخطأ الممكن، ثم يبحث كيف حدث: هل كانت العلامات غير واضحة؟ هل غاب الفحص؟ لا يكفي البحث عن متطوع يلام، ولا يصح أن يذوب الخطأ في عبارة «نحن بشر» دون إصلاح.

الخلاصة العملية للحالة. حفظ الجماعة لا يعني إسكات الاعتراض، وحفظ النفع لا يعني تجاوز المال والحقوق والاختصاص. الفريق الجيد يستطيع تغيير قراره عند ظهور معلومة، ويستطيع قول «لم نكمل» دون أن ينهار اعتزازه بعمله. بذلك يصبح الخير قابلاً للتعلم، لا صورة يجب الدفاع عنها بأي ثمن.

دفتر متابعة يعمل حين تكون الأيام مزدحمة

استخدم الدفتر في المهمة التي تحتاج متابعة، واترك الأعمال العابرة تمضي بيسرها. لا تكتب اسم المحتاج لمجرد ملء السطر. يمكن استعمال رمز خاص أو وصف عام، مع حفظ ما يلزم من معلومات في موضع مناسب. ومن لا يحتاج سجالاً أصلاً فلا ينشئه لأن الكتاب قدم نموذجاً.

وقت المراجعة	سؤال واحد نافع	قرار ينتج عنه
قبل الالتزام	هل أملك هذا الفعل فعلاً؟	قبول محدد أو اعتذار مبكر
قبل التنفيذ	هل بقيت الحاجة والاتفاق كما هما؟	تأكيد أو تعديل بإذن
عند التعثر	من يجب إخباره الآن؟	إبلاغ وبديل أو توقف واضح
بعد الوصول	ما الذي تحقق مما اتفقنا عليه؟	إغلاق أو متابعة لازمة
بعد مدة مناسبة	هل بقي نفع يبرر الاستقرار؟	استمرار أو تسليم أو إنهاء

جرب الدقتر على ثلاثة أعمال مختلفة في الحجم، لا على عشرات الأشخاص. قد تكتشف أن بعض الخانات لا حاجة لها في عملك، فاحذفها. وقد تحتاج جهة مسؤولة إلى توثيق إضافي يوجه نظامها، فلا تستبدل إجراءاتها بهذا النموذج. التصميم الجيد يقتصد في المعلومة مع حفظ المسؤولية.

في المراجعة الأسبوعية أو في وقت يناسب طبيعة عملك، اختر موقفاً واحداً تعلمت منه. لا تقرأ قائمة طويلة من الأرقام وحدها. اسأل: أي افتراض ظهر خطؤه؟ ما الذي قاله صاحب الحاجة فغير الخطأ؟ أين كان الاعتذار المبكر أرفق؟ هذه الأسئلة تحول التجربة إلى فهم يمكن حمله إلى موقف جديد.

إذا وجدت نفسك تكتب دائماً «كل شيء جيد»، فربما كان العمل مستقراً، وربما لم تفتح باب الملاحظة. لا تخترع مشكلة كي يبدو التقييم عميقاً، لكن راجع إن كانت طريقة السؤال تسمح بجواب مختلف. وإذا وجدت كل شيء سيئاً، فافصل العيوب بدل جمعها في حكم على نفسك أو الناس.

اثنا عشر سؤالاً لا اختبار القرار

اقرأ كل موقف واختر فعلاً أولاً قبل النظر إلى المقترح. ليست الأجوبة أحكاماً تفصيلية لكل واقعة؛ غرضها تدريب الانتباه إلى الحق والقدرة والإذن والمعلومة. إذا تغيرت الوقائع فقد يتغير القرار، وتبقى المسائل التخصصية لأهلها.

الموقف الافتراضي	بداية أنسب للمراجعة
وعدت بنقل شخص ثم تعذر وقتك	إخباره مبكراً والبحث عن بديل مناسب؛ لا الانتظار حتى الموعد
جاء مال لغرض ثم زالت الحاجة	الرجوع إلى الإذن والجهة والنظام؛ لا تحويله إلى غرض تختاره وحدك
رفضت أسرة طعاماً أرسلته	احترام الرفض والاستفسار اللطيف إن رغبت؛ لا اتهامها بعدم الحاجة
زميل يطلب تجاوز الدور لمعرفة شخصية	فحص الحق والإجراء؛ لا جعل الجاه طريقاً للظلم
مستفيد يشكر ولا يجب أسئلة التقييم	فصل خدمته عن الاستبيان؛ النتيجة غير المعلومة تبقى كذلك
طلب منك تشخيص حالة	الإحالة إلى المختص والمساعدة في الوصول؛ لا الاستدلال بتجربتك الشخصية

الموقف الافتراضي	بداية أنسب للمراجعة
صورة مؤثرة ستزيد التبرعات	فحص الضرورة والإذن والخصوصية؛ التأثير وحده لا يبيح النشر
متطوع يتأخر مراراً	توضيح الدور والقدرة وتقليل المهمة؛ لا إبقاء وعوده معلقة
شكوى لا تشبه بقية التجارب	فحصها في نفسها؛ كثرة الراضين لا تبطل واقعة محددة
معلومات قديمة عن خدمة	التحقق من القناة الحالية؛ لا تقديم الذاكرة بوصفها يقيناً
شخص يريد أن يتعلم وأنت أسرع منه	ترك محاولة مناسبة له؛ سرعة إنجازك ليست دائماً غاية الخدمة
مبادرة لم يعد أحد يحتاجها	مراجعة السبب وخطة الإنهاء؛ بقاء الاسم ليس غرضاً كافياً

بعد الإجابة، اشرح ما الذي غير تقديرك في موقف واحد. معرفة
الجواب تحتاج إلى ممارسة حين يجيء الغضب أو الحرج؛ ولا
تقيس هذه الأسئلة تدينك أو صلاحك.

مختبر المتابعة: حين تتغير الحال بعد البداية

التدريب الأول يعلمك كيف تبدأ، أما المتابعة فتعلمك أن القرار الصالح لساعة قد يحتاج إلى تعديل بعدها. لا تكفي جودة النية الأولى إذا تغيرت الحاجة أو القدرة أو المسؤولية. في المختبر الآتي ست حالات افتراضية ممتدة. ليست قصصاً وقعت ولا تقارير نجاح، وإنما مواقف مؤلفة لتجربة السؤال والقرار ثم العودة إليهما بعد ظهور معلومة جديدة. اقرأ كل مرحلة وحدها، واكتب ما ستفعله قبل قراءة المرحلة التالية. ليس المقصود حفظ جواب المؤلف، بل أن تعرف أي معلومة جعلتك تغير اختيارك.

المختبر الأول: نقل يتكرر وموعد لا ينتظر

اتفقت مجموعة أسرية صغيرة على مساعدة قريب يحتاج إلى الانتقال إلى مواعيد معلومة. اقترح أحدهم أن يتولى الرحلة الأولى، وقال آخر إنه يستطيع تغطية يوم مختلف. بدا الأمر يسيراً ما دام الجميع يتحدث في مجلس واحد. لكن صاحب الموعد لا يحتاج حماس المجلس؛ يحتاج أن يعرف من سيأتي، ومتى، وكيف يتصرف إن تعذر النقل. قبل كتابة جدول الشهر، أسأله عما يناسبه، وعما إذا كان يريد أصلاً مشاركة تفاصيل المواعيد مع المجموعة. قد يرضى بمساعدة شخص واحد، وقد يفضل ترتيباً آخر يحفظ استقلاله.

المهمة الأولى أن تحددوا المسؤولية الصغيرة التي يمكن الوفاء بها. يثبت كل مشارك الرحلة التي قبلها فقط، ويعرف صاحب الموعد وسيلة التواصل المباشرة معه. لا ترسلوا تقريره أو سبب زيارته إلى جميع المتطوعين؛ يحتاج السائق إلى ما يلزم الرحلة الآمنة، وقد لا يحتاج إلى معرفة التشخيص. وإذا وجدت متطلبات صحية للنقل فمصدرها المختص، ولا يجتهد فيها أصحاب السيارات. وفي الورقة التجريبية افصلوا «رحلة مقبولة» عن «رحلة مقترحة لم يوافق عليها أحد».

في المرحلة الثانية، يتعذر السائق قبل الموعد بوقت قصير. كتب في المجموعة «من يستطيع أن يذهب؟» ثم انشغل. لم يرد أحد، فظن أن غياب الرد يعني أن أحدهم سيتولى الأمر. هنا يتبين خلل المسؤولية: إرسال النداء ليس تسليماً للمهمة. ما الفعل الأول؟ يبلغ صاحب الموعد أو من فوضه بأن الترتيب تعثر، ثم يطلب بديلاً معلوماً. لا يوعدهم بوصول سيارة قبل قبول سائق محدد. وإذا لم يوجد بديل، يعرف صاحب الحاجة ذلك مبكراً كي يقرر مع الجهة المعنية الخيار المناسب.

في المرحلة الثالثة، نجحت الرحلات التالية لكن القريب بدأ يعتذر عن بعض المواعيد. لا تستنتج أنه لا يقدر المعروف أو أنه صار معتمداً على الآخرين. قد يكون الوقت غير مناسب، أو طريقة السؤال محرجة، أو أسباب خاصة لا يريد كشفها. أسأله عن

خدمة النقل نفسها: هل ما زال يريدوها؟ هل يفضل تقليلها أو تغيير من يتواصل معه؟ استمع إلى رفضه كما تستمع إلى قبوله، ولا تطلب منه أن يسرد ظروفه ليثبت جديته.

تكتب المجموعة في نهاية التجربة: قُبلت أربع رحلات، ونُفذت ثلاث، وتعدرت واحدة وأبلغ صاحبها قبل الموعد. هذا وصف للأداء، لا حكم على النتيجة العلاجية ولا إثبات رضا شامل. ثم تتخذ قراراً محدداً: تثبت التأكيد قبل كل رحلة بوقت مناسب، ووضع وسيلة بديلة للتواصل، وتخفيف تداول البيانات. إذا أصبح النقل منتظماً من جهة أخرى، ينتهي دور المجموعة بعد تسليم واضح. لا تحتفظ بالخدمة كي يبقى اسمك مرتبطاً بها.

سؤال التعلم هنا: أين كان يمكن أن تضيع المسؤولية بين أشخاص يريدون الخير؟ وسؤال الانتقال إلى الواقع: هل في وعودك الحالية مهمة تعرف أنك عرضتها، لكنك لا تعرف من قبلها؟ ابدأ بإزالة هذا الالتباس قبل إضافة وعد جديد. ولا تجعل سجل الرحلات سجلاً لحياة قريبك؛ احفظ ما تحتاجه للمساءلة، ثم تعامل معه وفق الإذن والنظام والحاجة الفعلية.

المختبر الثاني: تعليم مهارة تظهر فائدتها خارج الدرس

طلب شخص أن يتعلم إعداد مستند بسيط لإرساله إلى جهة يحتاجها. جلس معه متطوع، وشرح له الأدوات بسرعة، ثم أنجز المستند بدلاً عنه قبل انتهاء الجلسة. خرج الطرفان مسرورين لأن الملف صار جميلاً. لكن السؤال التعليمي بقي معلقاً: هل يستطيع المتعلم إعادة الخطوات الأساسية وحده؟ لا تبطل قيمة الإنجاز العاجل، فقد يكون الموعد قريباً، لكن لا تسمه اكتساب مهارة من غير تجربة مناسبة. اكتب نتيجتين منفصلتين: أنجز الملف، والتعلم لم يُختبر بعد.

في اللقاء التالي، نتفقان على مهمة أصغر. يفتح المتعلم مستنداً جديداً، ويكتب عنواناً، ويحفظه في موضع يستطيع الوصول إليه. تترك له وقت المحاولة، وتسأله هل يريد إشارة أم شرحاً كاملاً عند التعثر. لا تستولي على الجهاز عند أول بطاء، ولا تحوله إلى اختبار مخرج. وفي المواد التي تحتوي بيانات شخصية استعمل مثلاً مصطنعاً للتدريب، ثم اتركه يطبق على بياناته بخصوصية مناسبة. لا تحتاج إلى نسخة من وثائقه كي تثبت أنك دربته.

بعد أيام، يرسل يقول إنه لا يجد الملف. كان الشرح صحيحاً في الجلسة، لكن مكان الحفظ لم يصبح واضحاً له. هذا ليس دليلاً على عدم صلاحيته للتعلم. عد إلى النقطة التي تعثر فيها: كيف يسمي الملف؟ أين يحفظه؟ كيف يبحث عنه؟ قد تكون ورقة بثلاث

خطوات أو صورة شاشة خالية من البيانات أنفع من إعادة الدرس كله. اسأله أيضاً عن الجهاز والبرنامج اللذين يستعملهما؛ اختلاف الواجهة قد يغير الخطوات، فلا تعرض تعليماتك القديمة على أنها صالحة لكل نسخة.

في مرحلة الثالثة، ينجح في المهمة نفسها، ثم يطلب منك أن تنجز كل مستنداته القادمة لأنك أسرع. يجوز أن تساعد بحسب القدرة والاتفاق، لكن افهم ما يريده الآن: خدمة إنجاز أم تعلم؟ لا تفرض الاستقلال عليه شعاراً، ولا تضع وقتك كله تحت وعد مفتوح لم تقصده. يمكنك الاتفاق على أن يحاول الجزء الذي تعلمه، ثم يطلب العون في موضع محدد. وقد توجد ضرورة أو إعاقة أو ضيق وقت يجعل المساعدة المباشرة أنسب في بعض الأيام.

سجل التقدم لا يقول «أصبح متقناً للحاسب». يقول مثلاً: أنشأ مستنداً قصيراً وحفظه ثم استرجعه في تجربة لاحقة دون مساعدة مباشرة. حدود هذه العبارة جزء من صدقها. لم تختبر الأمان الرقمي كله، ولا التقديم للوظائف، ولا التعامل مع العقود. وكل مهارة إضافية تحتاج إلى هدف مناسب وتجربة تخصها. إذا أحلته إلى تدريب آخر فبين ما تعلمه بإذنه، ولا تتبالغ في مستواه كي تشجعه.

راجع نفسك كذلك: هل كنت تشرح لتريه قدرتك أم لتزيد قدرته؟ ما الخطوة التي قل فيها تدخلك وبقي فيها نجاحه؟ ومتى كانت مساعدتك الكاملة رحمة بالوقت بدل أن تكون عائقاً للتعلم؟ لا يوجد جواب واحد لكل موقف. المنفعة هنا في ملاحظة الشخص والغاية والظرف، ثم اختيار مقدار العون الذي يخدمها. وفي عملك القادم اجعل دليل التعلم فعلاً صغيراً يستطيع صاحبه تكراره، لا مجرد حضور جلسة أو كلمة شكر.

المختبر الثالث: صندوق أدوات مشترك لا يضيع حق مالكة

في حي افتراضي، لاحظ ثلاثة جيران أن كل واحد يشتري أداة يستعملها أياماً قليلة في السنة. اقترحوا إتاحة بعض الأدوات للآخرين. الفكرة نافعة في ظاهرها، لكن الملكية والسلامة والمسؤولية لا تختفي حين نسمي المشروع تعاوناً. البداية ليست جمع كل ما في البيوت، بل تحديد أدوات مناسبة للإعارة، وحالتها، ومن يملك الإذن بإعارتها. تستبعد الأدوات التي تحتاج تدريباً أو تحمل خطراً لا يملك الفريق ضبطه. ولا تصبح هذه الصفحات دليل تشغيل لأداة أو بديلاً لتعليمات صانعها.

يتفق أصحاب الأدوات على طريقة بسيطة للطلب والرد. يعرف المستعير مدة الإعارة، وما إذا كانت هناك ملحقات، وكيف يبلغ عن عيب لاحظته. لا يطلب منه الفريق صورة وثائق لا يحتاج

إليها لمجرد أن غيره يفعل ذلك. وتوضح منذ البداية معالجة التلف أو التأخر وفق اتفاق جائز والنظام المحلي، مع الرجوع إلى المختص عند النزاع. لا تحتزع حكم ضمان مفصلاً من حسن النية، ولا تحمل صاحب الأداة التنازل عن حقه كي يبدو كريماً.

في أول تعثر، تعود أداة ناقصة جزءاً صغيراً. يقول المستعير إنه تسلمها هكذا، ويقول المالك إنه لا يذكر حالتها عند الخروج. هنا لا تفيد المواعظ العامة وحدها. افصلوا ما تعرفونه عما تظنون، وأوقفوا إعادة إعاره الأداة حتى نتضح سلامتها. يمكن معالجة العلاقة بالتراضي دون ادعاء معرفة من تسبب في النقص، لكن التسوية لا تحول الظن إلى واقعة ثابتة في السجل. ثم أصلحوا الإجراء: فحص مناسب قبل الإعارة وبعدها، لا تفتيش مهين ولا اتهام مسبق.

في المرحلة التالية، يكثر الطلب على أداة واحدة، ويشعر جار بأنه لا يحصل عليها لأن المنسق يفضل معارفه. لا يكفي أن يقول المنسق إنه طيب النية. ينبغي وجود ترتيب واضح يمكن شرحه، مع مراعاة الحالات التي تحتاج استثناء مشروعاً وسبباً مفهوماً. لا تعرضوا أسماء المستعيرين في لوحة عامة لإثبات العدالة؛ يمكن بيان آلية الدور من غير كشف معلومات لا تلزم. وإذا كانت القدرة لا تكفي للجميع، قل ذلك بدل قبول طلبات لا يمكن الوفاء بها.

بعد فترة، يصبح إصلاح الأدوات وجمعها عبئاً على شخص واحد. هل يواصل صامتاً حتى يغضب، أم يغلق المشروع فجأة؟ الخيار الأفضل يحتاج إلى حديث مبكر: تقليل الأدوات، تحديد أوقات الاستلام، توزيع مهمة حقيقية يقبلها صاحبها، أو إنهاء الخدمة مع رد الممتلكات. لا تجعل استمرار الاسم سبباً لاستهلاك شخص لم يعد قادراً. خدمة أصغر مستقرة قد تكون أنفع من مخزن واسع تضيع فيه الحقوق.

في التقييم افصلوا مرات الإعارة عن الأشخاص الذين انتفعوا، وعن الأدوات التي عادت صالحة. وقد لا تحتاجون أصلاً إلى عد الأشخاص إذا كانت الغاية حفظ الموجودات وتسليمها. اسألوا عن نقص محدد: أي خطوة سببت التأخير؟ أي معلومة غابت عند التسليم؟ ثم اختاروا تعديلاً واحداً وجربوه. الدرس الذي ينتقل إلى أبواب أخرى هو أن الفضل لا يلغي وضوح الملكية، وأن الثقة تنمو حين يسهل الوفاء والإبلاغ والتصحيح، لا حين يمنع الحرج الناس من السؤال.

المختبر الرابع: مبادرة طعام نتعلم من الرفض

أعدت مجموعة وجبات لتوزيعها على أسر طلبت المساعدة. كانت المجموعة تعرف عدد الطرود التي تستطيع تجهيزها، لكنها لم تسأل بما يكفي عن الملاءمة ووقت التسليم. في التجربة الأولى عاد بعض

الطعام، ورفضت أسرة الاستلام، ولم يجب آخرون. لا تسم هذه النتائج جحوداً، ولا تجزم بأنها دليل عدم حاجة. ما زلتم لا تعرفون أسباباً مهمة. ومهمتكم الأولى أن تمنعوا تكرار الهدر أو الضرر، مع الالتزام بتعليمات سلامة الغذاء والجهة المسؤولة في بلدكم.

يبدأ التحسين قبل الطهو أو الشراء. ما الخدمة التي تستطيعون تقديمها بأمان؟ هل الطعام المعد مناسب أصلاً، أم أن خياراً آخر أصح للمستفيد وقدرتكم؟ من يحدد متطلبات الحفظ والنقل؟ الأسئلة المهنية توجه إلى أهلها، ولا تحل بإرشاد عام من هذا الكتاب. وعند سؤال الأسرة عن حاجتها، اذكروا حدود ما يمكنكم توفيره، ولا تعدوا بتلبية كل اشتراط قبل التحقق. معرفة قيد غذائي لا تجعلكم أهلاً لتقرير بديل علاجي له.

تقول الأسرة التي رفضت إن التسليم جاء في وقت لم تكن فيه موجودة، وإنها لا تريد أن يترك الطعام عند الباب. تصلحون الموعد وطريقة التأكيد بدل مطالبتها بتبرير الرفض أمام الجميع. وتقول أسرة أخرى إن الكمية تزيد على قدرتها على الاستعمال. قد يكون تقليلها وإتاحة الاختيار أنفع من المحافظة على صورة طرد كبير. لا تتحول كثرة ما أعطيتم إلى عبء على من لا يستطيع حفظه أو التخلص منه بطريقة مناسبة.

في دورة لاحقة، يستلم الجميع، فيكتب أحد المشاركين «نجاح كامل». توقفوا عند حدود المعلومة: تعرفون أن التسليم تم وفق السجل، لكن هل عرفتم أن الطعام كان صالحاً عند الوصول وأن الأسرة استطاعت استعماله؟ ليس لازماً إجراء استبيان ثقيل؛ قد تكفي وسيلة ملاحظة متاحة وسؤال اختياري متناسب. وإذا لم تصلكم إجابة فلا تعوضوها بفرض الرضا. لا تجعل الخدمات الأساسية مشروطة بقبول التصوير أو الشهادة الإيجابية.

يظهر بعد ذلك عرض للتبرع بكمية كبيرة لا تملكون وسيلة مناسبة لتخزينها. رفض العرض أو توجيهه إلى جهة قادرة قد يكون أنفع من قبوله ثم إتلافه. اشكروا صاحب العرض وبنوا سبب العجز العملي دون لوم، ولا تقبلوا التزاماً لا تملكون شروطه لأن الفرصة مؤثرة عاطفياً. وإذا كان المال أو المتاع مقيداً بغرض، فلا تغيروا مصرفه وخدمكم؛ راجعوا الإذن والجهة والنظام قبل التصرف.

اختموا التجربة بسؤالين: ما التعديل الذي قلل شيئاً من الهدر أو الحرج؟ وما الذي بقي مجهولاً؟ لا تحتاجون إلى نسبة نجاح جميلة إن كانت بياناتكم لا تسمح بها. يمكن أن تكتبوا أن مواعيد التسليم أصبحت مؤكدة، وأن الكميات تعدلت بحسب الطلب، وأن بعض نتائج الانتفاع لم تعرف بعد. هذه معلومات صادقة تصلح لقرار قادم. أما المنفعة التي تتجاوز هذه التجربة فلا تدعوها حتى يكون لديكم ما يدل عليها.

المختبر الخامس: شكوى تكشف حاجزاً غير منظور

نشر فريق رابطاً لطلب مساعدة، واعتبره سهلاً لأن جميع أعضائه استطاعوا استعماله. وصلت شكوى من شخص لم يكمل النموذج. أجابه أحدهم بأن التعليمات واضحة وأن بقية الناس نجحوا. هذا الجواب أغلق باب معرفة مهم: قد تنجح الخدمة لمن يشبه مصممها، وتعثّر عند شخص يحتاج طريقة مختلفة. لا يلزم أن تثبت الشكوى خطأ الفريق كله؛ يكفي أن تستحق فهم الواقعة التي تحدث عنها.

اسأل صاحب الشكوى، إذا رغب، عن الخطوة التي توقف عندها، وعن وسيلة التواصل الأنسب له. لا تطلب منه إرسال كلمة مرور أو رمز دخول أو تسجيل يحتوي بيانات خاصة. يمكن استعمال نموذج تجريبي خال من المعلومات الحقيقية، أو شرح الخطوة بوسيلة مناسبة. وقد يتبين أن المشكلة في لغة السؤال، أو صعوبة القراءة، أو عدم عمل الرابط على جهازه، أو طلب معلومة لا يملكها. لا تنسب كل تعثر إلى قلة المهارة قبل فحص الطريق نفسه.

يكشف الفريق أن سؤالاً إلزامياً يفترض امتلاك بريد إلكتروني، مع أن الغرض يمكن تحقيقه بقناة تواصل أخرى. لا يعدل الشرط ارتجالياً إذا كان مفروضاً بنظام أو جهة مسؤولة؛ يتحقق أولاً من سببه ومن الصلاحية التي تسمح بالتعديل. إذا كان اختياراً داخلياً

غير لازم، يبحث بدلاً يقلل الاستبعاد ويحفظ الأمن والخصوصية. وتختبر الصياغة الجديدة على أمثلة مناسبة بموافقة أصحابها، مع بقاء الاختبار محدوداً لا دليلاً على نجاحها للجميع.

ثم تظهر شكوى ثانية مختلفة: شخص أتم الطلب ولم يعرف هل وصل. هذه ليست مشكلة السؤال السابق. يحتاج إلى تأكيد واضح وما ينبغي توقعه بعد الإرسال، وإلى وسيلة للاستفسار عند تجاوز المدة المعلنة. لا تعالجوا كل شكوى بتطويل التعليمات حتى تصير أثقل من الخدمة. افصلوا الأعطال، وسموا مسؤولاً عن كل تعديل، واختبروا أن التصحيح لم يمنع فئة أخرى من الوصول.

في جلسة المتابعة، يذكر الفريق أن الشكاوى زادت بعد فتح القناة الجديدة. هل ساءت الخدمة؟ ربما، وربما صار الناس قادرين على الإبلاغ بعدما كانوا يصمتون. لا يكفي العدد وحده للحكم. انظروا إلى طبيعة الشكاوى، وتكرارها، وما أمكن معالجته، وما بقي معلقاً. واحفظوا حق صاحب الشكوى في جواب لائق حتى إذا لم تستطيعوا تنفيذ طلبه. لا تجعلوا سرعة إغلاق السجل غاية تسبق حل السبب أو بيان حدود الحل.

النتيجة التي يمكن تسجيلها هنا محددة: عُرِفَت عقبتان، وعولجت إحداها ضمن الصلاحية، وأحيلت الأخرى إلى المسؤول، وما زال أثر التعديل يحتاج متابعة. هذا أصدق من إعلان شمول الخدمة لكل الناس. وخذ الدرس إلى بيتك أو عملك: حين يقول لك

إنسان «لم أستطع»، جرب أن تسأل عن موضع التعثر قبل أن تقرر أنه لم يحاول. وقد تكون منفعتك في تغيير سؤال واحد، لا في إنشاء مبادرة جديدة.

المختبر السادس: فريق صغير يسلم العمل دون أن يترك الناس في الانتظار

بدأ ثلاثة أشخاص عملاً تطوعياً محدوداً لمساعدة الجيران في الوصول إلى معلومات خدمات متاحة. بعد أشهر تغير وقت اثنين منهم، وبقي الثالث يتلقى الطلبات وحده. كان الإعلان القديم ما زال يوجي بأن الفريق حاضر طوال الأسبوع. هنا لا يتعلق الوفاء بأن يستهلك شخص نفسه ليحافظ على صورة قديمة؛ يتعلق بأن يعرف الناس القدرة الحالية وألا يظلوا في انتظار خدمة لم تعد موجودة كما كانت.

الخطوة الأولى حصر الالتزامات القائمة دون توسيع جمع البيانات. ما الطلب الذي قبل؟ من ينتظر جواباً؟ ما الذي أحيل إلى جهة أخرى وتأكد تسلمه؟ وما الذي كان مجرد استفسار لم تعدوا بمتابعته؟ لا تساووا بين هذه الحالات. ثم تواصلوا مع أصحاب الالتزامات بقدر الحاجة، وبنوا ما تستطيعون إتمامه وما تعذر. لا تكشفوا تفاصيل انشغال الأعضاء الشخصية لتبرير التغيير؛ يكفي بيان أثره على الخدمة بصدق.

يقترح شخص جديد أن يتولى المهمة. لا تسلموه جميع المحادثات القديمة لأن حماسه ظاهر. بينوا الدور والصلاحيات وحدود البيانات، وتحققوا من الملاءمة بحسب طبيعة العمل. ما يحتاج إذنًا أو جهة معتمدة لا يصبح مباحًا بتغيير اسم المتطوع. ويمكن أن يبدأ بمعلومات عامة منشورة، ثم يتدرج في مهمة واضحة ضمن النظام. وفي الطلبات الخاصة يعرف صاحبها انتقال المسؤولية متى كان ذلك لازمًا، وتراعى موافقته وأسباب السرية.

خلال التسليم تظهر معلومة قديمة عن خدمة توقفت. إذا نسخ الفريق الجديد الملف كما هو، ورث الخطأ مع المعلومة. اجعلوا لكل إحالة تاريخ تحقق وقناة أصلية، وميزوا المعلومة التي لم تعد مراجعتها. لا يلزم أن تعرفوا كل شيء؛ لكن يلزم ألا تظهر الذاكرة القديمة في هيئة تأكيد حاضر. وعندما لا تستطيعون التحقق، قولوا إن الإتاحة الحالية غير معلومة، ثم أرسدوا إلى القناة المسؤولة إن عرفتموها.

إذا لم يوجد بديل مناسب، ضعوا خطة إنهاء تحمي الالتزامات. تتوقف الطلبات الجديدة في موعد معلن، وتستكمل المقبولة بقدر القدرة أو يبين تعذرهما، وتراجع الأموال والمتاع والبيانات وفق حقوق أصحابها والأنظمة. ليس الإغلاق اعترافًا بأن الخير السابق

باطل، كما أن الاستمرار ليس برهاناً على صلاحه. القرار يتبع الحاجة والقدرة والمسؤولية، لا الخوف من فقدان اسم اعتاد الناس سماعه.

عند المراجعة الأخيرة، أسألوا: هل يوجد شخص لا يعرف أن دوره انتهى عندنا؟ هل بقي وعد بلا جواب؟ هل يعرف من تولى المهمة حدود ما استلمه؟ ثم احفظوا تعليماً عاماً لا يكشف أسرار المستفيدين: إعلان القدرة الواقعية، وتعيين المسؤول، ومراجعة الإحالات، والتسليم الصريح. هذه الخبرة قد تنفع عملاً لاحقاً، لكن لا تعيدوا استعمال بيانات الناس في غرض جديد لم يأذنوا به. أحياناً تكون خاتمة المنفعة الصادقة أن تغلق باباً بأمانة كي لا يبقى وراءه انتظار مؤذ.

ما يبقى بعد أن تغلق الفصل

لست مطالباً بأن تجمع هذه المجالات كلها في أسبوع، ولا أن تكون طبيباً ومعلمًا ومصلحاً ومدير مبادرة في وقت واحد. اختر باباً تعرف حاجته وتملك شيئاً من قدرته. أدّ حقاً تأخر، أو خفف عبئاً قريباً، أو علم خطوة، أو أصلح وعداً. وكلما اتسعت معرفتك بالناس زاد احتياجك إلى الرفق، لا إلى الحكم عليهم من سرعة جواب أو مقدار شكر.

قد تنسى تفاصيل الجداول، فاحفظ أربعة أسئلة: ما الحاجة؟ ما الحق؟ ما الذي أملكه؟ وكيف أعرف أن فعلي وصل؟ ثم أضف السؤال الذي يحفظ قلبك: لمن أردت هذا العمل؟ لا يجب عنه الناس بدلاً منك، ولا يضمنه نجاح ظاهر. جدد قصدك، وأصلح وسيلتك، واترك لصاحب الحاجة كرامته واختياره.

وحين لا تعرف، قل لا أعرف. وحين لا تستطيع، اعتذر بصدق. وحين تخطئ، أصلح. وحين تستطيع أن تنفع، فلا تحتقر ما تملك لصغر حجمه. قد تكون المنفعة في حمل ثقيل، وقد تكون في كلمة ترد إنساناً إلى طريق واضح، وقد تكون في كف أذى كان يخرج منك وأنت لا تنتبه. نسأل الله أن يجعل عملنا أقرب إلى ما يحب، وأن يرزقنا صدق النية وحسن الاتباع ونفع عباده.

الأصول التي يستند إليها التطبيق

التدريبات والحالات والجداول من إنشاء المؤلف، ولا تنسب تفاصيلها أو مددها أو أرقامها إلى الوحي أو إلى تجربة ميدانية. تقوم على الأصول المبينة في الكتاب: تقديم الفرائض في البخاري 6502، وتنفيس الكربة والعون في مسلم 2699، وقضاء الحاجة ومنع الظلم في البخاري 2442 ومسلم 2580، والدلالة على الخير في مسلم 1893a، والشفاعة في البخاري 1432، وخدمة الأهل في البخاري 676، وعيادة المريض في البخاري 5649، والوعيد في

منع أجر الأجير في البخاري 2270، وحق الجار في مسلم 2625a و2625b، وإزالة الأذى في رواية مسلم 1914d. لكل رواية لفظها وسياقها كما فصلت إحالات الكتاب.

وتستند ضوابط الكرامة والعدل والمال إلى الآيات وتفسيرها المبينة في الأقسام السابقة، ولا تعاد هنا صياغتها على أنها نظام مهني مفصل. أما الإتاحة والخصوصية والقياس والعمل الرقمي، فيستفاد فيها من المراجع المتخصصة المذكورة في الكتاب بحدود بلدانها واختصاصاتها. على المطبق التحقق من النظام والقناة والتعليمات الحالية قبل العمل الواقعي. لا يمنح هذا الفصل أهلية مهنية أو قانونية أو علاجية، ولا يجعل تنظيم المؤلف تشريعاً أو اختباراً للقبول عند الله.

المصادر وإحالات النصوص

- حديث العنوان: اللفظ المختار وحكم الألباني عليه ومصادر التخریج واختلاف الطرق موثقة في حاشية فصل «في معنى العنوان».
- صحيح مسلم 2699.
- صحيح البخاري 2442 وصحيح مسلم 2580.
- صحيح مسلم 1728.
- صحيح البخاري 12، إطعام الطعام والسلام على من عرفت ومن لم تعرف.
- صحيح مسلم 2625a، الوصية بالجار.
- صحيح مسلم 1893a، الدلالة على الخير في سياق طلب المركوب.
- صحيح البخاري 1432، الشفاعة في الحاجة.
- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، حديث 1914، رواية «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة» من طريق شيبان عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة؛ <https://sunnah.com/muslim:1914d>.
- الحرف d فهرسة إلكترونية لتعيين هذه الرواية.
- صحيح البخاري 2363، سقي الكلب وقوله «في كل كبد رطبة أجر».
- صحيح البخاري 676، خدمة الأهل.

- صحيح مسلم 2625b في الفهرسة الإلكترونية، وصية أبي ذر بتكثير ماء المرق وتعاهد الجيران.
- صحيح البخاري 5997، تقبيل الحسن وقول النبي صلى الله عليه وسلم «من لا يرحم لا يرحم»؛ وشرح ابن حجر في باب رحمة الولد.
- صحيح البخاري 2320 وصحيح مسلم 1553، فضل الغرس والزرع إذا انتفع به إنسان أو طير أو بهيمة.
- صحيح البخاري 5027، «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»؛ وشرح ابن حجر في اجتماع التعلم والتعليم وتعدي النفع.
- صحيح البخاري 59، ضياع الأمانة بتوسيد الأمر إلى غير أهله؛ والتطبيق المهني المعاصر استنباط مؤلف لا نظام توظيف منسوب إلى الحديث.
- صحيح البخاري 6502، حديث قدسي في تقديم الفرائض في التقرب ثم النوافل ومحبة الله للعبد؛ لا صلة له بحسم الحديث العنواني المختلف فيه، ولا يميز ترتيب الأعيان بحسب ظاهر أعمالهم.
- صحيح مسلم 1905a، خبر أول من يقضى عليهم وفيه المنفق الذي قصد أن يقال جواداً؛ لا يستعمل للحكم على سرائر المعاصرين أو منع الإعلان المشروع.
- تفسير الطبري، النساء 114.

- تفسير الطبري وابن كثير والبغوي والقرطبي والسعدي، المائدة 2، والنساء 114، والإنسان 8-9، والحشر 9.
- تفسير الطبري والسعدي، البقرة 177؛ وتفسير البغوي والسعدي، آل عمران 92.
- تفسير الطبري والقرطبي والسعدي، البلد 11-17؛ وتفسير الطبري وابن كثير والقرطبي والسعدي، سورة الماعون.
- تفسير الطبري والسعدي والقرطبي، المواضع المحورية من البقرة 261-274.
- تفسير الطبري وابن كثير والسعدي، البقرة 280، في إنظار المعسر وفصل الواجب عن فضل الوضع.
- تفسير الطبري والقرطبي والسعدي، النساء 36، في دوائر الإحسان وحقوق الجار والصاحب وابن السبيل.
- تفسير الطبري والقرطبي والسعدي، الإسراء 23-26، في بر الوالدين وإيتاء ذوي الحقوق ومنع التبذير.
- تفسير الطبري والقرطبي والسعدي، الحجرات 9-10، في رد البغي والإصلاح بالعدل والأخوة الإيمانية.
- تفسير الطبري والقرطبي والسعدي، الشورى 40، في المماثلة والعفو المقيد بالإصلاح.
- تفسير الطبري والقرطبي والسعدي، النساء 85، في الشفاعة الحسنة والسيئة ومسؤولية السعي بالجاه.

- تفسير الطبري والقرطبي والسعدي، الأنفال 1، في رد نزاع المكاسب إلى التقوى والحق وإصلاح ذات البين.
- تفسير الطبري والسعدي، النور 22؛ وصحيح البخاري 4750، في عفو أبي بكر وعودته إلى النفقة على مسطح دون زيادة قصصية.
- تفسير الطبري والسعدي، فصلت 34-35، في دفع السيئة بالأحسن والصبر.
- تفسير الطبري والسعدي، المعارج 24-25، في الحق المعلوم والسائل والمحروم، مع إبقاء الخلاف الفقهي ظاهراً.
- تفسير الطبري والقرطبي والسعدي، البقرة 215، في ترتيب مواضع الإنفاق والتميز بين النفقة الواجبة وصدقة التطوع.
- تفسير الطبري والسعدي، الضحى 9-10، في منع ظلم اليتيم ونهر السائل وصيانة الرد عند تعذر العطاء.
- تفسير الطبري والقرطبي والسعدي، النحل 90، في سبق العدل للإحسان ومنع البغي.
- تفسير الطبري والقرطبي والسعدي، النساء 75، في سياق استنقاذ المستضعفين وحدود تنزيل الآية.
- تفسير الطبري والقرطبي والسعدي، الممتحنة 8-9، في البر والقسط مع غير المحارب ومنع إعانة المعتدي.

- تفسير القرطبي والسعدي، البقرة 195، في سياق الإنفاق وحدود التهلكة والإحسان.
- تفسير الطبري والقرطبي، البقرة 220، في إصلاح مال اليتيم والمخالطة والتحذير من الفساد.
- تفسير القرطبي والسعدي، آل عمران 134، في الإنفاق في اليسر والعسر وكظم الغيظ والعفو.
- تفسير الطبري والسعدي، آل عمران 159، في اللين والمشاورة والعزم والتوكل.
- تفسير الطبري والقرطبي والسعدي، التوبة 60، في مصارف الزكاة وتمييز أسباب الاستحقاق.
- تفسير الطبري والسعدي، التوبة 71، في تناصر المؤمنين والمؤمنات على المعروف والطاعة.
- تفسير الطبري والقرطبي والسعدي، الفجر 17-20، في إكرام اليتيم والتحاض على الإطعام وصيانة الميراث.
- تفسير الطبري والقرطبي والسعدي، المائدة 8، في العدل مع الولي والعدو.
- تفسير الطبري والقرطبي، البقرة 83، في ميثاق بني إسرائيل ووحدة العبادة والحقوق وحسن القول.
- تفسير القرطبي والسعدي، طه 44، في القول اللين وثبات مضمون الدعوة.

- تفسير الطبري والسعدي، الإسراء 53، في اختيار أحسن الخطاب ومنع النزغ.
- تفسير الطبري والقرطبي والسعدي وابن عطية، القصص 77، في استعمال النعمة لطلب الآخرة والإحسان ومنع الفساد.
- تفسير الطبري والقرطبي والسعدي وابن عطية، المائدة 32، في حرمة النفس ومعاني الكف والإنقاذ، مع حفظ سياق بني إسرائيل.
- صحيح البخاري 2758، وصحيح مسلم 998، حديث أبي طلحة في بيرحاء.
- ابن عطية، المحرر الوجيز، المائدة 2 والحشر 9.
- النووي، شرح صحيح مسلم، حديث 2699؛ وتكاتب البر والصلة، باب فضل الرفق، ج 16، ص 112.
- ابن رجب، جامع العلوم والحكم، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، ط 7، 1417هـ/1997م، ج 2 ص 284-295؛ نقلت منه الفروق بين تنفيس الكربة وتفريجها، ودرجات التيسير على المعسر، وضابط الستر، وسعة معنى العون، مع فصل اعتراضه الإسنادي المنقول عن الحكم على أصل حديث مسلم.

- صحيح البخاري 2890، وصحيح مسلم 1119، حديث أنس في خدمة المفطرين للركب في السفر: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر».
- صحيح البخاري 676، حديث عائشة رضي الله عنها في خدمة النبي صلى الله عليه وسلم أهله.
- صحيح مسلم 2326، حديث أنس رضي الله عنه في قضاء حاجة المرأة في الطريق، مع إبقاء الحاجة غير مسماة.
- صحيح البخاري 2325، عرض الأنصار النخيل والاتفاق مع المهاجرين على المؤونة والثمره.
- صحيح البخاري 3798، حديث ضيف الرجل الأنصاري، مع حفظ «ضحك أو عجب» وعدم تعيين المضيف من هذا الطريق.
- جامع الترمذي 3701، خبر ألف دينار في تجهيز جيش العسرة؛ وحكم الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه.
- تفسير الطبري، البقرة 280، في وجوب إنظار ذي العسرة إلى الميسرة.
- ابن حجر، فتح الباري، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه.
- ابن القيم، مدارج السالكين، فصل أفضل العبادة ووظيفة الوقت.

- ابن الجوزي، صيد الخاطر، طبعة دار القلم، ط3، 1433هـ/
2012م، فصل 229، ص325؛ وطبعة مدار الوطن، ط1،
1437هـ/2016م، ص133-134.